فلسفاتُ الحياة الثلاث

بحسب أسفار
الجامعة
وأيُّوب
ونشيد الأنشاد

پيتر كريفت

پيتر كريفت

فلسفاتُ الحياة الثلاث

أوفير
ophir

"أحببتُ الفلسفةَ وممارستُها لسنين طويلة، وأعمقُ ثلاثةِ كُتُب فلسفيَّة قرأتُها على الإطلاق هي أسفار الجامعة وأيُّوب ونشيد الأنشاد".

هذه هي الكلمات التي بها يَفتتحُ پيتر كريفت كتابَه **فلسفاتُ الحياة الثلاث**.

في هذا الكتاب يتناولُ كريفت الأسئلةَ الكبرى المتعلِّقة بالحياة، ويَستعرِضُ الأجوبةَ برشاقةٍ وبراعةٍ تامَّتَين، فهو يرى أنَّ هنالك جوهريًّا ثلاثَ فلسفاتِ حياةٍ فقط، وأنَّ كلًّا منها يُمثِّلُها واحِدٌ من الأسفار التالية في الكتاب المقدَّس:

الحياةُ باطل: سِفر الجامعة
الحياةُ مُعاناة: سِفر أيوب
الحياةُ محبَّة: سِفر نشيد الأنشاد

ويجد كريفت في هذه الأسفار صورةً مُصغَّرة تُمثِّل الفضائلَ اللَّاهوتيَّة الثلاث: الإيمان والرجاء والمحبَّة، و"خُلاصةً جوهريَّة للتاريخ الروحيِّ لهذا العالَم".

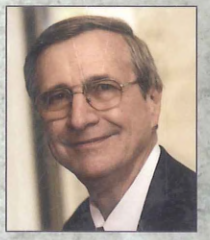

پيتر كريفت هو أستاذٌ في الفلسفة بكلِّيَّة بوسطن. وهو مؤلِّفُ عددٍ كبيرٍ من البحوث والكُتب، منها: "السماء: تَوقُ القلبِ الأعمق" (Heaven: The Heart's Deepest Longing)، و"أساسيَّاتُ الإيمان" (Fundamentals of the Faith)، و"رسائلُ إلى يسوع" (Letters to Jesus)، و"مُنقلَبٌ في الساعة" (A Turn of the Clock).

ISBN 978-90-5950-167-6

أوفير
ophir

فلسفاتُ الحياة الثلاث

فلسفاتُ الحياة الثلاث

بحسب أسفار الجامعة وأيُّوب ونشيد الأنشاد

بيتر كريفت

ترجمة سعيد باز

أوفير
ophir

Originally published in English under the Title:
"The Three Philosophies of Life."

Copyright © 1989 Ignatius Press, San Francisco. All rights reserved.

Arabic Edition © 2012 by **Ophir Printers & Publishers**.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

فلسفاتُ الحياة الثلاث

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٩/٣٣٥٧

ISBN 978-90-5950-167-6

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إهداء إلى

جون مالون (John Mallon) فهو مَن يَعرف.

المحتويات

مُقدِّمة ١١

خلودُ أدبِ الحِكمة ١١

فلسفاتُ الحياة الثلاث ١٢

ثلاثةُ أمزِجةٍ ميتافيزيقيَّة (ماورائيَّة) ١٤

ثلاثُ فضائلَ لاهوتيَّة ١٦

"الكوميديا الإلهيَّة" قبلَ دانتِه ١٨

الجامعة: الحياةُ باطل ٢١

عَظَمة الجامعة ٢٣

الجامعة باعتباره عِلمَ أخلاق ٢٦

الجامعةُ الوجوديُّ ٢٨

عصريَّة الجامعة ٢٩

صمتُ الله في الجامعة ٣٣

خُلاصة الجامعة ٣٥

كاتبُ الجامعة ٣٧

المعاني القصيرة الأمَد... هل تكفي؟ ٤٣

التَّغطيةُ الكُبرى ٤٩

خمسُ طُرُقٍ لإخفاء فيل ٤٩

القياسُ المنطقيُّ البغيض ٥٢

خمسةُ "أتعاب" ٥٤

خمسةُ أباطيل ٦٧
الحاجة إلى جواب: ثلاثةُ أبوابٍ شَيطانيَّة ٧٦
أُصولُ الرَّدّ ٧٨
جوابٌ إضافيٌّ للجامعة: التدخُّل الإلهيُّ ٨٣
الملحَق ٨٣
خاتمة ٨٤

أيُّوب: الحياةُ مُعاناة ٨٧

١. "مشكلةُ الشَّرّ" ٩٣
٢. مشكلةُ الإيمان مُقابلَ الاختبار ١١٠
٣. مشكلةُ معنى الحياة ١٢٠
٤. مشكلةُ الله ١٢٥

نشيد الأنشاد: الحياة محبَّة ١٣٩

١. المحبَّة نشيد ١٤٥
٢. المحبَّة أعظمُ نشيد ١٤٧
٣. المحبَّة حوار ١٥٠
٤. المحبَّة مُتعاوِنة ١٥٢
٥. المحبَّة حيَّة ١٥٣
٦. المحبَّة إنجيل ١٥٤
٧. المحبَّة قوَّة ١٥٦
٨. المحبَّة عَمَل ١٥٧
٩. المحبَّة رغبةٌ وإشباع ١٥٩

١٠. المعاناة تُماشي المحبَّة ١٦٠
١١. المحبَّة اختيارٌ حرٌّ ١٦٣
١٢. المحبَّة مُوافِقة للحقيقة ١٦٥
١٣. المحبَّة دقيقة ١٦٦
١٤. المحبَّة بسيطة ١٧١
١٥. المحبَّة فرديَّة ١٧٤
١٦. المحبَّة تقهرُ كلَّ شيء ١٧٨
١٧. المحبَّة مُفاجأة ١٧٩
١٨. المحبَّة عديمة الخوف ١٨١
١٩. المحبَّة مُبادَلةُ نفس ١٨٣
٢٠. المحبَّة انتِصارية ١٨٥
٢١. المحبَّة طبيعيَّة ١٨٦
٢٢. المحبَّة مُخلِصة ١٨٩
٢٣. المحبَّة مستعدَّة ١٩٠
٢٤. المحبَّة شاملةٌ تمامًا ١٩٣
٢٥. المحبَّة "جنسانيَّة" ١٩٤
٢٦. المحبَّة قويَّةٌ كالموت ١٩٦

مُقدّمة

خلودُ أدبِ الحِكمة

أحببتُ الفلسفةَ ومارستُها لسنين طويلة، وأعمقُ ثلاثةِ كُتُب فلسفيَّة قرأتُها على الإطلاق هي أسفار الجامعة وأيُّوب ونشيد الأنشاد. وفي الواقع أنَّ أوَّلَ كتابٍ جعلَني فيلسوفًا، في الخامسةَ عشرةَ من عُمري تقريبًا، كان سِفر الجامعة.

يُمكنُ تصنيفُ كُتُب الفلسفة بطرُق عدَّة: بين قديم وحديث، أو شرقيٍّ وغربيّ، أو تشاؤميٍّ وتفاؤليّ، أو عقلانيٍّ ولاعقلانيّ، أو أحَدِيٍّ وتعدُّديّ، وتصنيفاتٍ أُخرى سِوى ذلك. ولكنَّ أهمَّ تمييز، كما يقول غبريال مارسِل (Gabriel Marcel)، هو ما بين "الملآن" و"الفارغ"، المتين والضَّحل، العميق والسَّطحيّ. فعندما تكونُ قد قرأتَ جميعَ الكُتُب في جميع مكتبات العالَم؛ وعندما تكون قد رافقْتَ جميعَ حُكَماء العالَم في جميع رحلاتهم إلى أعماق الحِكمة، لن تكونَ قد وجدتَ ثلاثةَ كُتُب أعمق من الجامعة وأيُّوب ونشيد الأنشاد.

إنَّ هذه الأسفارَ الثلاثة ينبوعٌ لا ينضبُ حقًّا. فهي زاخرةٌ بقوَّةِ تجدُّدٍ خفيَّة. وأنا أجِدُ دائمًا غِذاءً جديدًا بقراءتها من جديد، ولا أكِلُّ أبدًا من تعليمها. إنَّها جوهريًّا تُشكِّل خيرَ مِثالٍ على تعريفي للعمل الكلاسيكيّ. فالأعمالُ الكلاسيكيَّة تُشبِه بَقَرةً تُعطيك حليبًا طازجًا كلَّ صباح. والعملُ الكلاسيكيُّ كتابٌ يُكافئُ القِراءة المُكرَّرة على نحوٍ لا ينقطع. بَلِ العملُ

الكلاسيكيُّ كالصَّباح، كالطبيعةِ نفسها: دائمُ الشَّباب، دائمُ التَّجدُّد. لا، ليس كالطبيعة أيضًا، لأنَّها- شأنُها شأنُنا- مَحكومٌ عليها بأن تموت. إنَّ الله وحدَه دائمُ الشَّباب أبدًا، **والكتاب** الذي أوحى الله به وحدَه لا يَشيخ.

متى أرادَ الله أن يُوحِيَ بفلسفةٍ ما، فلِماذا يوحي بأيِّ شيءٍ سِوى الأفضل؟ غير أنَّ الأفضل ليس بالضَّرورة الأكثرَ تعقيدًا. فإنَّ أفلاطون، في **الأَيون** (Ion)، يقولُ إنَّ الآلِهةَ اختاروا عمدًا أضعفَ الشُّعراء كي يُلهِموهم أعظمَ القصائد، حتَّى يكونَ المجدُ لهم، لا للإنسان. وذلك تمامًا هو ما يقولُه القِدِّيس بولس في رسالة كورنثوس الأُولى. ثُمَّ إنَّنا نرى هذا المبدأ نافذًا في الكتاب المقدَّس كلِّه: المُفارَقة المُبينة ما بين بَدائيَّة الشَّاعر وعُمق القصيدة، بين ضآلة المُغنِّي وعَظَمة الأُغنية، بين غياب التَّعقيد البَشَريِّ وحضور **الحكمة** الإلهيَّة. فثمَّة شيءٌ **يخترق** الكلماتِ دائمًا، شيءٌ لا يُمكِنُك أن تُدرِكَه تمامًا ولكنْ أيضًا لا يمكن أن تفوتَه تمامًا، إنْ أنتَ فقط وقفتَ هُناكَ بنَفسٍ مكشوفة. قِفْ تحتَ المَطَر الإلهيّ، فتَنمو بُذورُ الحِكمة في نفسك.

فلسفاتُ الحياة الثلاث

هُنالِك جوهريًّا ثلاثُ فلسفاتٍ في الحياةِ فقط، وكلٌّ منها يُمثِّلُها واحِدٌ من الأسفار التالية في الكِتاب المُقدَّس:

١. الحياةُ باطِل: الجامعة
٢. الحياة مُعاناة: أيُّوب
٣. الحياة محبَّة: نشيد الأنشاد

ولم يُكتَب قطُّ في أيَّة واحدة من فلسفات الحياة الثلاث هذه كِتابٌ أكمَلُ أو أعمق. فإنَّ الجامعة هو العملُ الكلاسيكيُّ الخالدُ بشأنِ الباطل. وأيُّوب هو العملُ الكلاسيكيُّ الخالد بشأنِ المُعاناة. ونشيد الأنشاد هو العملُ الكلاسيكيُّ الخالِد بشأنِ المحبَّة.

أمَّا سببُ كَونِ هذه هي فلسفاتِ الحياةِ الثلاثَ الوحيدة المُمكِنة فهو أنَّها تُمثِّل الأمكنة أو الأحوالَ الثلاثة الوحيدة التي يُمكنُ أن نكونَ فيها. فإنَّ "باطِل" الجامعة يُمثِّل جهنَّم. ومُعاناة أيُّوب تُمثِّل المَطهَر.[1] ونشيد الأنشاد يُمثِّل السَّماء. وجميعُ الأحوال الثلاثة تبدأ هُنا والآنَ على الأرض. وكما عبَّر سي. أس. لِويس، فإنَّ "كلَّ ما يبدو أرضًا هو جهنَّم أو السَّماء". يا لها من عِبارةٍ تهزُّ الكِيان، وقد أضاف إليها لِويس ما يلي: "يا ربّ، افتَحْ عينيَّ الضعيفتَين كفايةً على هذه الحقيقة!".

إنَّ جوهرَ جهنَّم ليس العذاب، بلِ الباطِل؛ ليس المُعاناة، بلِ اللَّامعنى؛ ليس الألَم الجسديَّ، بلِ الألَمُ الروحيّ. وقد كان دانتِه (Dante)[2]، على حقٍّ إذ جعلَ اللَّافتةَ فوق باب جهنَّم تقول: "تخلَّوا عن كلِّ رجاء، أيُّها الداخلون إلى هنا".

ليس الألَمُ جوهرَ جهنَّم، لأنَّ الألم قد يكونُ مُفعَمًا بالرَّجاء. وقد كان

---

(١) مُلاحظةٌ للقُرَّاء الإنجيليّين: رجاءً، لا تطرحوا هذا الكتاب من أيديكم الآن. إنّي لا أفترِض مُسَبَّقًا عقيدةَ المَطهر الكاثوليكيَّة، ولا أسعى إلى هداية أيِّ شخصٍ إليها. فما أعنيه هُنا بالمَطهَر هو أيَّةُ مُعاناةٍ تُطهِّر النَّفس. وهو أمرٌ يبدأ في هذه الحياة. فإذا أُكمِل في الحياة التالية، يُمكِنُك أيضًا أن تدعوَه "حمَّام السَّماء"، إن شئتَ. والتعبيرُ عن التَّقديس بأيِّ لَفظٍ أو مُصطلَح آخر لا بدَّ أن يكونَ عَطِرًا بالمِثل.

(٢) شاعرٌ وفيلسوف ومؤلِّفٌ إيطاليٌّ من القرن الثالث عشر، ويُعدُّ كتاب "الكوميديا الإلهيَّة" (Divine Comedy) أشهرَ مؤلَّفاته (الناشر).

كذلك بالنِّسبة إلى أيُّوب. فإنَّ أيُّوب لم يفقد قطُّ إيمانَه ورجاءَه (الذي هو الإيمانُ مُوجَّهًا إلى المُستقبل)، وقد أثبتَت آلامُه أنَّها مُطهِّرةٌ، مُنَقِّية، مُثقِّفة: إذ أعطَته عينَين كي يرى الله. ولذلك نحن جميعًا على الأرض.

أخيرًا، السَّماءُ محبَّة، لأنَّ السَّماء جوهريًّا هي حضور الله، والله جوهريًّا محبَّة (الله محبَّة).

ثلاثةُ أمزِجةٍ ميتافيزيقيَّة (ماورائيَّة)

يبدأ هايدِغَر (Heidegger) واحدًا من أكثر كُتُبه إقلاقًا بالسؤال الأكثر إقلاقًا: "**لماذا يوجَدُ أيُّ شيء بدلًا من لاشيء؟**" وهو يتكلَّم بشأن ثلاثة أمزِجة تُثير هذا السؤال. إنَّها ثلاثة أمزِجةٍ ميتافيزيقيَّة (ماورائيَّة)، ثلاثةُ أمزِجة تُظهِرُ ليس فقط مَشاعِرَ الفرد بل أيضًا معانيَ الكَينونة. وهذه الثلاثةُ هي الأمزِجة الماورائيَّة الثلاثة التي تبعث فلسفاتِ الحياةِ الثلاثَ التي نجدها في الجامعة وأيُّوب ونشيد الأنشاد. يقول هايدِغَر:

"لماذا يوجَدُ أيُّ شيء بدلًا من لاشيء؟"...

كثيرون من الناس لا يُواجِهون هذا السؤال أبدًا، إذا كان ما نعنيه بالمُواجَهة ليس مُجرَّدَ سماعِه والقراءة عنه بصفته صيغةً استِفهاميَّة، بل أن يسألوا السؤال، أي أن يُثيروه ويطرحوه، أن يلمسوا حتميَّته.

ومع ذلك فإنَّ كُلًّا منَّا يمسُّه- مرَّةً على الأقلِّ وربَّما أكثر- ما في هذا السؤال من قوَّةٍ مخفيَّة، حتَّى لو كان لا يدري بما يجري له. فالسؤالُ يلوحُ في لحظات اليأس الشَّديد، حين تميلُ الأُمورُ

إلى فقدان كلِّ وزن ويعتَري الغموضُ كلَّ معنى. ولربَّما انطلَقَ مرَّةً واحدةً فقط كجَرَس مكبوت يرنُّ داخِلَ حياتنا ثُمَّ يتلاشى بالتَّدريج. وهو حاضِرٌ في لحظات الابتهاج، حين تتجلَّى جميعُ الأُمور حوالَينا وتبدو أنَّها هناك أوَّلَ مرَّة، كما لو أن نحسبها غيرَ موجودة هو أسهلُ من أن نفهمَ أنَّها موجودةٌ وأنَّها على ما هي عليه. كذلك يُخيِّم السؤالُ علينا في حال السَّأم، حين نكونُ بعيدين على السَّواء عن اليأس والفَرَح، ويبدو كلُّ ما حوالَينا مُبتذَلًا على نحوٍ يستعصي الفهم بحيثُ لا نعودُ نُبالي بأيِّ شيءٍ أهوَ موجودٌ أم غير موجود... وبهذا يُثارُ على نحوٍ خاصٍّ السؤالُ "لماذا يوجَدُ أيُّ شيء بدلًا من لا شيء؟"

ولكنَّ هذا السؤالَ يمكنُ أن يُسألَ بوُضوح أو قد يمرُّ في حياتِنا مِثلَ عَصفةِ ريحٍ قصيرة الأمد، دون أن نُميِّز أنَّه سؤالٌ.

إنَّ اليأسَ هو مِزاجُ أيُّوب. ومُعاناتُه ليسَتْ فقط جسديَّة، بل روحيَّةٌ أيضًا. فماذا لَدَيه يقتربُ إليه سوى الموت؟ لقد فقدَ كلَّ شيء، حتَّى الله... بل خُصوصًا الله، في ما يبدو.

أمَّا الفَرَح فهو مِزاجُ الحُبّ- الحبِّ الفَتِيّ، الحُبِّ الجديد، "الوقوعِ في الحُبّ". ذلك هو الأمرُ العَجَبُ في نشيد الأنشاد: أنَّ المحبوبَ ينبغي أن **يكون**؛ أنَّ الحياةَ ينبغي أن **تكون**، أنَّ كلَّ شيء- وقد أشرقَ عليه الآن نورُ المحبَّة الجديدُ- ينبغي أن **يكون**... مجدًا غامضًا بقَدرِ ما كان عند أيُّوب ثِقلًا مُرهِقًا غامضًا.

ثُمَّ إنَّ السَّأم هو مِزاجُ الجامعة. وهذا مِزاجٌ عصريٌّ. ففي الواقع، ليست هناك كَلمةٌ دقيقةٌ للتَّعبير عنه في أيَّة لُغَة قديمة! وفي هذا المِزاج، لا يوجَدُ سببٌ للموت، كما في أيُّوب، ولا يوجَدُ سببٌ للحياة، كما في نشيد الأنشاد. فهذه أعمقُ هُوَّةٍ على الإطلاق.

ثلاثُ فضائلَ لاهوتيَّة

هذه الأسفار الثلاثة تُعلِّم أيضًا أعظمَ ثلاثةِ أُمور في العالَم، "الفضائلَ اللَّاهوتيَّة" الثلاث: الإيمان والرَّجاء والمحبَّة.

إنَّ الدَّرسَ الذي يُعلِّمُه الجامعة هو الإيمان، ضرورةُ الإيمان، بإظهاره البُطلانَ- أوِ الفراغَ- الكُلِّيَّ الذي تتَّصِفُ به الحياة. فالجامعة يستخدمُ فقط العقلَ والاختبارَ البشريَّ والمُلاحظة الحِسِّيَّةَ للحياة "تحت الشمس" كوسائلَ بها نرى ونُفكِّر؛ إنَّه لا يُضيف عينَ الإيمان؛ وهذا ليس كافيًا لإنقاذه من الحصيلة الحتميَّة "باطِل الأباطيل". ثُمَّ يأتي مُلحَقُ السِّفر، في الآيات القليلة الأخيرة، مُتفوِّهًا بكلمة الإيمان. وهذه لا تُبرهَن بالتَّعليل العقليِّ أو بالمُلاحظة الحِسِّيَّة، كما في باقي السِّفر. إنَّ كلمةَ الإيمان هي الكلمة الوحيدة الكبيرةُ كفايةً بحيثُ تملأُ صمتَ الباطل. فالكلمةُ التي تُجيبُ عن بحث الجامعة وتُعطي الجوابَ الصحيحَ للسؤال عن معنى الحياة لا تُعرَف إلَّا بالإيمان: "اتَّقِ الله واحفَظْ وصاياه، لأنَّ هذا هو الإنسان كلُّه: لأنَّ الله يُحضِرُ كلَّ عملٍ إلى الدَّينونة، على كلِّ خفيٍّ، إن كان خيرًا أو شرًّا".

لدى الجامعة إيمانٌ عقليٌّ؛ فهو يؤمنُ بأنَّ الله موجود. ولكنَّ ذلك لا

يكفي. "الشياطين يؤمنون ويقشعِرُّون" (يعقوب ٢: ١٩). فالجامعةُ يُبرهنُ الحاجةَ إلى الإيمان الحقيقيّ، الإيمان الصحيح، الإيمان الذي يُعاش، الإيمان المُخلِّص، بإظهار عواقبِ غيابه، ولو بوُجود الإيمان العقليّ.

أمَّا درسُ أيُّوب فهو الرَّجاء. فليس لدى أيُّوب أيُّ شيءٍ آخر سِوى الرَّجاء؛ إذ إنَّ كلَّ شيءٍ آخرَ قدِ انتُزِع منه. غير أنَّ الرَّجاءَ وحدَه يُمكِّنه من أن يحتملَ وأن ينتصر.

ثُمَّ إنَّ نشيدَ الأنشاد هو بجملته عن المحبَّة، المعنى الأسمى للحياة، الأمر الأعظم في العالَم.

كذلك أيضًا تُعطينا هذه الأسفارُ الثلاثةُ خُلاصةً جوهريَّة عن التاريخ الروحيِّ للعالَم. وقد فعل جي. كاي. تشسترتون (G. K. Chesterton) ذلك في ثلاثِ جُمَل: "كانَتِ الوثنيَّةُ أكبرَ شيء في العالَم، ثُمَّ كانت المسيحيَّة أكبر، ومُنذُئذٍ ما يزالُ كلُّ شيءٍ بالمُقارَنة صغيرًا". إنَّ أيُّوب يُرينا أعاليَ الرَّجاء والبطولة السَّابقَين للمسيحيَّة. لا شكَّ أنَّه ليس وثنيًّا بالمعنى الدَّقيق، ولكنَّه ليس مسيحيًّا بَعد. ويُرينا نشيدُ الأنشاد المركَز الروحيَّ للعصر المسيحيّ، ذلك العصر الذي أَطلقَتْ بشأنه أكاذيبَ هائلةً لا تُصدَّق المؤسَّسةُ الدُّنيويَّة الحديثة، أي القرونُ الوُسطى. أخيرًا، يقولُ لنا الجامعة الحقيقةَ عن العالَم والنَّظرة العالميَّة العصريَّين التاليَين للمسيحيَّة: ما إن يُرفَضُ بازدِراءٍ عَرضُ الزَّواج الذي يُقدِّمه **المُحِبُّ** الإلهيّ، حتَّى يغدوَ مُتعذِّرًا على المُطلَّقة العصريَّة أن ترجِعَ ببساطة إلى كَونها عذراءَ وثنيَّة، كما أنَّ الفَرد الذي يرفضُ السماءَ بازدراء ويختار جهنَّم لا يستطيعُ أن يجعلَ جهنَّم مَطهَرًا، أوِ انعِدامَ الرَّجاءِ رجاءً.

"الكوميديا الإلهيَّة" قبلَ دانتِه

عندَنا في هذه الأسفار الثلاثة من الكتاب المقدَّس تمثيلٌ لِمَلحمة دانتِه العظيمة "**الكوميديا الإلهيَّة**"، من جهنَّم إلى المَطهَر إلى السَّماء. غير أنَّها مُمثَّلةٌ في قلوبنا وحياتنا، لا مُجسَّدةٌ خارِجًا في أماكِنَ ودوائرَ وأدراجٍ وأجواءٍ كَونيَّات. ثُمَّ إنَّها مُمثَّلةٌ هُنا والآن كبُذور، وإنْ كانت ستُكمَل بعد الموت كزُهور.

وبين هذه الأسفار الثلاثة حَرَكةُ انتِقالٍ لتلكَ التي تجري في "**الكوميديا الإلهيَّة**". فأوَّلًا، هُناك انتِقالٌ من الجامعة إلى أيُّوب، على غِرارِ انتِقال دانتِه من جهنَّم إلى المَطَهر. وهذا نَجِدُه في آخِر آيتَين من الجامعة. فإنَّ خُلاصةَ باقي الجامعة هي "باطِلٌ"، أمَّا الخُلاصة المذكورة في الآيتَين الأخيرتَين فهي: "اتقِ الله واحفَظْ وصاياه، لأنَّ هذا هو الإنسان كلُّه: لأنَّ الله يُحضِر كلَّ عملٍ إلى الدينونة، على كلِّ خفيٍّ، إن كان خيرًا أو شرًّا". فهذه تحديدًا هي الفلسفةُ التي يعيشُها أيُّوب، والنتيجةُ أنَّ أيُّوب يُقابلُ الله وينتقلُ عبرَ المَطهر إلى السَّماء.

أمَّا حَرَكة الانتِقال الثانيةُ فهي ما يلي: من أيُّوب إلى نشيد الأنشاد. وهي تحصلُ في خاتمة أيُّوب، حين يرى أيُّوب في الأخير وجهَ الله. إنَّ الجامعةَ هو الغُروب؛ وأيُّوب هو الليل الذي يؤنِسُه رجاءُ الصَّباح؛ ونشيد الأنشاد هو الصَّباح الذي يبدأ فجرُه بالبُزوغ أصلًا في خاتمة أيُّوب. فنشيدُ الأنشاد يبدأ عندما يظهرُ الله لأيُّوب، لأنَّه حيثُ الله فهُناك المحبَّة.

إنَّ المحبَّة هي الجوابُ النهائيُّ لبَحث الجامعة، وبديلُ الباطِل، ومعنى

الحياة. ولكنْ لا يمكنُنا أن نُعطيَ ذلك حقَّ تقديره قبل أن ننظرَ بعُمقٍ في السُّؤال. والسُّؤال أكثرُ من مُجرَّد سؤال؛ إذ إنَّه سَعيٌ أو بحث، إنَّه سؤالٌ يُعاش. فالكلمةُ المقدَّسةُ تدعونا إلى القيام بهذا السَّعي، بهذه الرِّحلة عبرَ اللَّيل إلى الشَّمس المُشرِقة، **الابنِ القائم**. تلك هي "رِحلةُ الحياة" العُظمى. هلَّا تصعد معي إلى مَتنِ سفينة الكتاب المُقدَّس القديمة العظيمة! سأُحاوِلُ أن أستحضِرَ لك ما أراه بينما نقوم بهذه الرِّحلة معًا. فإنَّ ذلك هو في الحقيقة كلُّ ما يستطيع مُعلِّمٌ أن يفعلَه.

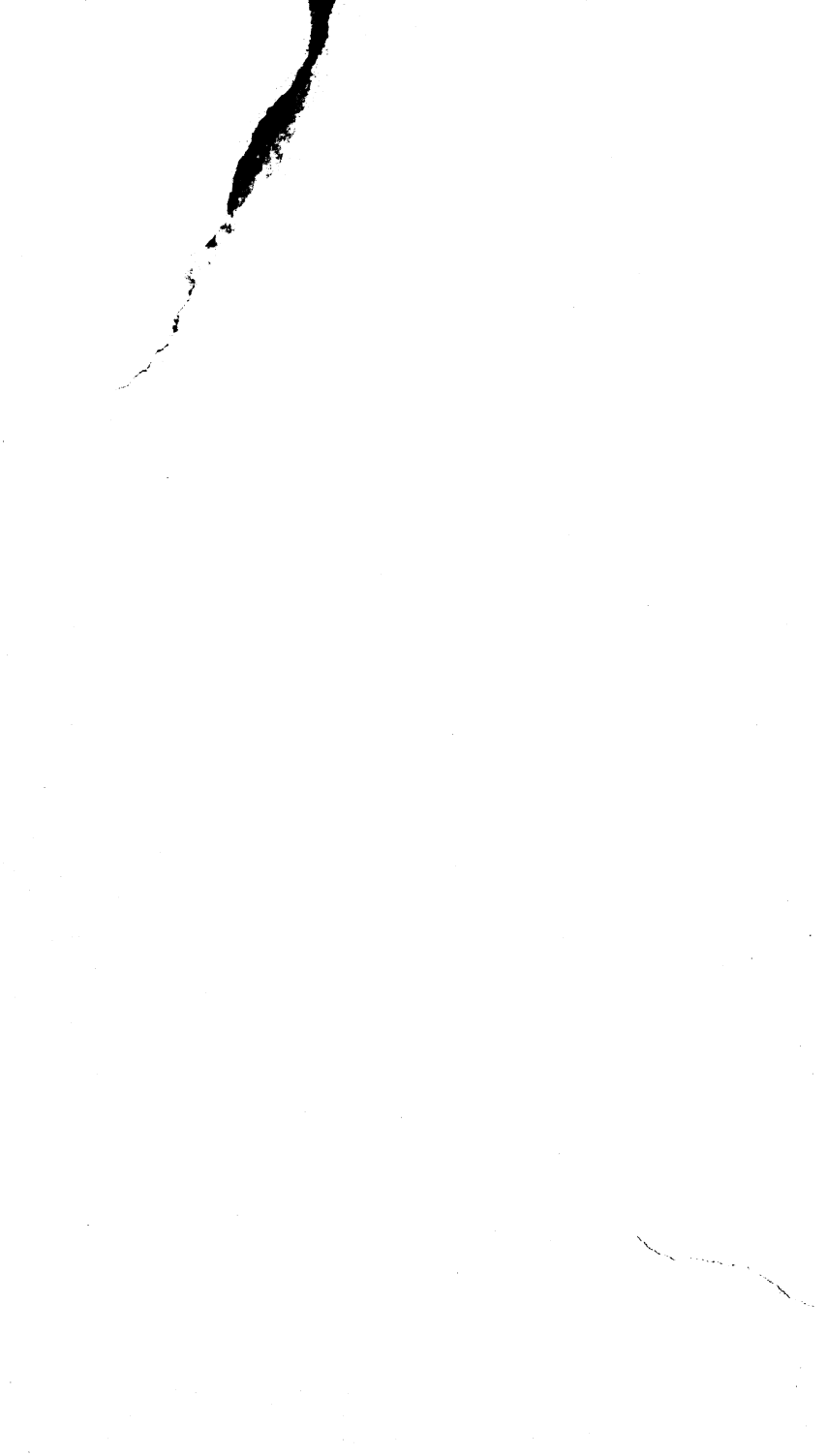

الجامعة

الحياةُ باطِل

عَظَمةُ الجامِعة

الكتابُ المُقدَّس هو أعظَمُ الكُتُب جميعًا، وسِفرُ الجامعة هو وحدَه كِتابُ الفلسفة، الفلسفةِ الخالصة، الفلسفة المُجرَّدة، في الكتاب المُقدَّس. فليس مُفاجئًا إذًا أن يكونَ الجامعةُ هو الأعظمَ بين كُتُب الفلسفة كُلِّها.

ماذا؟ الجامعة أعظم كُتُب الفلسفة كلِّها؟ ولكنَّ الكاتب لا يَعرِف حتَّى مُحاوَراتِ أفلاطون، أو مَنطِقَ أرِسطو، أو حتَّى أُصولَ الاختصار الجيِّد! فهو يَخبطُ عشوائيًّا، ويُغيِّر رأيَه كثيرًا، ويَدَع أمزِجتَه تجرفُه بقَدر أدلَّته تقريبًا. كيف يُعقَل أن يكونَ هذا المركبُ الصغيرُ القديمُ الخَشِن هو فُلكَ نُوحِ كُتُبِ الفلسفة؟ ثُمَّ إنَّ بيتَ القصيد في هذا السِّفر هو "باطل الأباطيل"، لامعنى الحياةِ البشريَّة. فكيف يُعقَل أن يكون كِتابٌ عن اللَّامعنى مُفعَمًا بالمعنى؟

يمكن ردُّ الاعتراض الأوَّل بإدراكِ كَون العَظَمة لا تأتي من الشَّكل بل من المضمون. فشَكلُ الجامعة بسيط، مُباشَر، ساذَج. ولكنَّ المضمون، كما سنرى، هو أعظمُ ما يمكنُ أن تقولَه الفلسفةُ على الإطلاق.

ولكنْ ماذا عن الاعتراض الثاني؟ كيف يُعقَلُ أن يكونَ كتابٌ عن اللَّامعنى مُفعمًا بالمعنى؟ إنَّ الكتابَ العظيمَ يجب أن يكونَ صادِقًا مُخلِصًا، يجب أن يُمارِسَ ما يَعِظُ به. مثلًا، **تاو تي تشِنغ** (Tao Te Ching)، وهو العملُ الكلاسيكيُّ الصينيُّ (**تشِنغ**) العظيمُ عن القوَّة الروحيَّة (**تي**) التي تخصُّ الطريقَ (**تاو**)، يَستخدِم بذاته قوَّةً روحيَّةً (**تي**) غامضةً تُهَيمِن على القارئ، قوَّةً لها طبيعةُ التَّاو نفسُها، تلك الطبيعةُ الخفيَّة التي

تُشبهُ الماءَ المُتدفِّق والتي لا تُقاوَم. أو كِتابًا عظيمًا عنِ العُنف والشَّغف، كروايةٍ لِدوستويڤسكي (Dostoeyvski)، يجب أن يتَّسمَ هو نفسُه بالعُنف والشَّغف. كما أنَّ كتابًا عن التَّقوى أو الوَرَع يجب أن يكونَ وَرِعًا. وهكذا، فإنَّ كتابًا عن البُطلان يجب أن يكون باطلًا أو عابثًا، أمَا يجب أن يكون كذلك؟

كلَّا! إنَّ الفيلسوف الذي كتب الجامعة هو **الأقلُّ** بُطلًا بين الفلاسفة. فالباطِلُ لا يمكنُ أن يكتشفَ نفسَه، تمامًا كما أنَّ الحماقةَ لا يمكنُ أن تكتشفَ نفسَها. إنَّما الحكيمُ وحدَه يعرفُ الحماقة. أمَّا الحَمْقى فلا يعرفون الحِكمةَ ولا الحماقة. فكما نحتاج إلى حكمةٍ لنَعرفَ الحماقة، وإلى نورٍ لنعرفَ الظُّلمة، كذلك نحتاج إلى عمقٍ كي نعرفَ الباطِل، إلى معنًى كي نعرف اللَّامعنى. ويقول پاسكال: "أيُّ شخص لا يرى بُطلان الحياة لا بُدَّ أن يكونَ بالحقيقة باطلًا جدًّا".

مُقارنةً بالعقاقير السرِّيَّة الأنيقة الصَّغيرة لعقولنا المُتاجِرة بالرَّاحة، تلك التي لا تكاد تُساوي جَرَّةَ قَلَم أو نُقطةً على حرف، سِفرُ الجامعة عظيمٌ وعميقٌ ومُرَوِّع مِثلَ المُحيط. ولو كان هذا الفيلسوفُ عائشًا اليوم وعرفَ الفلسفة السائدة في أميركا، السيكولوجيا الشعبيَّة، بما فيها من مُلاطفاتٍ إيجابيَّة، وكثرةِ تعبيرٍ عن المُوافَقة والاستِحسان، ومُصادَقاتٍ ذاتيَّة نَرجسيَّة، وسَمسَراتٍ ورعايات، وطمأناتٍ لطيفة يُكرَّر فيها القول "سلامٌ! سلام" في حينَ لا سلام، لاستَشهَدَ (الفيلسوفُ)- على ما أعتقِد- بقَول جون ستيوارت مِل (John Stuart Mill) إنَّه أفضَلُ أن يكونَ واحِدُنا سُقراطًا مُستاءً من أن يكونَ مُستَهتِرًا راضيًا؛ وبقَول وِليَم باريت (William Barrett): "أن

يُواجِهَ المرءُ وُجودَه الذاتيَّ بيأسٍ خيرٌ من ألَّا يواجِهَه أبدًا".

لقد حُسب الجامعةُ أعظمَ كتابٍ كُتِبَ على الإطلاق في نظر تشاؤميِّين مُتحمِّسين ولاأدريِّين أقلقَهمُ الله، مِثل هِرمان مَلفيل (Herman Melville)، إذ قال في الفصل السابع والتِّسعين من رِوايته "**مُوبي دِك**" *(Moby Dick)* إنَّ "أصدقَ الكُتُب جميعًا هو **سِفرُ الجامعة**". ويقول ثوماس وُلف (Thomas Wolfe)، في الفصل السابع والأربعين من روايته الكلاسيكيَّة الأميركيَّة "**لا يُمكِنك الرُّجوعُ إلى الدِّيار ثانيةً**" *(You Can't Go Home Again)*:

> بينَ كُلِّ ما رأيتهُ أو تعلَّمتُه على الإطلاق، يبدو لي ذلك السِّفرُ أقوى تعبيرٍ عن حياة الإنسان على هذه الأرض وأنبلَ تعبيرٍ وأحكمَه، وأيضًا أسمى زهرةِ شِعرٍ وبلاغةٍ وحقيقة. لستُ ميَّالًا إلى إصدار الأحكام الجازمة في شأن الإبداع الأدبيّ، ولكنْ إذا كان لا بُدَّ لي من إصدار حُكمٍ واحد، يُمكِنني فقط أن أقول إنَّ **الجامعة** هو أعظَمُ عَمَلٍ مكتوبٍ منفردٍ عَرَفتُه على الإطلاق، والحكمة المُعَبَّر عنها فيه هي الأكثرُ بقاءً وعُمقًا.

إنْ فاتَنا أن نجدَ شيئًا يُثبِتُ هذا الحُكم عندما نقرأ الجامعة أوَّلَ مرَّة، يحسنُ بنا أن نقرأه مرَّةً ثانية. فلا بُدَّ لنا إمَّا أن نستبعدَ بشهامةٍ حُكمَ العمالِقة، وإمَّا أن نتسلَّق أكتافهم ونُلقيَ نظرةً أُخرى. أفَما يبدو مُرجَّحًا على الأقلِّ أنَّ القَزَم، لا العِملاق، هو مَن يُخطئ استِشرافَ التَّضاريس؟

لي صديقٌ يُخيِّم في غابات ماين كُلَّ صيف. وذاتَ يومٍ التقى ناسِكًا

كبيرَ السِّنِّ ظلَّ يعيش بمعزِل عن "المَدَنيَّة" طوالَ أربعين سنة. وقد بدا له حكيمًا فوق العادة (على الأقلِّ أحكمَ من العَلمانيِّين في الحضارة الغربيَّة، وإنْ لم يكُن أحكمَ من مسيحيٍّ حقيقيّ). ولمَّا سألَه صديقي عن المصدر الذي منه أخذ حِكمتَه، سحبَ من جيبه الكِتابَ الوحيد الذي ما يزالُ لديه على مدى أربعين سنة، فإذا به نُسخةٌ صفراء مُهَلهَلة من سفر الجامعة– فقط سِفر الجامعة. إنَّ ذلك الكتابَ الواحدَ ما يزالُ كافيًا عنده. ولرُبَّما كانت "المدنيَّة" عديمةَ الحكمة جدًّا؛ لأنْ ليس أيُّ شيءٍ كافيًا عندها أبدًا. لقد بقيَ الناسِكُ الشَّيخ في مكانٍ واحد طبيعيًّا وروحيًّا، واستكشفَ أعماقه؛ أمَّا المَدَنيَّة فمضَتْ تتقدَّم دون قرار، مُنزَلِقةً فوقَ سَطحِ الأعماق العظيمة. وبينما كانت المدنيَّة تقرأ "مجلَّة التايمز" [وتعني **اليوميَّات**]، كان هو يقرأ الأبَديَّات.

الجامعةُ باعتِباره عِلمَ أخلاق

من شأن الفلاسفة السابقين للعَصر الحديث أن يُصنِّفوا الجامعة بوَصفه كِتابًا في الأخلاقيَّات؛ لأنَّه يطرحُ أهمَّ الأسئلةَ الأخلاقيَّة كلِّها، السؤالَ الذي تدور حوله جميعُ الأعمال الكلاسيكيَّة جَوهريًّا إلى أبعد حدّ: **جمهوريَّةُ أفلاطون** *(Plato's Republic)*، **الأخلاقيَّات النِّيقوماخيَّة** *(Nicomachean Ethics)* لأرسطو، **اعترافاتُ أُوغسطينوس** *(Augustine's Confessions)*، "**بحثٌ في السَّعادة**" *(Treaties on Happiness)* ضمنَ **الخُلاصة اللَّاهوتيَّة** (Summa) لتوما الأكوينيّ، **خواطِرُ پاسكال** *(Pascal's Pensees)*، **النِّظامُ الأخلاقيُّ** *(Ethics)* لاسپينوزا (Spinoza)، "**إمَّا/وإمَّا**"

لكيركغارد (Kierkegaard). إنَّه السؤالُ عن الخير الأسمى (summom bonum)، أو القيمة العُليا، أو الغاية القُصوى، أو معنى الحياة.

تناولَ عِلمُ الأخلاق القديمُ دائمًا ثلاثةَ أسئلة. أمَّا عِلمُ الأخلاق الحديثُ فلا يتناوَلُ عادةً إلَّا سؤالًا واحدًا فقط، أو على الأكثر سؤالَين. والأسئلة الثلاثة تُشبِه الأُمور الثلاثة التي يتبلَّغُها أسطولٌ من السُّفن في أوامر إبحاره (الصُّورةُ المجازيَّة مأخوذةٌ من سي. أس. لِويس). فأوَّلًا، يجب أن تعرفَ السُّفُنُ كيف تتجنَّبُ اصطدامَ بعضها ببعض. هذه هي الأخلاقيَّات الاجتماعيَّة، وعلماءُ الأخلاق القُدَماء والمُحدَثون على السَّواء يتَناوَلونَها. وثانيًا، يجبُ على السُّفن أن تعرفَ كيف تبقى مُنظَّمة وتتجنَّب الغَرَق. هذه هي الأخلاقيَّات الفرديَّة، الفضائل والرَّذائل، بناءُ الخُلُق، ونحن نسمع القليل القليل عن هذه من فلاسفة الأخلاق المُحدَثين عندَنا. وثالثًا، وأهمَّ الكُلِّ، يجب أن تعرفَ السُّفنُ لماذا الأُسطولُ مُبحِرٌ بالدَّرجة الأُولى. ما مَهمَّتُه؟ وما مَقصِده؟ هذا هو سؤال الخير الأسمى، وما مِن فلاسفةٍ مُحدَثين، عدا الوجوديِّين، يَبدون مُهتمِّين مُجرَّدَ اهتِمام بهذا السؤال، أعظم الأسئلة كلِّها. وربَّما لذلك السبب تبدو الفلسفة الحديثة في مُعظَمِها كثيرةَ الضَّعف والشَّكوى، وبالغةَ التخصُّصِ والنُّخبويَّة، وقبلَ كلِّ شيءٍ مُضجِرةً جدًّا، في نظر الناس العاديِّين.

أعتقدُ أنِّي أعرفُ لماذا لا يجرؤُ الفلاسفةُ المُحدَثون على إثارة أعظم الأسئلة، والسببُ هو هذا: لأنْ لا جوابَ لَدَيهم عنه. إنَّها فَجوةٌ كبيرةٌ جدًّا بحيثُ لا يمكنُ أن يسدَّها إلَّا شجاعةُ وُجوديٍّ أو إيمانُ مؤمنٍ بالله.

الجامِعةُ الوجوديُّ

لم يكُن أوَّلَ وجوديٍّ هو سارتر (Sartre)، وإنْ كان هو مَنِ ابتكر هذا المُصطلَح. ولا كان كيركغارد أو نيتشه (Nietzsche)، مع أنَّ أغلبيَّة الكُتُب المدرسيَّة تقول هذا. حتَّى إنَّه لم يكُن پاسكال، مع أنَّه أنبأ مسبَّقًا بنِصْف فِكر كيركغارد وكان أوَّلَ من كتبَ عن الاختبار الوجوديِّ الأساسيِّ لِلقَلَق واللَّامعنى الكونيَّين. بل أيضًا لم يكُن هو القدِّيس أُوغسطينوس الذي تَبرزُ **اعترافاتُه** بوصفها أجَلَّ مَثَلٍ على سيكولوجيا العُمق والسِّيرة الذاتيَّة الوجوديَّة بين كُلِّ ما كُتِب على الإطلاق. لم يكُن حتَّى سُقراط الذي وحدَه بين الفلاسفة أوجَدَ فلسفتَه كلِّيًّا.

إنَّ أوَّل وجوديٍّ بالأحرى كان سليمان، أو كاتب سِفر الجامعة أيًّا كان قبلَ نحوِ ألفيَن وخمس مئةِ سنة من **غَثَيان** *(Nausea)* سارتر، أو "**الغريب**" *(The Stranger)* لِكامو (Camus)، أو كتاب بَكِت (Beckett) "**انتِظار غودو**" *(Waiting for Godot)*، أو "**القلعة**" *(The Castle)* لكافكا (Kafka)، لَدَينا هنا الاختبار والحَدْس الأساسيَّان في كُلٍّ من هذه الأعمال الكلاسيكيَّة الحديثة، مُعبَّرًا عنهما بأكثرَ صراحة ومبُاشَرةً وعَفْويَّةً من أيِّ وقت مضى أو أيِّ وقت آتٍ على الإطلاق.

إذا كُنتَ مُطَّلِعًا على الكتابات الوجوديَّة مثل المذكورة آنفًا، فلا بُدَّ أن ترى حقيقةَ هذا التَّصريح فيما نرفعُ السِّتارةَ عنِ الجامعة. ولا داعيَ لأنْ نُمدِّدَ الجامعة حتَّى يُناسِبَه الثَّوبُ الوُجوديّ.

عصريَّةُ الجامعة

يوجَدُ كتابٌ عُنوانُه "**للحياة وقتٌ وللموت وقت**" *(A Time to Live and a Time to Die)*، كتبَه روبرت شورت (Robert Short)، مؤلِّفُ "**الإنجيلُ بحَسَب فُستُق**" *(The Gospel According to Peanuts)*. وذاك كِتابُ صُوَرٍ فوتوغرافيَّة، صورةٌ لكُلِّ آيةٍ من الجامعة. والصُّور كلُّها عصريَّة. إنَّها صُوَرٌ لأشياءَ نراها كلَّ يوم دونَ أن نَلحَظَها (والتَّصوير الفوتوغرافيُّ يُساعِدُنا على القيام بذلك تمامًا: أن نَلحَظَ بدلَ مُجرَّدِ الرؤية). وتلك الصُّوَر مُلائمةٌ على نحوٍ مُذهل. فهي تُبيِّن حداثةَ الجامعةِ الكلِّيَّةَ، عصريَّتَه التامَّة، ذاك الكتابِ المُعاصِرِ على نحوٍ خالِد.

من المُناسِب أن تُعتمَد لإيضاح الجامعة، من بين الكُتُب كُلِّها، صُوَرٌ فوتوغرافيَّة؛ لأنَّ السِّفر هو سلسلةٌ من الفوتوغرافات الكلاميَّة. فالكلمة **فوتوغراف** معناها حرفيًّا هي "كتابةُ ضَوء"، صورةٌ مأخوذة بالنُّور، "تحتَ الشمس". وذلك هو أُسلوبُ الجامعة: المُشاهَدة البسيطة. فعلى خلاف باقي الأسفار في الكتاب المقدَّس، ليس مَوصولًا بكاميرَتِه مِصباحُ إيمانٍ لإظهار أعماقِ الحياة الداخليَّة أو معانيها الخفيَّة. إنَّه يستعملُ فقط النُّورَ المُتوافِر "تحتَ الشمس": مُراقَبةَ الحواسِّ والعقلَ البشريّ. فسَطحُ الحياة يَظهرُ بوضوحٍ كلِّيٍّ، وصدقٍ مُوجِع، وهُزالٍ روحيّ. إنَّ الجامعةَ هو أصدقُ صورةٍ للسَّطح كُتِبَت على الإطلاق.

مهما كان رجالُ الدِّين الذين قرَّروا أوَّلَ الأمر أن يُضمِّنوا الأسفارَ المُقدَّسة القانونيَّة سفرَ الجامعة، فقد كانوا حُكماءَ وشُجعانًا: حُكماءَ لأنَّنا نُقدِّر الشيءَ فقط بالمُفارَقة، والجامعةُ هو النقيض، البديل، لِباقي الكتاب

المقدَّس، السؤالُ الذي يُشكِّل باقي الكتابِ المقدَّسِ الجوابَ عنه. فليس من شيءٍ أتفهُ من جوابٍ دونَ سؤاله. ولذلك نحتاج إلى سِفر الجامعة.

وقد كان رجالُ الدِّين أيضًا شُجعانًا، لأنَّ السؤالَ الذي يُثيرُه الجامعةُ عميقٌ جدًّا بحيثُ لا يُمكن أن يُرضيَ العقلَ والقلب اللَّذَين يجرؤان أن يطرحاه إلَّا جوابٌ أعمقُ كثيرًا. وإذا كان جوابٌ كهذا بعيدَ المَنال، فعلينا إمَّا أن نهربَ من السؤال في تَغطِيةٍ مُضلِّلة وإمَّا أن نهربَ من الحياة يائسين. وهاتان هُما الدُّمَّلتان المُفرِزتان لِلقَيح اللتان يُصابُ بهما العالَم الحديث.

إنَّ الجامعة في الكتاب المقدَّس هو السِّفرُ الواحد الذي ينبغي للإنسان العصريِّ أن يقرأه أكثرَ الكُلّ، لأنَّه الدَّرسُ الأوَّل وباقي الكتاب المُقدَّس هو الدرسُ الثاني، والعصريَّة لا تُبالي بالدرس الثاني لأنَّها لا تُبالي بالدرس الأوَّل. وكُلَّما علَّمتُ الكتاب المُقدَّس ككُلٍّ، أبدأ دائمًا من الجامعة. في عصرٍ آخر، كان في وُسعنا أن نبدأ ببداءة الله، أي سفرِ التكوين. أمَّا في هذا العصر، عصرِ الإنسان، فيجبُ أن نبدأ حيثُ مَريضُنا؛ يجب أن نبدأ بالجامعة.

وسِفر الجامعة عصريٌّ من سبع نَواحٍ على الأقلّ.

أوَّلًا، هو كتابٌ وجوديّ، كِتابٌ عن وُجود الإنسان. إنَّه يطرحُ السؤالَ الكبيرَ لدى الإنسان الحديث: هل لِوُجودي هنا أيُّ مَعنًى على الإطلاق؟ لقد تنازعَتِ العصور السالِفة حول ما يعنيه الوجودُ البشريّ. والجامعةُ وحدَه، بين الكُتب السابقة للعصر الحديث، يجرؤ على طرح السؤال: افترضْ أنَّه خالٍ من أيِّ معنى؟ فسؤالُه ليس عن جوهر الحياة بل عن وجود معنًى لها.

ثانيًا، يُبيِّنُ خَوفَ العصريَّةِ الأعظمَ، وليس هو إلى حدٍّ بعيدٍ الخوفَ من الموت (ذلك كان الخوفَ الأشدَّ عندَ الإنسان القديم)، ولا الخوف من الخطيَّة أوِ الذَّنْب أو جهنَّم (ذلك كان الخوف الأشدَّ عند إنسان القُرون الوُسطى)، بل هو الخوفُ من اللَّامعنى، من "الباطل"، من "الخَواء الوجوديّ"، خوفُ العَدَميَّة.

ثالثًا، يُشارِكُ العقلَ الحديثَ في أفضلِ لمحةٍ من مَلامِحه وفي أسوإها أيضًا. فمع أنَّه كتابٌ باعثٌ على اليأس بعُمق، هو أيضًا كتابٌ صادِقٌ بعُمق. واليأسُ ذاتُه يمكنُ أن يكون مُفعَمًا بالرَّجاء إذا كان صادقًا (نرى في أيُّوب حالةً رائعةً تُمثِّل هذا).

رابعًا، جوابُ الجامعة للسؤال عن الخير الأسمى، أو الغاية القُصوى، أو معنى الحياة، هو الجوابُ العصريّ، وتحديدًا: لا جواب. فمِن بين الحضارات الكُبرى الواحدة والعشرين التي وُجِدَت على كوكبنا، وفقَ حساب المؤرِّخ البريطانيِّ تُوينبي (Toynbee)، حضارةُ الغرب الحديث هي الأُولى التي لا تُضطرُّ لأنْ تُعلِّمَ مُواطِنيها أيَّ جوابٍ للسؤال عن سَبَب وجودهم. وتتمثَّلُ طريقةٌ لطيفةٌ للتَّعبير عن هذا في قولنا إنَّ المُجتمعَ الغربيَّ تعدُّديٌّ ويتركُ لمواطِنيه الحرِّيَّة في أن يختاروا أو يخترعوا قِيَمَهم القُصوى. إلَّا أنَّ طريقةً أصرحَ لقول الشيءِ نفسه هي أنَّ المُجتمع الغربيَّ لا يملك شيئًا سوى جهلِه يُقدِّمُه لمُواطِنيه بشأن هذا السؤال، أهمِّ الأسئلة كلِّها. ففيما ينمو المُجتمع، يَعرفُ أكثرَ فأكثر عن أقلَّ فأقلّ. إنَّه يعرفُ أكثرَ عن الأُمور الصغيرة، وأقلَّ عن الأُمور الكبيرة. يَعرفُ أكثرَ عن كلِّ شيء، وأقلَّ عن الشيءِ الأهمّ.

خامسًا، النتيجةُ العمليَّة لهذا الخَواء في القِيَم هي مذهبُ المتعة. فعندما لا تدري لماذا تفعلُ كلَّ شيءٍ آخر، يبقى في وُسعك أن "تنهبَ اللَّذَّة" و"تنتهزَ الفُرصة". وعندما تتلاشى الغايات القُصوى، تبقى اللُّعَب. إنَّما نصحيةُ الجامعةِ الإيجابيَّةُ الوحيدة هي أن تعيش "مبدأ اللَّذَّة" الفرُويديَّ، ولكنْ أن تكون صادقًا كفايةً بحيثُ تتذكَّر أنَّ "هذا أيضًا باطل" وأنَّه ينتهي بالموت فحسْب، حتَّى لا يُمكِنُك أن تأخذَ معك أيَّة لُعبة من لُعَبك. هنالك أزهار، ولكنَّ وراءَ الأزهار دائمًا جُمجُمةً مُكشِّرة. إنَّ على متنِ **سفينة التايتَنِك** كثيرًا من التَّسليات المُبهِجة!

ومع ذلك، فإنَّ النصحية "تمَهَّلْ وشُمَّ الورود!" أفضلُ من التَّظاهُر بأنَّ مَلاهيَنا المحمومةَ الصَّغيرة مُفعَمةٌ بالمعنى ومُشبِعةٌ إلى التَّمام. إنَّ "المتعةَ" الصادقة مُتفوِّقةٌ روحيًّا على خِداع الذات غير الصادق. وللرَّجُل الذي بنى مخازنَ أكبر كي يخزنَ غِلالَه وقال لنفسه "يا نفسُ... استريحي!" كان لدى السيِّد المسيح كَلامٌ يقولُه عنه أقسى ممَّا خاطبَ به الزانيةَ المُبكَّتة أو اللِّصَّ التائب على الصليب. فأسمى على الإطلاق من نِشدان اللَّذَّات لإشباع الذَّات، يتَّسِمُ الجامعة ببطولة الصِّدق. وأسمى على الإطلاق من السيكولوجيا الشعبيَّة، يرتفعُ إلى وقار اليأس.

سادسًا، سياقُ الجامعة، العالَمُ الذي فيه يُواصِلُ بحثَه، هو عالَمٌ دنيويٌّ أو عَلمانيّ. ففي ذلك العالَم، يُقلَّصُ الدِّين إلى واحدةٍ من عدَّةِ دوائرَ صغيرةٍ في الحياة، إذ يُدرَجُ مثلًا بين "الصحافة" و"العِلم" في فهرس مَجلَّةِ **تايم**. ثُمَّ إنَّه يُقلَّصُ بَعدُ إلى ما يمكن أن يُلاحَظَ تجريبيًّا في دوائر الحياة.

وفي عالَمٍ دُنيويّ، يكون الدِّينُ في مكانٍ ما من الحياة، وليس العكس.

فالله مُقوِّمٌ في حياتي بَدَلَ أن أكون أنا مُقوِّمًا في حياته. والدُّنيويَّة بَشَريَّةُ المركَز، لا إلهيَّةُ المركَز. فقد يُسمَحُ للدِّينيِّ بأن يُوجَد، إلَّا أنَّه مُعرَّفٌ بالدُّنيويّ، بدلَ أن يكون الدُّنيويُّ مُعرَّفًا بالدِّينيّ، كما في باقي الكتاب المقدَّس وفي باقي العالَم السابق للعصر الحديث.

أمَّا سابعُ ناحيةٍ من كَون الجامعة عصريًّا فهي أهمُّ النواحي جميعًا. ذلك أنَّ صفةَ الدُّنيويَّة لا تقتصرُ على سياقِه الشُّهوديِّ (أي متعلِّق بالمراقَبة)، بل إنَّ أُسلوبَه، ونظريَّةَ المعرفة فيه، وجوابَه عن السؤال: كيف تَعرِفُ الحقيقة؟ هي أيضًا دُنيويَّةٌ كلِّيًّا. فالكاتبُ مُراسِلٌ صحافيٌّ لصحيفة الأرض الكونيَّة. وهو لم يُطلَع على أيِّ إعلانٍ إلهيٍّ خاصّ، ولا تعرَّضَ لأيِّ تدخُّل خارقٍ للطبيعة. فما إلهُه إلَّا "الطبيعة وإله الطبيعة"، إلهُ دينِنا العصريِّ المؤسَّسِيّ. إنَّه نصيرٌ للتَّجريب.

صمتُ الله في الجامعة

إنَّ الفرقَ بين الفلسفة والدِّين هو الفرقُ بين التكلُّم والإصغاء، بينَ تكلُّم الإنسان بشأن الله وتكلُّم الله بشأن الإنسان، مع إصغاء الإنسان. هذا هو الفرق بين العقل والإيمان. فالفلسفةُ هي بحثُ الإنسان عن الله؛ والكتاب المقدَّس هو قصَّةُ بحثِ الله عن الإنسان. الفلسفةُ هي كلماتٌ تطيرُ إلى فوق؛ والكتابُ المقدَّس هو الكلمة مُرسلة إلى تحت. والجامعة في الكتاب المقدَّس هو السِّفر الوحيد الذي فيه يبقى الله صامتًا تمامًا. فالكاتبُ لا يلجأ إلى أيِّ إعلانٍ إلهيّ، بل فقط إلى العقل البَشَريِّ الطبيعيِّ ومُشاهَدةِ الحواسّ. إنَّ الله هو فقط **مَوضِعُ** بَحثِه، لا مَوضوعُه؛ المطلوبُ، لا الطالِب؛ "مُتعقِّبُ السَّماء".

وفي أيُّوبَ الله صامتٌ أيضًا، إلَّا في البداية وفي النهاية. غير أنَّ هذين المقطعَين يُشكِّلان الفرقَ بين أيُّوب والجامعة. فلأنَّ الله يتكلَّم، يملك أيُّوب كلَّ شيء، وإنْ كان لا يملكُ أيَّ شيء. ولأنَّ الله صامت، لا يملك الجامعة أيَّ شيء، وإن كان يملك كلَّ شيء.

يتكلَّم الله مرَّتين في أيُّوب. ففي الأصحاحَين الأوَّلَين، نراه يُسائل أيُّوب، يمتحنه. وفي ضوء هذه البداية، نفهم نحنُ القُرَّاءَ الجُزءَ المُتوسِّطَ الطويل، بحْثَ أيُّوب عن الله، وأيضًا بحثَ الله عن أيُّوب حقًّا. ولكنَّ هذين الأصحاحَين لم يكونا في حَوزة أيُّوب. فالله يبدو له صامتًا، تمامًا كما بدا للجامعة.

في الأصحاحات الخمسة الأخيرة من أيُّوب، يتكلَّم الله من العاصفة. وليس في أدَبِ العالَم كُلِّه ما هو أكثرُ عُمقًا من هذا الخطاب. فهو كافٍ لإرضاء أيُّوب، الرَّجلِ الأصعبِ إرضاءً على الأرض. لأنَّ أيُّوب لم يكُن صبورًا، بل كان نافِدَ الصَّبر. لقد كان أيُّوب من القَوم الذين شِعارُهم "أرِني!" فمهما كان مخبَّئًا في هذه الأصحاحات، فهو عظيمٌ كفايةً بحيثُ يُرضي الرَّجُلَ الأصعبَ إرضاءً في العالَم بشأن أصعبِ سؤالٍ في العالَم: سِرِّ الشَّرّ. ولا بُدَّ أنَّه أيضًا سيكون عظيمًا كفايةً بحيثُ يُرضي الجامعة لو تكلَّم الله إليه، إلَّا أنَّه لم يتكلَّم.

ربَّما كان الجامعةُ غيرَ مُصغٍ فحسْب. ففي أيُّوب، لم يَظهَرِ الله في المشهد إلَّا لمَّا سكتَ أيُّوب. وأفضلُ كلماتٍ تضمَّنها سِفرُ أيُّوب هي: "تمَّت أقوالُ أيُّوب". فكما يقول أليهو لأيُّوب: "الله يتكلَّم كلَّ حين، أوَّلًا بطريقة، ثُمَّ بأُخرى، ولكنَّنا نحنُ لا نسمع". أو لعلَّ أيُّوبَ تلقَّى جوابه، أمَّا الجامِعة فما تلقَّاه؛ لأنَّ أيُّوب كان خادمًا مُتألِّمًا، أمَا الجامعة ففيلسوفًا مُتأمِّلًا، ليس غير.

فالجامِعة كان مِثلَ سَقراط؛ وأيُّوب كان مِثل السيِّد المسيح.

إنَّ الكتابَ المقدَّسَ كُلَّه إعلانٌ إلهيّ، كلامٌ إلهيّ. ولكنَّ الله لا يتكلَّم البتَّة مُباشرةً في الجامعة؛ إذ إنَّ الجامعة كُلَّه مُناجاة، لا مُحاوَرة. فكيف هو إعلانٌ إلهيّ؟

إنَّه مُناجاةٌ مُوحًى بها. فالله في عنايته رتَّب لهذا السِّفر الواحد المُكوَّن من فلسفةٍ عقلانيَّة مُجرَّدة أن يُشملَ في الأسفار المقدَّسة القانونيَّة لأنَّ هذا أيضًا إعلانٌ إلهيّ. إنَّه إعلانٌ إلهيٌّ تحديدًا بكَونه غِيابَ الإعلان الإلهيّ. فهو أشبَهُ بالصُّورةِ الظلِّيَّة لباقي الكتاب المقدَّس. إنَّه ما يدعوه فَلتُن شِين (Fulton Sheen) "نعمة سوداء" بدلًا من "نعمة بيضاء"، إنَّه إعلانٌ بواسطة الظُّلمة، لا إعلانٌ بواسطة النُّور. ففي هذا السِّفر يُعلِن لنا الله تمامًا ما هي الحياةُ حينَ لا يُعلِنُ لنا الله ما هي الحياة. إنَّ الجامعةَ يؤطِّرُ الكتابَ المقدَّس كما يؤطِّرُ الموتُ الحياةَ.

خُلاصة الجامعة

إنَّ بنيةَ الجامعة أكثرُ إحكامًا ومَنطقيَّةً بكثيرٍ ممَّا تبدو أوَّلَ وهلة. فالسِّفر يبدو أنَّه يخبطُ على نحوٍ عشوائيّ، ولا يسير إلى غايةٍ مُعيَّنة، ويفتقِرُ إلى استنتاجاتٍ مُعلَّلةٍ بدقَّة، مُجرَّدَ عباراتٍ من الحكمة منثورة على وجهِ صحراء كقَطَراتِ مَطَر قليلة، سُرعانَ ما تمتصُّها التُّربةُ الجافَّة، أو كمُلصَقِ صُورٍ مُلتقطٍ من كُوَّةِ سفينةٍ تغرق.

غير أنَّ تَجَوُّل السِّفر مُتعمَّد، لأنَّ هذا الشَّكل يُعبِّر تعبيرًا مُمتازًا عن

مضمونه، عن رسالته: أنَّ **الحياةَ** تهيمُ إلى لامَكان. فالجامعة يُمارِس ما يُعلِّمه. إنَّ شكلَه واحِدٌ مع مضمونه؛ وهذا هو مِعيارُ الشِّعر العظيم. هل تُطارِدُ الحياةُ ذيلَها؟ حسنًا تمامًا، هذا السِّفرُ سيَفعلُ ذلك! فنهايَتُه وبدايَتُه مُتماثِلتان: "الكلُّ باطل".

ومع ذلك، فإنَّ الجامعةَ مُحاجَّةٌ منطقيَّة، لا مُجرَّدُ مُلاحَظاتٍ مبعَثرة. ومُحاجَّتُه استِنتاجيَّةٌ وبُرهانيَّة، لا استِقرائيَّةٌ وشُهوديَّةٌ فقط. فعلى الرَّغم من أنَّ الكاتبَ ما قرأ قطُّ كتابات أرِسطو، أو أيَّ كتابٍ في المَنطِق، وهو لم يَقصِد واعِيًا أن يسكبَ سِفرَه في قالَبِ قِياسٍ مَنطِقيّ، فالسِّفرُ رُغمَ ذلك **هو** قياسٌ منطقيّ، فقط لأنَّ ذلك هو القالَب الذي في إطاره يُحاجُّ العقلُ البَشَريُّ على نحوٍ طبيعيٍّ وفِطريّ. وخُلاصتي عن الجامعة بشكل قِياسٍ منطقيٍّ (راجِع عنوان "القياسُ المنطقيُّ البغيض") ليست صُورةً على لَوحٍ ممسوح بل صورةٌ بالأشعَّة السينيَّة؛ فالسِّفر لا يفرضُ صورةً جديدةً أو غريبة، بل يكشفُ البنيةَ الموجودةَ أصلًا، العَظمَ تحتَ اللَّحم.

إنَّ مُحاجَّةَ الجامعة مُلخَّصةٌ في الآياتِ الثلاث الأُوَل، ومُوسَّعةٌ في اثنَي عشر أصحاحًا، ثُمَّ مُلخَّصةٌ في الخِتام. فأوَّلُ ثلاثِ آياتٍ هي كامِلُ السِّفر في صُورَة مُصَغَّرة. الآية الأُولى تذكر العُنوانَ والكاتب؛ والآية الثانية تعرضُ بيتَ القصيد، الاستِنتاج؛ والآية الثالثة تُقدِّم البُرهان الجوهريَّ عليه.

١. كلام الجامعة، ابنِ داود، المَلِك في أُورشليم.
٢. باطلُ الأباطيل- قال الجامعة- باطل الأباطيل! الكلُّ باطل!
٣. ما الفائدة للإنسان من كلِّ تعبه الذي يتعبُه تحت الشمس؟

كاتبُ الجامعة

عُنوان السِّفر في الأصل هو أوَّل كلمتَين فيه (وبهذا يتفوَّق الكُتَّاب الأقدمون في الدَّهاء والبراعة على المُحرِّرين والناشرين المُحدَثين الذين يُفرِطون كثيرًا في تغيير عناوين المؤلَّفات). فليس العُنوان هو "الجامعة" (أي المُعلِّم المربِّي الذي يجمَعُ تلاميذَه كي يُنوِّرهم ويُرشِدَهم)، بل "**كلامُ الجامعة**". إنَّه ليس سِيرةً ذاتيَّة، بل عِظَة. حتَّى إنَّ مَن كان الجامعة بالحقيقة هو أمرٌ لا يهمّ. فما يهمُّ ليس المُنشِد، بَل النشيد. فعلى غِرار بوذا، يقولُ الجامعة: "لا تنظروا إليَّ أنا، انظروا إلى **أدهارماي** [تعليمي]".

وهكذا، لا داعيَ لأن نؤيِّدَ أحَدًا في جدال العُلَماء حول كاتِب السِّفر الحقيقيّ. فرأيُ الأقلِّيَّة الذي يقولُ به العُلَماء المُحافِظون يؤكِّد نسبةَ السِّفر حرفيًّا إلى المَلِك سُلَيمان "ابنِ داود، المَلِكِ في أُورشليم". أمَّا رأيُ الأكثريَّة فيزعمُ أنَّ أُسلوبَ السِّفر والألفاظ المستخدمة تؤشِّر جميعها بقُوَّةٍ إلى كاتبٍ آخر ("تؤشِّر بقُوَّة" لا "تُبرهِنُ وجودَ"؛ فإنَّ عِلمَ النُّصوص، مِثلَ الطِّبّ، ليس عِلْمًا دقيقًا، وإنْ كان كثيرون من المُشتغِلين به يتصرَّفون كما لو كان كذلك). فرأيُ الأكثريَّة هو أنَّ السِّفر كُتِب بعدَ سُلَيمان بعِدَّة قرون، في أثناء السَّبي البابليِّ أو بعدَه.

حتَّى لو صحَّ هذا الرأيُ الأخير، فليس ثمَّة بالتَّأكيد أيُّ انتِحال، أو مُحاوَلةُ تضليل. فقد كان أُسلوبًا أدبيًّا لَدَى مؤلِّفين عِبرانيِّين قُدامى أن يُسَمُّوا أنفُسَهم "سُلَيمان"، وبذلك (١) يحفَظون باتِّضاعِ أسماءَهم الحقيقيَّة، و(٢) يُعلِنون مَديونيَّتهم لمُعلِّمِهم ومِثالهم، الحكيمِ النَّموذجيّ. وحيثُ يعرضُ المؤلِّفون العصريُّون بتَباهٍ أنفُسَهم وحداثةَ عهدهم، حتَّى

حين يكونون صغارًا وتكون كُتُبهم أعمالًا هزيلةً غيرَ أصيلة، درجَ الكُتَّاب القُدامى على سلوك السَّبيل المُعاكِس: أن يتَصاغَروا، حتَّى لو كانوا عُظَماء، وأن يُصرِّحوا بأنَّ كُتَبَهم تقليديَّة، حتَّى لو كانت تجديديَّة. إنَّ الأساليبَ الدَّارجة تتغيَّر؛ وما يبقى هو الحاجةُ لأنْ نكونَ مُحترَسين حِيالَ جميع التَّصنيفات الدارجة.

ولمَّا كان ينبغي أن ندعوَ الكاتب باسْم ما، فلنستخدم الاسمَ "سُلَيمان"، وهو اسمٌ مُوافِق، سواءٌ كان حرفيًّا أم رمزيًّا.

إنَّ بيتَ القصيدِ عند سُلَيمان، أو نتيجةَ بحثِه، شَديدَا الوضوح، بحيثُ لا يمكنُ أن يفوتا إلَّا النائمَ فقط. فالاستِنتاجُ مذكورٌ خمسَ مرَّاتٍ في الآية الأُولى (جامعة ١: ٢)، ومُمثَّلٌ عليه في اثنَي عشر أصحاحًا، ثُمَّ مُكرَّرٌ أيضًا ثلاثَ مرَّات أُخَر في الآية الأخيرة (جامعة ١٢: ٨)، على غرارِ "أُسلوب العِظَةَ ذات الثلاث نِقاط" لدى الواعِظِ السَّاذَج: "أوَّلًا، أقولُ لهم ما أودُّ أن أقولَه. ثُمَّ أقولُه. ثُمَّ أقولُ لهم ما قُلتُه". وإنْ فاتَتك أبواقُ المصيرِ المشؤوم الثلاثةُ هذه، فأنتَ أسوأُ حالًا من النائم؛ أنتَ مَيت.

إنَّ بيتَ القَصيد هو "باطل!" ومعنى "باطِلٌ" ليس مُجرَّد الغُرور الذي يتَبدَّى لدى مَن يقفُ أمام مرآة، فذاك التصرُّفُ الباطِلُ نَرجسيَّة؛ بَل المعنى "عَبَثٌ بعَبَث"، "عديمُ الجدوى"، "بلا نفع". والكلمة العِبريَّة تعني حرفيًّا "مُطارَدةَ ريح"، مُلاحَقةَ خيال، صَيدَ وزٍّ برِّيّ... وليس هناك وزٌّ برِّيّ! فليس ثَمَّة غاية (**تيلوس** [telos])، بل مُجرَّدُ نهاية (**فِينيس** [finis])، ألا وهي الموت. أمَّا ما نحتاجُ إليه أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر في الدُّنيا، أي سَبَبٌ للعَيش وسببٌ للموت، فذلك أمرٌ غيرُ مَوجودٍ فعلًا.

ونرى آرشيبَلد مَكليش (Archibald MacLeish) يضع هذا الرُّعبَ المُنتابَ المُزعج في قصيدته "نِهايةُ العالَم" (The End of the World)، ضمن صُورةٍ للحياة إطارُها سِيركٌ مُضحِك:

على غير توقُّعٍ تمامًا، فيما كان ڤاسيرو،
الَبهلوانُ الأعزلُ يُشعِلُ عُودَ كِبريت،
بين إبهامِ قَدَمِهِ وإصبَعِها الثانية،
ورالفُ الأَسَدُ مُنهَمِكٌ في عَضِّ عُنُقِ مَدام سُوسمَن،
وصَوتُ الطَّبل يتمادى، وتيني تكاد تَسعُلُ
في وقتِ حَرجٍ مُرجِّحةً جوكُّو بإبهامِ يدِها...
على غيرِ توقُّعٍ تمامًا انفجرَ السَّقفُ وطار!
وهُناك، هُناكَ فوقَ الرؤوس، هُناكَ، هُناك
تدلَّت تِلكَ الآلافُ من الوجوهِ الشاحِبة،
وتلكَ العُيونُ المَبهورَة،
هُناكَ في الظلام الخالي من النُّجوم،
في مدى التَّوازُنِ والرَّفرفة،
هُناكَ بجناحَينِ هائلَينِ عبرَ الأفضِيَةِ المُزالة،
هُناك في الظُّلمةِ المُفاجئة تهادى غشاءُ النَّعشِ الأسودُ،
غِشاءُ لاشيء، لاشيء، لاشيء... لاشيء أبدًا.

ونجد صُورةً مُروِّعةً أُخرى، عن اللَّاشيئيَّة (Nothingness) في مَوضِع الله، في الحكاية الكلاسيكيَّة الصغيرة التي كتبَها أرنست

هَمينْغواي (Ernest Hemingway) بعُنوان "مَوضِعٌ نظيفٌ مُنارٌ جيِّدًا" (A Clean, Well-Lighted Place):

لم يكُن ذلك خوفًا ولا فزعًا. كان **لاشيئًا** عرفه معرفةً جيِّدة جدًّا. كان ذلك كلُّه **لاشيئًا**، وكان إنسانٌ **لاشيئًا** أيضًا. إنَّه كان ذاك فقط، وكان النُّور هو كلَّ ما احتاج الأمرُ إليه، فضلًا عن نظافةٍ ونظامٍ مُعيَّنَين. لقد عاش بعضُهم فيه ولم يشعروا به قطّ، ولكنَّه هو عَلِمَ أنَّ ذلك كُلَّه كان نادا ولأجل نادا ونادا ولأجل نادا. نادانا الذي في نادا، نادا ليكُنِ اسمُك، وملكوتُك نادا، ولتكُن مشيئتُك في نادا كما هي في نادا. أعطِنا في هذا النادا ندانا اليوميَّ، ونادَ لنا نادانا كما نحن نَنادى ناداتِنا، ولا تَنادَنا في نادا، بل نجِّنا من نادا؛ لأجل نادا[٣].

السَّلامُ يا لاشيءُ، مملوءًا من لاشيء، لاشيءٌ معك...

إنَّ الكلمةَ **نادا** الإسپانيَّة، ومعناها "اللَّاشيء"، هي الكلمة التي استعملها القدِّيس يوحنَّا الصليبيُّ، أعظمُ المتصوِّفين، كي يصِفَ الله، **الكينونةَ** الخالصةَ المُطلَقَ، ما وراءَ كلِّ كائنٍ محدود، ما وراءَ الأشياء المادِّيَّة. وقد سمَّى الله **تُودو و نادا** (Todo y Nada) "كلَّ شيء ولاشيئًا". فعندَ الصُّوفيِّين الله ملآنٌ تمامًا من الكَينونة حتَّى إنَّه ليس شيئًا؛ أمَّا في نظر العَدَميِّ العصريّ، فإنَّ الكَينونةَ فارغةٌ تمامًا من الله حتَّى إنَّها لاشيءٌ. وبالنِّسبة إلى المُتصوِّف المؤمِن بالله، ليستِ اللَّاشيئيَّة سوى اسمٍ **للكَينونة**؛

(٣) واضحٌ أنَّ هَمينغواي يحوِّرُ "الصلاة الربَّانيَّة" بحيث تتناسب مع الفكرة التي يؤكِّدها (المترجم).

أمَّا بالنِّسبة إلى العَدَميّ، فالكَينونة ليسَتْ سوى اسمٍ لِلَّاشيء[٤].

فما بيتُ القصيد إلَّا هذا: من دون الله- لا، ليس من دون الله تمامًا؛ لأنَّ كاتب الجامعة يتكلَّم تكرارًا بشأن الله- بل من دون **الإيمان** بالله- لا، ولا حتَّى هذا؛ لأنَّ لِلكاتِب إيمانًا بالله، إيمانًا كاملًا في الواقع: فهو لا يشكُّ أبدًا في وجود الله- بل بالأحرى من دون نوع الإيمان بالله ذاك الذي هو أكبر من الحياة، ومن ثَمَّ يستحقُّ أن يموتَ المرءُ لأجله كما يستحقُّ أن يعيشَ لأجله، من دون إيمانٍ يعني الثِّقةَ والرجاء والمحبَّة، من دون علاقةِ عِشقٍ يُعاشُ لله، الحياةُ هي باطِل الأباطيل، خَيالُ خَيالٍ، حُلمٌ داخِلَ حُلم.

وَلأُعبِّرْ عن بيت القصيد بكلمةٍ مُفرَدة. إنَّها كلمةٌ أضمَنُ أن تصدمَك وتُثيرُ استياءَك، وإنْ كانت مأخوذةً عن القدِّيس بولس. وقد استعمَلَ بولس هذه الكلمة في وصف حياته من دون السيِّد المسيح، حياته ملآنةً بكلِّ ما في الدُّنيا من نجاح وثقافة وغنًى وقوَّة ومَقام وامتياز. فبولُس كان فَرِّيسيًّا بارزًا، ومُواطِنًا رومانيًّا، وقد علَّمه ودرَّبه غمالائيلُ، "نورُ إسرائيل". ولكنْ قبل أن أدخلَه السيِّد المسيح في علاقةِ ما بعدَ الجامعة بالله، ماذا كانت حياتُه؟ "نُفاية" (قُمامةً أو زِبلًا- فيلبِّي ٣: ٨). فمُقارنةً بمعرفة الله الفائقة من كلِّ وجه في السيِّد المسيح، جميعُ الأُمور العظيمة في هذا العالَم- حسبَما يقول بولس- هي **سكوبالا** *(Skubala)*، زِبلٌ، رَوث. رمادُ أيُّوب، مَزبَلتُه!

تلكَ هي رسالةُ الجامعة، نسبةً إلى المسيحيِّ المؤمن.

---

(٤) إنَّ الله هو خارج نطاق الإدراك البشريِّ المحدود. وبذلك يكونُ "لاشيئًا" بالنسبة إلى الإنسان المادِّيّ، مع أنَّه "كلُّ شيء" بالحقيقة وفي نظر المؤمن (المترجم).

إنَّ أنقى ذَهَبٍ في العالَم ليس سوى رَوثٍ من دونِ السيِّد المسيح. ولكنْ مع المسيح، يُحوَّلُ أخسُّ مَعدنٍ إلى أنقى ذهب. فآمال الخِيمياء (Alchemy) يمكن أن تتحقَّق، إنَّما على أساسٍ روحيّ، لا على أساسٍ كيميائيّ. إذ يوجَدُ "حَجَرُ فلاسِفة" يُحوِّل كلَّ شيءٍ إلى ذَهَب، واسمُه السيِّد المسيح. فمَعه، الفَقرُ غِنًى، والضَّعفُ قُوَّةٌ، والألَمُ فَرَحٌ، ومُعاناةُ الاحتِقارِ مَجْدٌ. ومن دُونِه، الغنى فقرٌ، والقُوَّةُ عجزٌ، والسعادةُ بؤس، والمَجدُ مُحتقَرٌ.

هذه هي أكبرُ مُفارَقة في الحياة. وسُلَيمان لا يعرفُ نِصفَها الإيجابيَّ، غيرَ أنَّه يعرفُ نصفَها السلبيَّ أفضلَ ممَّا يعرفُه أيُّ شخصٍ آخر.

ومن المُذهِل أنَّ هذه أيضًا رسالةُ المُلحِدِ الأشهَرِ والأعنَدِ في أدَب القرن العشرين، لا سيَّما في عمله الأدبيِّ الأوَّل والأكبر. أمَّا الأديبُ فهو سارتر؛ وأمَّا العمل فهو "**الغَثَيان**"، والعُنوان يُفصِح عن الأمر كلِّه. ومَهما كُنَّا شاكرين للمُلحِدين الكبار، فلن نكونَ مُبالِغين؛ إنَّهم يُرونَنا هيئةَ الله بغِيابه على نحوٍ أوضَحَ وأفصَحَ ممَّا يُرينا المؤمنون إيَّاها بحضوره: مِثلَ صُورَة ظلِّيَّة. إنَّهم يُرونَنا أيَّ فَرقٍ يُحدِثُه الله كما يُرينا الموتُ أيَّ فَرقٍ تُحدِثُه الحياة. وأنت لا تقُدِّرُ أبدًا قيمةَ شيءٍ ما تمامَ التقدير حتَّى يُنتزَعَ منك.

يقول سارتر، في "الوجوديَّة والإنسانيَّة" (*Existentialism and Humanism*):

> الله غير موجود... وعلينا أن نُواجِهَ جميعَ عواقِبِ هذا الأمر. إنَّ الوجوديَّ مُعارِضٌ بشِدَّة لِنوَع من النِّظام الأخلاقيِّ العَلمانيِّ الذي يودُّ أن يُبطِلَ الله بأقلِّ كلفة مُمكِنة... على العكس، يعتقد

الوجوديُّ أنَّ عَدَم وجودِ الله أمرٌ مُزعجٌ جدًّا، لأنَّ كلَّ إمكانيَّة للعُثور على قِيَم في سماءٍ من الأفكار تتلاشى مَعَه؛ فلا يُمكِن أن يُوجَد **خَيرٌ** بديهيٌّ لأنَّه لا يوجَدُ وَعيٌ لامحدودٌ وكامِل كي يُفكِّر فيه. وليس مكتوبًا في أيِّ مكانٍ أنَّ **الخيرَ** مَوجود، وأنَّه ينبغي لنا أن نكونَ مخلِصين صادقين. وأنَّ علينا ألَّا نكذب؛ لأنَّ الحقيقةَ هي أنَّنا على كَوكبٍ ليس فيه إلَّا البَشَر. لقد قال دوستويفسكي: "إذا كان الله غير موجود، فإنَّ كُلَّ شيء سيَكون مُباحًا". تلك هي بالذَّات نُقطةُ الانطلاق في الوجوديَّة... ونتيجةً لذلك، فالإنسانُ بائس، لأنَّه لا داخِلَه ولا خارِجَه يَجِدُ أيَّ شيءٍ يتمسَّك به... وإذا كان الله مَوجودًا حقًّا، فلا نَجِدُ أيَّةَ قِيَم أو وصايا نلجأُ إليها مِن شأنها أن تُحلِّلَ سلوكَنا.

المعاني القصيرةُ الأمَد... هل تكفي؟

لا شكَّ في أنْ ليسَتِ الحياةُ كلُّها باطلةً على المدى القصير. وسُلَيمان يعرفُ ذلك جيِّدًا كما يعرفه الجميع. فليس باطلًا أن تأكل، لأنَّ ذلك يُبقيك حيًّا. وليس باطلًا أن يتَعاشَرُ البَشرُ جنسيًّا، فذلك يُبقي الجنس البشريَّ حيًّا ويؤتي لذَّة. وليس باطلًا أن تحكَّ لسعةَ بعوضة، فذلك يُريحك إلى حين، إنَّما إلى حينٍ فقط. نعم، فهُناك أثَرُ الحكِّ والفَرك. إنَّ الجَدوى القصيرةَ الأمَدَ ليسَتْ تَعويضًا عن عدم الجدوى الطويل الأمَد.

غير أنَّ كثيرين يعتقدون خِلافَ هذا. "عِشْ لِيَومك!" مَن يحتاج إلى خَيرٍ أسمى سِوى الفلاسفة؟

ولكنَّنا نحن جميعًا فلاسفة، إلَّا إذا كُنَّا حيوانات. فالبَشَر لا يعيشون في الحاضر فقط، بل في المُستقبل أيضًا. إنَّنا نعيش على الرَّجاء. فقلوبُنا تسبقُ أقدامَنا بخفقة. ونصفُنا في المُستقبَل فِعلًا؛ إذ نُقابِلُ ذواتِنا مُقبِلةً علينا من فَوقُ قُدَّامَنا. وحياتُنا أشبَهُ بقَوسٍ مُمتدَّة إلينا من المُستقبل إلى وسط الحاضر. وآمالُنا ومُثُلُنا تُحرِّكُ حياتَنا الحاضرة. إنَّ حياةَ الحيوانات تُشبِهُ قَوسًا آتيةً إليها من ماضيها؛ فماضيها يُحدِّدُ حياتَها. وهُنَّ يُدفَعنَ؛ أمَّا نَحنُ فنُجذَب. هُنَّ يُرغَمن إرغامًا؛ أمَّا نحن فأحرار. هُنَّ مُجرَّد غريزةٍ ووراثةٍ وبيئة؛ أمَّا نحن فأكثرُ من ذلك: نحن أشخاص.

إنَّ الحَتميِّين، مِن ماركس (Marx) وفرُويد (Freud) إلى سكِنَر (Skinner)، وهم يُنكِرون هذه الحقيقة، يُهينونَنا إلى أبعد الحدود، أكثرَ من أيِّ واعظ يصيحُ علينا بالخطيَّة والهلاك الأبديّ. فإنَّه لَإطراءٌ عظيمٌ أن ندعوَ إنسانًا ما خاطئًا؛ إذ إنَّ الإنسانَ الحُرَّ وحدَه يستطيعُ أن يكونَ خاطئًا. أمَّا الحَتميُّون فيتقَصَّدون أن يسلبونا كنزَ الخطيَّة العظيم. إنَّهم يحرمونَنا حرِّيَّتنا، ومن ثَمَّ رجاءنا، قُدرتَنا على أن نعيشَ لا من ماضينا المُحدَّد فحسْب، بل أيضًا من مُستقبلنا غير المُحدَّد.

مَعانٍ قصيرةُ الأمَد، لامعنًى بعيدُ الأمَد؛ غاياتٌ حاضِرة، عدمُ جدوى مُستقبليٌّ؛ رجاءٌ بشأن الأشياء، لارجاءٌ بشأن الشيء الأهمّ: هكذا هي صورة الجامعة لحياتنا. إنَّنا مِثلُ تلك العُلَيبات السُّود التي تَشتَريها من دُكَّان اللُّعَب. فالغَرَض منها لا يتخطَّى جعلَها تُضيء وتُرَمِّش وتُصدِرُ أصواتًا مُضحِكةً خفيفة وترتجِف، إلى أن تفرغ بطاريَّاتُها (أي الموت). ومِنها نَوعٌ ذو غِطاء؛ عندما تُديرُ زِرَّ التشغيل، تهتزُّ العُلَيبة وتئنُّ وتُرَمِّش وتَفتح غِطاءها؛ ثُمَّ تخرج يدٌ خضراءُ صغيرة، فتغلقُ العُلَيبة وتختفي في الدَّاخل

مُجدَّدًا (النتيجة ذاتها). إنَّ كُلَّ جُزء من العُلَيبة ذو معنى؛ فكُلُّ وصلةٍ وتبشيمة وسنٍّ وسِلك موضوعةٌ في مكانها لغَرَض مُعيَّن. ولكنَّ الطُّرفة بكاملها عديمةُ المعنى تمامًا. تلك هي صورةٌ دقيقةٌ للحياة البشريَّة حسبَما يرى أحكَمُ رجُل في العالَم.

فلا عجبَ ألاَّ نجرؤَ على قراءة سِفر هذا الحكيم بصدقٍ وعقل مُنفتح. ولا عجب إن هزَزنا رؤوسنا، وقلَبنا شِفاهَنا، وانكفأنا مُبتعِدين. إلَّا أنَّ قَلقًا أسوَدَ يسيرًا قد انغرسَ في عقلنا اللَّاواعي، شِبهَ جُرثومة. ألعلَّ ذلك **صحيحٌ**؟ لا **يُعقَلُ** أن يكون! ولكنْ هل يكون؟

إليكَ صُورةً أُخرى لإيضاحه (صورةٌ واحدةٌ تُساوي ألفَ كلمة؛ وقلَّما تكلَّم السيِّد المسيح دونَ استِخدام صورةٍ إيضاحيَّة). إنَّها فِلمُ رُسوم مُتحرِّكة قديمٌ بَطَلاه مَت وجَف (Mutt and Jeff)، فيه يظهرُ جَف واقفًا بجانب كومةِ حِجارة يعلوها مِصباحٌ مُضاء، وسطَ أحَد الطُّرق، في الليل. ثُمَّ يُقبِلُ مَت، فيُقدِّر الوضع، ويسأل: "جَف، أأَنتَ وضعتَ ذلك المِصباح هناك؟" "نعم، يا مَت". "لماذا؟" "كي أُنبِّهَ السيَّارات إلى وُجوب الابتعاد حتَّى لا تصطدِمَ بكومة الحجارة". "أوَأنتَ وضعتَ الحجارةَ هناك أيضًا؟" "نعم، يا مَت". "لماذا؟" "لإبقاء المِصباح مَرفوعًا بالتَّأكيد!"

قِفْ بقُرب جِسرٍ في إحدى المدن وقتًا قصيرًا، حتَّى ينطبعَ الجِسرُ في نفسك، ويبدوَ كما لو كان يتعذَّر تجنُّبُه، وما زال هناك دائمًا. ثُمَّ اطرَحْ فجأةً السؤالَ الفلسفيّ: لماذا الجِسرُ هناك؟ الجواب: كي ينقلَ الناسَ من الضَّواحي إلى داخل المدينة في الصَّباح ثُمَّ رُجوعًا إلى بيوتهم في المساء. حسنًا، لماذا يذهبون إلى المدينة؟ كي يعمَلوا. فيمَ؟ في كلِّ نوعٍ من الأعمال

النافعة. مثلًا؟ بصفةِ شُرطيّ، مُمرِّض، خبيرٍ ماليّ، عاملِ بناء، مُهَندِس، سياسيّ، سكَّافٍ (صانع الأحذية)، مُعلِّمِ رياضيَّات... وماذا يفعل هؤلاء؟ أفرادُ الشُّرطة يُنظِّمون السَّير على الجِسر. والمُمرِّضون يُعالِجون مَن يُصابون في حوادث السَّير على الجِسر. والخبراء الماليُّون يُعنَون بتمويل إنشاء الجُسور. وعُمَّال البناء يُنشئون الجُسور. والمُهندِسون يُصمِّمون الجسور. والسِّياسيُّون يُرخِّصون لإنشاء الجسور. والسَّكَّافون يصنعون الأحذية لعبور الجسور. ومعلِّمو الرياضيَّات يُعلِّمون مُهَندِسي المُستقبل... هل فهمتَ؟ الحِجارة مَوجودةٌ هناك لأجل المصباح؛ والمصباح مَوجود هناك لأجل الحجارة. إنَّها العُلَيبةُ السَّوداء، إنَّما بمُسَنَّناتٍ أكثرَ بكثير!

غير أنَّنا لا نَلحَظُ هذا الغِيابَ الهائل. فسمَّاعاتُنا تُبقينا مشغولين جدًّا بالجَلَبة الاصطناعيَّة بحيثُ لا نسمعُ الصَّمَت المُصِمَّ في خِضَمِّ ذلك كلِّه. إنَّ رؤوسَنا ملآنة؛ أمَّا قلوبُنا ففارغة. فإذا تجرَّأنا أنْ نُصغيَ إلى "أصوات الصَّمت"، مِثلَ الوجوديِّين، فلا بُدَّ أن نخافَ جدًّا مِثلَهم. وحيثُ سَمِعَ الأقدمون الموسيقى الكونيَّة، "موسيقى الكواكب"، نسمَعُ نحن ما وصفَه پاسكال بأنَّه "الصَّمتُ الأبديُّ لتلك الفضاءات اللَّامُتناهية التي تملأُني بالرَّهبة".

ولكنْ ينبغي لنا أن نسمعَ ذلك الصَّمت. ينبغي لنا ذلك أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر في العالم. وقد كتب كيركغارد: "لو تيسَّرَ لي أن أصِفَ دواءً واحدًا فقط لجميعِ أمراض العالَم الحديث، لَوصفتُ السُّكوت. فحتَّى لو أُذيعَت كلمة الله في العالَم الحديث ما كان أحَدٌ يسمعها؛ إنَّ هناك كثيرًا من الضَّجَّة. إذًا، فَلنُوجِدِ الصَّمت".

إنَّ الجامعة يُوجِدُ الصَّمت.

فالجامعة هو الخُطوةُ الأُولى والضَّروريَّة نحو الخلاص بالنِّسبة إلى العالَم الحديث؛ إذ إنَّه لن يذهبَ إلى **الطبيب العظيم** (إلَّا وفقًا لشُروطه التنازُليَّة الخاصَّة) قبل أن يعترفَ بأنَّه مريضٌ على نحوٍ مُستَعصٍ. "لا يحتاجُ الأصحَّاء إلى طبيب، بلِ المرضى. ما جئتُ لأدعوَ أبرارًا، بل خُطاةً، إلى التَّوبة".

والجامعة هو السِّفرُ الذي نخشاه، نحنُ المُحدَثين، أكثرَ من أيِّ سِفرٍ سِواه. لأنَّه مِرآةٌ تُرينا فجوةً كبيرة، بُقعةً سوداء، حيثُ وجبَ أن تكونَ قلوبُنا. ففي عالَم النَّفس الصغير **فجوةٌ سوداء** كتلك الموجودة في عالَم الكَون الكبير. وأيُّ شيءٍ يمكنُ أن يكونَ أكثرَ تَرويعًا من هذا؟... أن نَجِدَ هُناك، في قلوبنا، حيثُ ينبغي أن يكونَ نَبعُ الحياة، نبعَ الموت بدلًا منه؟

ذلك أنَّ اللَّامَعنى ("باطل") هو نَبعُ الموت. فثَمَّة مَوتٌ أسوأُ من الموت: موتُ النَّفس. و"النُّفوس الميِّتة" (ذلك العنوانُ الرَّهيب لمسرحيَّةِ غوغول [Gogol]) يمكنُ أن تُرى في أيِّ شارعٍ في أيَّة مدينة. **فالباطلُ** هو مَوتٌ حقًّا؛ وإذا خُلِّد، فهو جهنَّم. والمُتصوِّفون والمرضى المُحيَون الذين يزعمون أنَّهم التَقَطوا لمحةً عن جهنَّم لا يقولون إنَّهم رأوا نارًا حرفيَّة أو شياطين منظورين حامِلينَ مَذاريَ (جمع مذراة)، بل بالأحرى نفوسًا هالكةً هائمةً في لامكانٍ وسطَ الظَّلام، بِلا وجهة ولا رجاء ولا غاية. هذه صورةٌ لجهنَّم أشدُّ ترويعًا بكثيرٍ جدًّا من النار والكِبريت. والأكثرُ هَولًا أنَّها صحيحة. إنَّها هُنا! ففي وُسعِنا أن نشمَّ تلك النِّيران الآنَ الآن، وأن نصدَّ رَمادَها الذي ينجرفُ إلى داخل حياتنا.

يرى وُكَر پيرسي أنَّ أصلَ العُنف، ولا سيَّما الاغتصاب والقتل، هو هذا الشُّعور بالخَواء الداخليّ، إدراكُ ذواتِنا كأطيافٍ أو أشباح. فالحاجةُ الماسَّة إلى تأكيد حقيقتنا لأنفُسنا تتفجَّر بطريقتَين بديهيَّتَين: ليس مِن شَبَح يستطيع أن يُوجِدَ أو يُبدِّدَ الحياةَ بالقوَّة؛ وليس من شَبَح يستطيع أن يغتَصِبَ أو يقتل.

إنَّ الأولاد "يُمثِّلون" خَواءَهم بالسُّلوك التخريبيّ. وعصاباتُ اليوم المُتقاتلةُ تصيرُ أُمَمَ الغدِ المُتحارِبة. فماذا يجري عندما تُعطى عصاباتُ المُراهِقين أسلحةً نوويَّة.

أمَّا وسائلُ الإعلام فهي مُرَوِّجةُ مُخدِّراتِنا. إنَّها تستأثِر بنفوسنا، طَوعًا لأمرنا (هي خادمتُنا؛ ولا يمكنُنا أن نلومَها أكثرَ ممَّا يمكنُ للقاتل أن يلومَ بُندقيَّتَه). وهي تَصطنعُ أموالَها من إدماناتنا على الموت: العنف، الاغتصاب، القتل، زنى المحارم، الإجرام، المُخدِّرات، الكحُول. مثلًا، بيَّنتْ دِراسةٌ أنَّ اثنيَن فقط من عشرين فِلمًا حديثًا وَقَفا موقفًا انتِقاديًّا، لا موقفًا إيجابيًّا أو فُكاهيًّا، تُجاهَ المُخدِّرات أو الكُحول.

أهذا التعليلُ الأخلاقيُّ كلُّه خارِجَ المَرمى، تماسيٌّ بالنِّسبة إلى سِفر الجامعة؟ لا، بل هو حُضورٌ للجامعة في حياتنا، "باطلُ الأباطيل" الخاصُّ بنا، "دارُ الغُرور" التي لنا، سُوقُ الأباطيلِ الجميلة، سيركٌ من المُهرِّجين ذوي الملابِس الزاهية ("اِضحَك، يا مُهرِّجُ، اضحك")، دوَّامةُ خَيلٍ غيرُ مُبهِجة. فالجامعةُ رُعبٌ للإنسان الحديث؛ لأنَّه حين ينظرُ في مِرآته يرى الكابوسَ الأقصى: "الإنسان الذي لا وجهَ له".

التَّغطيةُ الكُبرى

إنَّ كلَّ تَعَب، كلَّ ما نفعلُه، كلَّ المساعي البشريَّة هنا "تحت الشَّمس"، كلَّ حضارةٍ ومدنيَّة، كلَّ الفنون والعلوم، تؤولُ عند مُعظَم الناس في آخر المطاف، مُعظمَ الوقت، إلى نسيانٍ، أو لهو، أو غِشاء: سلسلةٍ من الأقنعة المُعَقَّدة فوق هذه الحقيقة الواحدة البسيطة المُرَوِّعة. فالجامعة يُمزِّق الغِشاء ويجعل عيوننا المُمانِعةَ تغوصُ في أعماق هذه الهُوَّة التي تُعمي الأبصار. إنَّه إعلانٌ بالمعنى الحرفيّ: كشفٌ، إزالة غِطاء، إزاحةُ قناع. حقًّا إنَّ الجامعة ينسفُ غِشاءَنا!

ويتصرَّف العالَم بدَهاء إذ يُغطِّي هذه الحقيقة بمليون تسليةٍ وذريعة، لأنَّها أرهَبُ حقيقةٍ في الوجود. وذلك لأنَّك ما إنْ تعترفُ بها حتَّى تقفَ عند مُفترَق طُرُق، ومن ذلك المُفترَق طريقان فقط تؤدِّيان إلى مكانٍ ما. إحداهُما تؤدِّي إلى نَوع الدِّين الذي لا يمكنُ للعالَم أبدًا أن يستَريحَ له ولا يمكن أن يفهمه أبدًا- ذلك النَّوع الكبير كفايةً بحيثُ يسدُّ الفجوةَ الهائلة في القلب البشريّ، النَّوع الذي هو أكبرُ من الحياة ذاتها. أمَّا الطريقُ الأُخرى فتؤدِّي إلى ثقبِ رصاصةٍ تخترق الرأس، صُورةِ المرآة للفَجوة التي تخترق القلب.

خمسُ طُرُقٍ لإخفاء فيل

ليس هذا رأيَ سُلَيمان فقط في حياتنا، بل هو أيضًا رأيُ العالَم الحديث. فإنَّ العالَمَ الحديثَ لا يملكُ جوابًا عن أكبر الأسئلة وأوضحِها جميعًا: لماذا يُوجَد كلُّ ما هو موجود؟ لماذا نحنُ هُنا؟

السؤالُ كبيرٌ كُبرَ فيل؟ وكيف يمكنُكَ أن تُخفيَ فيلًا؟ إنَّ العالَم الحديثَ قد ابتكرَ خمسَ طُرُق لذلك.

١. **اللَّهو** هو الطريقةُ الأُولى والأكثر فعَّاليَّةً لإخفاء الفيل. إذ يُمكِنُ إخفاءُ فيلٍ بالفئران، إذا توافرَ منها عددٌ كافٍ. وهكذا يغصُّ عالَمُنا بآلافِ الأشياء الصغيرة التي تُبقينا مُتَلهِّين عن الشيء الكبير الواحد. فنحن نظلُّ مُنشغِلين جدًّا بحيثُ لا يُتاحُ لنا وقتٌ للتَّفكير.

٢. **الدِّعاية** هي الطريقةُ التالية. فلمَّا كان العالَمُ الحديثُ لا يملكُ جَوابًا عن أعظم الأسئلة كلِّها، يُسمِّيه بأسماءٍ ثقيلة شتَّى، مثلَ "مُجرَّد" و"ماورائيّ" بل أيضًا "دينيّ" وفوقَ كلِّ شيء "مسألة رأيٍ شخصيّ" (ولا تَفرضْ رأيكَ عليَّ، رجاءً! من شأن ذلك أن يكونَ دعاية! لا. إنَّ **ذلك** دعاية بالفعل!)... كما لو أنَّ طبيعةَ العالَم الواقعيِّ ومُحاولاتِنا الاهتِداءَ إلى حقيقة الحياة التي نتشاركُ فيها كلُّنا في هذا العالَم كانت مُجرَّد حُلمٍ أو توهُّمٍ خاصٍّ يخطرُ في أذهاننا.

٣. اللَّامُبالاة طريقةٌ ثالثة لإخفاءِ فيل. يقولُ أحَدُهم: "هناك فيل!" فنَتَثاءبُ، ليسَ غير. هنالك إله، أو هنالك **لاشيء**؛ وفي كِلتا الحالَتين، هناك **مَوت**. هذه ثلاثة أفيال، ونحن نُعنى أكثرَ بشأن الفئران فنحنُ مَشغوفون بأُمور المال والجنس والطموح، ولامُبالون تُجاه ما يعنيه الوجودُ كلُّه. إنَّنا اختِصاصيُّون... أُنوفُنا نحوَ مِفتاح التشغيل أو الجُزء المُخصَّص من عُلَيبَتِنا السَّوداء، لامُبالينَ بالكُلِّ واللِّماذا.

٤. **نِشدانُ السَّعادة**، الأمرُ الذي يدعوه بيانُ الاستقلالِ الأميركيُّ واحِدًا من حقوق الشعب العظيمة غير القابِلة للتَّحويل، والذي يدعوه مالكُلم مَغريدج (Malcolm Maggeridge) واحِدةً من أسخف الفِكَر التي روَّجَت لها الدِّعايةُ يومًا، يُخفي الفيل لأنَّه لا يبدو أنَّ الفيلَ يؤتينا السعادة. إنَّ الفيل "سلبيٌّ" وينبغي لنا أن نُمارِسَ "قوَّة التفكيرِ الايجابيِّ"، "أنا بخَير، أنت بخَير"، و"قبولَ الذَّات". ينبغي لنا أن نُناديَ "سلام! سلام!" حيثُ لا سَلام، لأنَّ ذلك يُسعِدُنا. "نعم، ڤيرجينيا، شَيخُ الميلاد مَوجود"؛ لا، ڤيرجينيا، الناسُ لا يموتون، إنَّهم فقط "يرحَلون"؛ جميعُ المُربِّين الدينيِّين مُتَّفِقون على أنَّ "مخافة الرَّبّ" **ليست** بدءَ الحكمة، بل خُرافةٌ خَطِرةٌ يجب أن تُمحَى من عقول الصِّغار لئلَّا يصيروا شيئًا ما سوى مُواطِنين حَسَني التكيُّف في ملكوت هذا العالم.

٥. أخيرًا، الفِكرةُ الفلسفيَّة التقليديَّة السائدة، مَذهبُ الذاتيَّة، تخفِّفُ من حدَّة الدَّبُّوس الذي يمكنُ أن يشقَّ بالون السَّعادة، أي دبُّوسَ الحقيقة، بقَلبِ رأسِه على ذاته: الحقيقةُ هي ما تعتقده أنت، "حقٌّ في نظرك" ولكنْ ليس في نظري. فأفضلُ طريقة لإخفاء فيل هي أن تُخفيَ عينَيك بالأولى، أن تلعبَ لعبةَ اختِلاس النَّظر والهُتاف دون أن تختلسَ النظر، أن تُدرِّبَ عينَيكَ على النَّظر الانطوائيِّ داخِلَ الذات. وهكذا نُحوِّل السؤال "ما الخَير الأسمى؛ ما حقيقةُ الخَير؟" إلى السؤال "ما مجموعةُ قِيمَي **الذاتيَّة**، ترتيبي للأولويَّات في حياتي؟" لقد قلَّصنا "الخيرَ" إلى

"قِيمة"، و"القيمةَ" إلى "قِيمَ"، و"القِيَمَ" إلى "قِيَمِي". ومن ثَمَّ يُقلَّصُ النِّظامُ الأخلاقيُّ إلى "تفسيرِ قِيَم". بعدئذٍ نجرؤ أن نقولَ لعالِم صادقٍ بالحياة مثل سُلَيمان (أو موسى أو القدِّيس بولس): "أيُّ حقٍّ لكَ في أن تفرضَ قِيَمك عليَّ؟"

تُرى، لماذا نتفوَّه بمثل هذا الهُراء؟ لماذا نُحوِّل الأفيالَ إلى فئران، الحقائقَ الكونيَّةَ إلى أولويَّاتٍ شخصيَّة؟ لأنَّنا نخافُ جدًّا من الأفيال. ربَّما لا نقدرُ أن نمتَطِيَها؛ ربَّما تدوسُنا تحتَ أقدامها. وهكذا نُصغِّر حجمها. ونحن نفعلُ مِثلَ ذلك بالجِنس والدِّين والفلسفة (في غابتنا أفيالٌ كثيرة، لم ننجَحْ بَعدُ في حَبسِها كلِّها داخل القَفَص، في "نَزْعِ عُنصر الأُسطورة" من كامِلِ عالَمِنا؛ فإنَّ **العالَم الجديد الجريء** ما زال بعيدًا عنَّا جيلًا أو جيلَين).

القياسُ المنطقيُّ البغيض

ما سأفعلُه الآن هو بغيضٌ إلى حدٍّ بعيد. فسأضع هذا الأمرَ المُروِّع— هذا الشيءَ الرهيبَ جدًّا بحيث نُضطَرُّ إلى تغطيته— في قِياسٍ منطقيٍّ تامٍّ نظيفٍ لطيف. وها هو:

كلُّ "تَعَب" هو "تحت الشَّمس".
وكلُّ ما "تحتَ الشمس" هو "باطِل".
ولذلك، فكُلُّ "تَعَب" هو "باطل".

ككُلِّ قِياسٍ منطقيّ، لهذا القياس ثلاثةُ بنود: (١) "تعب"؛

(٢) "تحت الشمس"؛ (٣) "باطل".

وقد سبق أن رأينا ما معنى "باطل": الخَواءُ العظيم، اللَّامعنى الأقصى.

أمَّا التَّعبير "تعب" فلا يعني فقط "العملَ الشاقَّ"، بل **أيَّ** عمل، كلَّ ما نفعلُه، جميعَ المساعي البشريَّة هنا "تحت الشمس"، جميعَ مُحاولات الحياة البشريَّة بشأن المعنى أو القصد، كلَّ نَمَطِ حياة، كلَّ قيمة، كُلَّ مُرشَّح مُرجَّح للخير الأسمى. وسيَمتحنُ سُلَيمان خمسةَ "مُرشَّحين"، خمسةَ مَساعٍ، خمسة "أتعاب"، أشملَ خمسةِ أنماطِ حياةٍ وأكثرَها انتِشارًا، وسيُبيِّن أنَّ كُلًّا منها "باطل" على حدٍّ سواء: الحِكمة، المتعة، السُّلطة والغِنى، الإيثار أو الغَيريَّة، الدِّيانة التقليديَّة.

أخيرًا، "تحت الشمس" (يا له من تعبير ينطوي على صورةٍ عظيمة تعلَقُ في الأذهان، ذاتِ جَلالٍ شِعريّ!) وهو يعني تمامًا طبيعةَ العالَمِ المُشاهَدة، الأشياءَ كما هيَ عليه، "مُجرَّدَ الوقائع، سيِّدتي". إنَّ آلةَ تصوير سُلَيمان الذِّهنيَّةَ تلتقطُ عدَّةَ صُوَر تُعرَض على لوحته الفوتوغرافيَّة الكلاميَّة، حيثُ تبرز في جميعها خمسُ ملامحَ مُتكرِّرةُ الظُّهور: التماثُل، الموت، الوقت، الشَّرّ، اللُّغز. وكلُّ لمحةٍ من هذه الملامح تُسهِم في الباطل الكلِّيّ. كلٌّ منها سببٌ آخَر لكَون كلِّ "تعب" باطلًا. فالتَّعبُ تحت الشمس هو مُحاوَلةُ إيجادِ طريقٍ مُستقيم في عالَم كُرَويّ، مُحاوَلةُ إيجادِ مُطلَقٍ في عالَم نسبيّ، محاولةُ إيجاد غايةٍ في "عالَم بِلا غاية". فلمَّا كان (١) كلُّ "تعب" هو "تحت الشمس" (أي أنَّ الحياةَ كلَّها يُحيطُ بها إطارُ هذا العالَمِ الواقعيِّ)؛ ولمَّا كان (٢) كلُّ ما في هذا العالم "تحت الشمس" هوَ عقيم، فلذلك (٣) كلُّ تعبٍ هو عقيم؛ الحياة كلُّها عديمةُ المعنى.

خمسةُ "أتعاب"

"التَّعبُ" يعني جميعَ محاوَلاتِنا لنَجدَ معنًى أو نوجِدَه. "التَّعبُ" يعني جميعَ الأوتاد المُربَّعة التي نُقحِمُها في ثَقبِ "الخَواء الوُجوديِّ" المُدوَّر؛ جميعُ الكُراتِ الزُّجاجيَّة التي نطرحُها في هُوَّة اللَّامعنى السحيقة، في مُحاوَلةٍ ضروريَّة لكنْ عَبثيَّة لرَدمِها؛ كُلَّ مُرشَّح نسمِّيه لمنصب "الخير الأسمى" الرئاسيّ. ولكنْ لا شيءَ من ذلك كُلِّه يتَّصف بصلاحِيَةٍ كافية للوَفاء بالغَرَض. فكلُّ شيءٍ مُخفِقٌ حَتْمًا؛ إذ إنَّ كلَّ "تعبٍ" يفتَقرُ إلى "الرِّبح" الذي نبتَغيه منه، لا "رِبح" المال بل "رِبح" المعنى.

يذكرُ سليمان خمسةَ أُمورٍ مُرشَّحة من هذا القبيل. وكما في أيِّ انتِخاب، هنالك أيضًا كثيرٌ من المُرشَّحين الصِّغار يخوضون المُباراة، إلَّا أنَّ سُلَيمان لا يذكُرُهم. فهُم مُبَهرجون، أو شديدو الغرابة، أو "بعيدون كلَّ البُعد"، ولا يروقون سوى "الأجنُح المُتطرِّفة" الصغيرة. وتُحاوِلُ قِلَّةٌ من الناس أن يجدوا معنى حياتهم الأقصى في أُمور من قَبيل ربطِ رُقَعٍ هائلة من اللَّدائن الزاهيةِ الألوان حول جُسورٍ كبيرةٍ أو جُزُرٍ صغيرة، أو دخول كتاب غينِس للأرقام القياسيَّة العالميَّة بالرَّقص على رِجلٍ واحدة وقتًا أطول ممَّا أمضاه أيُّ شخصٍ في التاريخ البشريّ. ولكنْ بالنِّسبة إلى الأكثريَّة المُطلقة، يُوجَد- وقد وُجِدَ دائمًا- خمسةُ مُرشَّحين كبار، في جميع الأزمنة والأمكِنة والحضارات. والخمسة الذين يذكرُهم سليمان هم أيضًا الخمسةُ المذكورون، مثلًا، في "حاجات الإنسان الأربع" التقليديَّة حسب الهندوسيَّة، وفي حِوارات أفلاطون، و**أخلاقيَّات** أرسطو، و**اعترافات** أُوغسطينوس، و"**مؤاساة الفلسفة**" *(Consolation of Philosophy)*

لِبُويثيوس (Boethius)، و"مبحث السعادة" في **خُلاصة** الأكويني، وكتابَي كيركغارد **محطَّات على طريق الحياة وإمَّا/ وإمَّا**، وفي "**المدنيَّةُ واستياءاتُها**" *(Civilization and Its Discontents)* لِفرُويد، و**غَثَيان** سارتر، وفي رِوايات أُدباء مثل دوستويفسكي وهِرمان هَس (Herman Hesse) وتوماس مان (Thomas Mann) وألبير كامو. وأهمُّ كلِّ شيءٍ أنَّ هؤلاء هم المُرشَّحون الخمسة الذين نجدُ أنفُسَنا، مع جيرانِنا في "الحياة" الواقعيَّة، نسعى وراءَهم أغلبَ الأحيان. أمَّا أسماؤهم فهي:

١. الحكمة
٢. المتعة
٣. الثَّروة والنُّفوذ
٤. الواجب أو الغيريَّة أو الخدمة الاجتماعيَّة أو الصِّيت
٥. الوَرَع، الدِّين،

بكلماتٍ أُخرى، حياةُ:

١. فَلسفةٍ تملأ عقلَك.
٢. استِمتاعٍ يملأ جسدَك.
٣. مادِّيَّةٍ تملأ جيبَك.
٤. أخلاقٍ تملأ ضميرَك.
٥. تديُّنٍ يملأ روحَك.

إنَّ العناصر الثلاثة الأُولى تُكوِّن ما يدعوه كيركغارد "المحطَّة

الجماليَّة" في الحياة: إشباعَ الذَّات (وهو يُصنِّف حتَّى الفلسفةَ التأمُّليَّة باعتبارها "جماليَّة"، إشباعَ الفُضول). أمَّا العُنصرُ الرابعُ فهو المحطَّة "الأخلاقيَّة"، وأمَّا الخامس فيَدعوه "التديُّن الأساسيَّ"، أي التَّديُّنُ عمومًا مُتميِّزًا عن المسيحيَّة. فأنا أُوجَدُ لِذاتي في الثلاثة الأُولى، وللآخرين في الرابع، ولله في الخامس.

لقد جرَّب سليمان كُلًّا من هذه الخمسة، فوجَدَها كلَّها ناقصة، سواءٌ من حيثُ المعنى والهدفُ أم من حيثُ السَّعادة، في الإشباع الموضوعيِّ والإشباع الذاتيِّ على السواء. وهو يقولُ لنا السبب. إنَّه لا يُحاجُّ فحسْب؛ بل يُجرِّب أيضًا. فهو يعيشُ خمسَ حَيَوات، ويُطلِعُنا على ثِمارِ اختباره. رُبَّ مُعترِضٍ يقول: "لا تلجأْ إلى التَّعييب قبل التجريب!" غير أنَّ سُلَيمان جرَّبَ ذلك كلَّه. وهو يقول: "لقد رأيتُ كلَّ شيء". فلَه كامِلُ الحقِّ في أن ينقدَ وينقضَ كلَّ ذلك؛ إنَّه قد رأى وجرَّب كلَّ ذلك.

حتَّى الدِّينُ خذلَ سُلَيمان- كما سنرى- لأنَّه كان فقط من صنف "التديُّن الأساسيّ" عند كيركغارد، مجرَّدَ دينٍ طبيعيٍّ تقليديّ، لا إعلانًا خارقًا للطبيعة.

١. الحكمة

تذكَّرْ أنَّ سؤال سُلَيمان هو أعظم الأسئلة كلِّها: ما الشيءُ الأعظم؟ ما الخيرُ الأسمى، الغايةُ القُصوى للحياة على الأرض، بيتُ القصيد فيها، هدفُها، قيمتُها؟ ما معنى الحياة؟ ما النجاح الحقيقيُّ، الإشباعُ الحقيقيُّ، السعادةُ الحقيقيَّة؟ كيف يمكنُني أن أتجنَّبَ الحصولَ على درجة الامتياز في

جميع موادِّي والرُّسوبَ في الحياة؟

لأنَّ سُلَيمان فيلسوفٌ، يأمُل على نحوٍ طبيعيٍّ أنَّها لا بُدَّ أن تكونَ الحكمة؛ لأنَّ الفلسفة هي محبَّة الحكمة. وهو يحكي لنا قصَّةَ هذه المحاولة ونتيجتَها الفاشلة في جامعة ١: ١٢-١٨:

> "أنا الجامعةَ كنتُ ملكًا على إسرائيل في أُورشليم. ووجَّهتُ قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كلِّ عمل تحت السماوات. هو عناءٌ رديء جعلها الله لبني البشر لِيَعنَوا فيه. رأيتُ كلَّ الأعمال التي عُمِلَت تحت الشمس، فإذا الكلُّ باطلٌ وقبضُ الرِّيح...
>
> أنا ناجيتُ قلبي قائلًا: "ها أنا قد عظُمتُ وازددتُ حكمةً أكثر من كلِّ مَن كان قبلي على أُورشليم؛ وقد رأى قلبي كثيرًا من الحكمة والمعرفة". ووجَّهتُ قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل، فعرفتُ أنَّ هذا أيضًا قبضُ الريح "لأنَّ في كثرةِ الحكمة كثرة الغمِّ، والذي يزيد علمًا يزيد حُزنًا"" (جامعة ١: ١٢-١٤، ١٦-١٨).

نرى الغيمةَ القاتمة مُقبلةً في الآية الثالثة عشرة، حيثُ يذكر سيلمان ما يصفه بأنَّه "عناءٌ رديء" بالإشارة إلى التَّفتيش عن الحكمة. والقولُ عن شيء إنَّه "ألَم لكنْ أحكَم" مُزاوجَةٌ شائعة. حتَّى سُقراط علِمَ ذلك لمَّا قال: "أليس السَّعيُ وراءَ الحِكمة مُمارَسةً للموت؟" "إنَّ التَّفلسُف تَمرُّنٌ [ميليتاي (meletē)] على الموت".

ثُمَّ تأتي غيمةٌ قاتمةٌ أُخرى حين نسمعُ الكلمات: "رأيتُ كلَّ

الأعمال التي عُمِلَتْ تحت الشمس". فالله وحدَه يستطيعُ أن يحتملَ ذلك المشهد؛ إنَّ الأبديَّة وحدَها تستطيعُ أن ترى كلَّ شيءٍ دون أن يعتريَها السَّأم وأسوأُ من الحُزنِ بعدُ هو السَّأم . فالحُزن ليس بالضَّرورة "باطلًا"؛ أمَّا السأمُ فباطِل.

لم يكُنْ سعيُ سُلَيمانَ العظيمُ وراءَ الحِكمة ساذَجًا أو مُتحيِّزًا، لأنَّه درسَ "الحماقةَ والجهل" أيضًا. والأمرُ المُروِّع بشأن نتيجة اختباراته في ما يتعلَّق بالحكمة وبالجهل كان أنَّ كِلَيهما، على ما يبدو، يؤدِّيان إلى النتيجة عينها؛ فقد بدا أنَّ كِلَيهما "قبضُ ريح". إنَّ الفسلفةَ بَدَت سخيفةً على غِرار الجهل.

أمَّا الحكمةُ الوحيدةُ التي تعلَّمَها سُلَيمان من هذا الاختبار فكانت "أنَّ في كثرةِ الحكمة كثرة الغمّ، والذي يزيدُ عِلمًا يزيدُ حُزنًا". وهو لم يكُن أوَّلَ من وجدَ هذا الماءَ المُرَّ في بئر الحكمة، ولن يكونَ الأخير. فكِّرْ في جميع الأشخاص الذين تعرفُهم. أليس صحيحًا أنَّ أُولئك الذين يضحكون الضَّحِكَ الهادرَ والأغلبَ هُم عادةً أكثرُهم سطحيَّةً وسخافةً؟ وأنَّ الأحكمَ هُم عادةً أكثرُهم وَقارًا. ولعلَّ الحُكَماء يتَّصفون بالوقار لأنَّهم يتذكَّرون الوفاة.

٢. المِتعة

حسنًا، إذا كان رفيعو الثقافة لا يملكون سرَّ الحياة، فرُبَّما ضئيلو الثقافة يملكونه. إذا كان العقلُ لا يستطيعُ أن يُسعِدَني، فرُبَّما الجَسَدُ يستطيعُ ذلك. وإذا أخفقَ نَمَطُ حياة، فلنُجرِّبْ نمطًا آخر، مُعاكِسًا له.

إنَّ المتعة هي حلُّ مُشكِلةِ السعادة الأكثرُ بَساطةً وسُهولةً ووضوحًا والتي تعدُ بالكثير؛ إذ إنَّ "السعادة"، في ما يبدو، تكادُ **تعني** "اللَّذَّة". واللَّذَّاتُ قريبةٌ من المُتناوَل، يسهلُ التمتُّع بها؛ على خلاف الحكمة التي هي هَدَفٌ بعيدٌ ورفيع، والسَّيرُ على الدَّرب المُفضي إليها شاقّ. إنَّ الحِكمة هي قِمَّةُ جبل؛ أمَّا المتعة فسَهل. الحِكمةُ عصا يتوكَّأ عليها الماشي؛ أمَّا اللَّذَّة فطائرة.

ولكنَّ المتعة تفتقرُ إلى أمرٍ واحدٍ بعينه، حتَّى بالنِّسبة إلى سُلَيمان، أو حتَّى بالنِّسبة إلى الرَّجُل الذي امتلكَها كلَّها، **ولاسيَّما بالنِّسبة إلى الرَّجُل الذي امتلكها كلَّها**: أنَّها تفتقر إلى المعنى.

بالنِّسبة إلى الذين **لا** "يمتلكون كلَّ شيء" بينَنا، تُشكِّلُ المتعةُ إغراءً واعِدًا. "العشبُ دائمًا أكثرُ اخضِرارًا لدى الجار". وذلك واحِدٌ من أسوإِ الأُمور بشأن الفقر: أنَّه خدَّاع. فعندما يكون لَدَيك قليل، يمكنُكَ أن تُصدِّق بَعدُ الكِذبةَ القائلة إنَّ من شأن المزيد أن يُسعِدَك. ولكنَّ سُلَيمان "الغنيَّ الفقير الصغير" امتَلكَ كلَّ شيء، غير أنَّ الفُقَّاعةَ انفقعَت؛ الوهمُ تبدَّد. إنَّ الأغنياءَ يعلَمون عن خبرةٍ أنَّ الغِنى لا يُسعِدُهم؛ أمَّا الفُقراء فما يزالُ مُمكنًا أن يُصدِّقوا هذه الكِذبة. تلك هي حَسَنة الغنى الرئيسيَّة: ليس أنَّه يجعَلُكَ سعيدًا، بل أنَّه يجعَلُكَ **غيرَ** سعيد... لكنْ حكيمًا.

إنَّ اختبارَ سليمان للمتعة لم ينقَصْه أيُّ شيء. فقد كان لَدَيه خمرٌ ونِساءٌ وأغانٍ؛ حدائقُ وبِرَكٌ وعبيدٌ ومواشٍ؛ جنَّةُ تسلياتٍ على الأرض. وكما هي الحال بالنِّسبة إلى أيِّ مُتَنزَّهٍ مَلاه، سُرعان ما تضاءلَتِ الفِتنة:

"قلتُ أنا في قلبي: "هلمَّ أمتحنك بالفرح، فترى خيرًا". وإذا هذا أيضًا باطل. للضَّحك قلتُ: "مجنون"، وللفرح: "ماذا يفعل؟" افتكرتُ في أن أُعلِّل جسدي بالخمر، وقلبي يلهجُ بالحكمة، وأن آخُذَ بالحماقة، حتَّى أرى ما هو الخير لبني البشر حتَّى يفعلوه تحت السماوات مدَّةَ أيَّامِ حياتهم. فعظَّمتُ عملي: بنيت لنفسي بيوتًا، غرستُ لنفسي كُرومًا. عملتُ لنفسي جنَّاتٍ وفراديس، وغرستُ فيها أشجارًا من كلِّ نوع ثمر. عملتُ لنفسي بِرَك مياه لتُسقى بها المغارس المُنبِتة الشَّجر. قَنَيتُ عبيدًا وجواريَ، وكان لي وُلدانُ البيت. وكانت لي أيضًا قِنيةُ بقرٍ وغنم أكثر من جميع الذين كانوا في أُورشليم قبلي. جمعتُ لنفسي أيضًا فضة وذهبًا وخصوصيَّاتِ الملوك والبلدان. اتَّخذتُ لنفسي مُغنِّين ومُغنِّياتٍ وتنعُّمات بين البشر، سيِّدة وسيِّدات.

فعَظُمتُ وازددتُ أكثرَ من جميع الذين كانوا قبلي في أُورشليم؛ وبقِيَتْ أيضًا حكمتي معي. ومهما اشتَهَتْه عيناي لم أُمسِكه عنهما. لم أمنع قلبي من كلِّ فرح، لأنَّ قلبي فَرِح بكلِّ تعبي، وهذا كان نصيبي من كلِّ تعبي. ثمَّ التفتُّ أنا إلى كلِّ أعمالي التي عملَتْها يداي، وإلى التَّعب الذي تعبتُه في عمله، فإذا الكلُّ باطلٌ وقَبض الريح، ولا منفعةَ تحت الشمس" (جامعة ٢: ١-١١).

كلُّ تابعٍ جادٍّ لمذهب المتعة يعرفُ نتيجةَ الاختبار: أنَّ اللَّذَّة لا بدَّ أن تصيرَ مُمِلَّة، عاجلًا أو آجلًا. ففي الفلسفة اليونانيَّة، ما لبث نِشدانُ المتعة

أن صارَ لامُبالاةً، **أپاثيا** *(apatheia)*، تجنُّبِ الألَم والعَناء. أمَّا في الأيَّام العصريَّة، فإنَّ نِشدانَ المِتعة كثيرًا ما يصيرُ إدمانًا: جرعاتٍ أقوى فأقوى يجبُ أن توجَدَ لإبعاد المألوفيَّة والسَّأم. وأحيانًا يُصيرُ ذلك، على نحوٍ غريبٍ مُستغرَب، العكسَ تمامًا: نِشدانًا للألَم، ماسُوشيَّة-سادِيَّة... أيَّ شيءٍ لتَفريج السَّأم.

إنَّ ناشِدي المتعة مُغفَّلون يستغلُّهم الباعة. فهم يرتادون السُّوق طلبًا لأيِّ شيء، أيِّ شيءٍ قد يُفرِّجُ عنهم السَّأم. لذلك يُشكِّلُ مذهبُ المتعةِ والمادِّيَّةُ رفيقَين لَصيقَين: فمن كان مُدمنًا لا يستطيع مقاوَمة إغراءات الشراء.

٣. السُّلطة

السُّلطةُ شهوةٌ أعمقُ من المتعة، وإنْ كان أغلبُنا لا يُدرِكون ذلك. هذا هو التَّحسين الذي أدخلَه أدلَر (Adler) على "مبدإ اللَّذَّة" الفرُويديّ. ويُفسِّر كيركغارد سبب ذلك: "لو كان عندي خادمٌ موظَّفٌ لَدَيَّ، إذا طلبتُ منه إحضارَ كوب ماءٍ بارد أتاني بدلًا منه بأغلى خمور العالَم ممزوجةً في كأس، لطردتُه؛ فإنَّ المتعةَ الحقيقيَّةَ تكمنُ لا في الحصول على خمرتي بل في حصول مشيئتي".

إذا كانت لنا سُلطةٌ، يمكنُنا أن نكبسَ أزرارَ اللَّذَّة ساعةَ نشاء. فالسُّلطة أوسعُ نطاقًا من المتعة، لأنَّها تشمل القُدرة على الاستِمتاع.

إنَّنا نتوجَّس فَزَعًا بسبب فقدان السُّلطة والسَّيطرة أكثرَ منَّا بسبب فقدان المتعة؛ إزاءَ جَورب نَيلون ممزوق أو سيَّارة يأبى مُحرِّكُها أن يدورَ أكثرَ منَّا إزاءَ إزعاجٍ كبير نُسبِّبه عمدًا في ظلِّ سَيطَرتنا. ورُبَّ ألَمٍ بسيط يُقلِقُنا

أكثرَ من ألَمٍ كبير، إذا لم نختَرْه بملءِ إرادتنا. فنحن نعدو بمحضِ اختيارنا- بل بسرورٍ كثير- تحت المَطَر إلى المَتجَر حتَّى نصلَ إليه قبل أن يُقفِلَ أبوابَه، لكي نشتريَ فُنجانَ قهوةٍ للشَّخص الذي نحبُّه. إنَّ عَضَلاتِنا المُتعَبة وجسمَنا العَرْقان تُقدَّمُ كاستِشهادٍ مُقترِنٍ بالحُبّ. ولكنْ ليأمُرْنا مُديرٌ قليلُ الإحساس بأنْ نفعلَ الفِعلَ عينَه، فإذا بنا نلعَنُه عند كُلِّ خطوةٍ نخطوها على الطريق.

لقد تمادى أُوغسطينوس- حسبَما يقول في **اعترافاته**- حتَّى وجدَ الدَّافعَ الأكثرَ عُمقًا وقَتامًا لارتكابِ الخطيَّة في الرغبة في أن يصيرَ مِثلَ الله من حيثُ السُّلطةُ أو القُدرة، بأن يكونَ فوقَ القانون الخُلُقيِّ لا تحتَه. فلماذا سرقَ تلكَ الإجَّاصاتِ المُرَّةَ القاسية حينما كان في السادسةَ عشرةَ؟ لماذا أكلَ آدمُ وحوَّاءُ من الثمرة المُحرَّمة؟ لكي يصيرا "مثل الله". ولكنْ، كما يقولُ الأكوينيّ، إذا كنَّا مِثلَ الله في القُدرة، إنَّما ليس في الصَّلاح، فلا نكونُ عندئذٍ أيضًا مثل الله في القُدرة؛ لأنَّ قُدرةَ الله وصلاحَه متساويان.

ما مِن عبرانيٍّ- عدا السيِّد المسيح- مارسَ يومًا سُلطةً أعظمَ من سلطة سُلَيمان. فقد كان مَلِكَ الأُمَّة الأكثر إطلاقًا. وكان مُلكُه على قمَّة الجبل في تاريخ الأُمَّة. فلا قبلَه ولا بعدَه وُجِدَ مِثلُ ذَينِكَ النُّفوذ والثَّراء على الصعيد العسكريّ، والاقتصاديّ، والإقليميّ، غير أنَّ هذا أيضًا كان باطلًا.

لا يصف سُلَيمان اختِباره للسُّلطة كاختبارٍ مُتميِّزٍ بجلاء عن اختِباره للمِتعة، بل كجُزءٍ منه (جامعة ٢: ٨). فالشَّكل الذي اتَّخذَته سُلطَتُه كان الغِنى، أوضحَ شَكلٍ للنُّفوذ؛ إذ إنَّ الغِنى يستطيع أن يشتريَ كلَّ ما يستطيع المالُ أن يشتريَه. ومن النَّكَد أنَّه لا يستطيعُ أن يشتريَ شيئًا واحدًا

لا يستطيع المالُ أن يشتريَه: المعنى، الغاية، السَّعادة، السَّلام، المحبَّة.

ولكنْ من إخفاق النُّفوذ بذاته، يمكننا أن نجدَ مِفتاحًا أعمقَ للنَّجاح. فالنُّفوذ يُحاوِلُ أن يُسَيطرَ على الأشياء ويُفلحُ، ولكنَّه لا يستطيعُ أن يشتريَ المعنى ولا أن يُسَيطرَ عليه. وهكذا، فإنَّ المعنى ليس شيئًا يمكنُنا أن نُسَيطرَ عليه. فلا بُدَّ أن يكون مجَّانيًّا. لا بدَّ أن يكون هديَّة. لا بدَّ أن يكون محبَّة.

لكنْ مهلًا! نحن نسير بسُرعةٍ فائقة. فذلك الجواب لا يَرِدُ في هذا السِّفر. وعلينا أن نفهمَ المسألةَ تمامًا قبل أن يُتاحَ لنا فَهمُ الحلِّ تمامًا. وهكذا، فلأَجْلِ فَهْمِ المحبَّة فَهمًا تامًّا، لا نُفكِّرَنَّ الآن في المحبَّة.

٤. النِّظامُ الأخلاقيُّ

يقفزُ سُلَيمان قفزةً كبيرة إلى الأمام عندما يتخلَّى عن السَّعي الثُّلاثيِّ وراءَ الرِّبح الأنانيِّ، بإشباع عقله وجسده ومصلحته المادِّيَّة، وينطلقُ في اختِبارٍ رابع ومُختلِفٍ تمامًا: الغَيريَّة، حُبِّ الخير، الخِدمة الاجتماعيَّة، العمل لأجل الآخرين، لا سيَّما لأجل الأجيال الآتية. وهذا يُوسِّعُ كثيرًا آفاقَه، وروحَه، وفُرصتَه في أن يجدَ معنًى ما.

> "اِثنان خيرٌ من واحد، لأنَّ لهما أُجرةً لتعبهما صالحة. لأنَّه إن وقع أحدُهما يُقيمه رفيقُه. وويلٌ لِمَن هو وحدَه إن وقع، إذ ليس له ثانٍ لِيُقيمَه! أيضًا إن اضطجع اثنان، يكون لهما دفء؛ أمَّا الوحدُ فكيف يدفأ؟ وإنْ غلبَ أحَدٌ على الواحد، يقفُ مُقابِلَه الاثنان. والخيط المثلوث لا ينقطع سريعًا" (جامعة ٤: ٩-١٢).

ولكنْ حتَّى هذا غيرُ كافٍ. وربَّما كان ذلك هو الدَّرسَ الأكثرَ ترويعًا بين جميع الدُّروس للنَّظير العصريِّ النموذجيِّ الذي يَفترضُ بَداهةً أنَّ حياةً يُمضيها المرءُ في خدمة الجار (أي القريب أو الآخَر) هي الحِكمةُ العُليا، والخيرُ الأعظم، والحلُّ الحاسمُ والكافي بذاته لمُشكِلة الباطل. أمَّا سببُ كَونه غيرَ كافٍ فبَسيطٌ جدًّا. إنَّ كلَّ ما وجدَه سُلَيمان حتَّى الآن هو لُعَبٌ باطلة. وكيف يمكنُ أن تكونَ عطيَّةُ الباطل إلَّا باطلًا؟ فإذا كان الغنى والنُّفوذ والحِكمةُ والمتعةُ أمورًا باطلةً في نظره، فلا بُدَّ أن تكون، على حدٍّ سواء، باطلةً في نظر أُولئك الذين يتشارك معهم فيها. اضرِبْ صِفرًا في أيِّ عَدَد، تحصلْ على صفرٍ دائمًا أبدًا. وإذا كنتَ لا تعرفُ ما معنى الحياة، فكيف تجدُه بهدايةِ الآخرين إليه؟ نحن جميعًا نعلَمُ ما يحصلُ حين يقودُ الأعمى أعمى: يسقطان كِلاهما في الهُوَّة. أمرٌ جيِّدٌ جدًّا بمُجمَله أن تُفضِّلَ الغَيريَّة على الأنانيَّة (الإيثارَ على الأثَرة)، أن تعملَ لأجل خير الآخرين، ولكنْ ما **هو** خيرُ الآخرين؟ ما إنْ أجِدُ الخيرَ الأسمى، حتَّى يغدوَ من الواجب أن أُشرِكَ الغيرَ فيه، دونَ شكّ، ولكنِّي لا أستَطيعُ ذلك قبلَ أن أجِدَه.

وكما يُعبِّر سُلَيمان بحكمة، أيُّ نفع ينتجُ من العمل في سبيل الأجيال الآتية إذا كانت هذه تتَّصِفُ بالحَماقة والجهل؟ "فكرِهتُ كلَّ تعبي الذي تعِبتُ فيه تحت الشمس، حيث أتركُه للإنسان الذي يكونُ بعدي؛ ومَن يعلم: هل يكون حكيمًا أو جاهلًا، ويستَولي على كلِّ تعبي الذي تعبتُ فيه؟" (جامعة ٢: ١٨ و١٩).

٥. الدِّيانة التقليديَّة

إنَّ الدِّينَ الصحيحَ لا بُدَّ أن يكونَ بالحقيقة كبيرًا بما يكفي لِمِلءِ الفَجوة في قلب سُلَيمان. ولكنَّ دينَ سُلَيمان دينٌ تقليديّ، لا دينٌ حقيقيّ، فمَعرفةُ الله الحقيقيَّة هي الحلّ، الحلُّ الوحيد الوافي، لأعظم مسألةٍ في العالَم. غيرَ أنَّ إلهَ سُلَيمان هو فقط إلهُ حركةِ التَّنوير الفلسفيَّة، إلهُ العقل، وهذا الإله صغيرٌ إلى أبعدِ حدّ.

لقد كان سُلَيمان صادقًا. وبمعنًى ما، ذلكَ سَبَبُ شقائه. فهو لا يُزيِّفُ الأُمور؛ إنَّه يعلَمُ أنَّ إلهَ الطبيعةِ والعقلِ البشريِّ وحدَه، الإلهَ الذي يُعرَفُ فقط بالمُشاهَدة والاختبار تحتَ الشمس، هو أكثرُ بقليلٍ من "سين"، أيْ كمِّيَّة مجهولة، **علَّة أُولى** غامضة، ذاك الذي يقفُ على نحوٍ غير مَرئيٍّ وراءَ كلِّ شيء. نعم، هُنا الصُّعوبة: كلُّ شيء. الشَّرُّ والخير على السَّواء. فالله، شأنُه شأنُ الكَون، لا يبدو أنَّه يُعطي معنًى ضئيلًا: "في يوم الخير، كُن بخَير؛ وفي يوم الشرِّ اعتبِر. إنَّ الله جعلَ هذا مع ذاك، لِكيَلا يجدَ الإنسانُ شيئًا بعدَه" (جامعة ٧: ١٤).

إلهٌ من هذا النَّوع يمكنُ أن يؤمنَ به المرءُ ويخشاه، ولكنْ نادِرًا ما يحبُّه أو يَثِقُ به. إلهٌ كهذا ليس "**أبَا**" (Abba)، أبًا، "بابا"، بل مُجرَّدُ "شِبهِ أبٍ"، الأبُ الغائب، "الأبُ الأبيض العظيم". إلهٌ كَهَذا هو فقط "**القوَّة**" (The Force) في المسلسَل التلفزيونيِّ "**حروبُ النجوم**" (Star Wars).

إنَّ مُشاهَدةَ الطبيعة لا تُبيِّن تفضيلًا إلهيًّا للصالحين أو الطيِّبين. فالأرانبُ الصِّغار وأطفالُ البشر الأبرياءُ لا يُصيبون نجاحًا في مواجَهة

الذِّئاب الضَّاربة أو اللُّوكيميا (سرطان الدَّم). وليسَتْ مُراقبةُ الحياة البشريَّة أفضلَ حالًا: فالطيِّبون يموتون صغارًا، وكُلَّما كُنتَ أحسنَ كان أرجَحَ أنَّك ستَموتُ شهيدًا. ونحنُ الآدميِّين لَدَينا وَلَعٌ باغتيالِ أبطالِنا وأنذالِنا على السَّواء، أصلَحِ رجالِنا وأطلَحِهم (الرِّجال، ونادرًا النِّساء حتَّى الآن، مع أنَّ النِّساء- إذا نجح دُعاة المُساواة الكاملة بين الجنسَين نجاحًا تامًّا- سيَكُنَّ حاضِراتٍ كالرِّجال عِندَ كِلا طَرَفَي بُندقيَّةِ الاغتيال). فالسَّبيلُ الأسلَمُ في عالَمٍ كهذا، على ما يرى سُلَيمان، هو: "لا تكُن بارًّا كثيرًا... لماذا تخربُ نفسَك؟ لا تكُنْ شرِّيرًا كثيرًا... لماذا تموتُ في غير وقتك؟" (جامعة ٧: ١٦ و١٧).

حقًّا إنَّ ديانةً كهذه هي مُملَّة، شأنُها شأنُ العالَم. إنَّها زائدةٌ لا لُزومَ لها. كما أنَّ إلهًا كهذا مَوجودٌ هُناك فقط، لا هُنا؛ كِيانٌ غير عاقل، لا كائنٌ يقول "أنا"؛ شيءٌ نعترفُ به، لا شخصٌ نحبُّه ونستمع له ونتوقُ إليه. إنَّ **المجهولَ العظيم**، مهما كان عظيمًا، لا يستطيعُ أن يسدَّ الثَّقبَ الذي في قلبنا أو الثَّقبَ الذي في رأسنا. فيجبُ أن يصيرَ مَعلومًا. ولكنَّ تلك القصَّة يحكيها باقي الكِتاب المقدَّس.

إنَّ جميعَ "المُرشَّحين" الخمسة لمنصب الخير الأسمى، جميعَ "الأتعاب" الخمسة تحت الشمس، جميعَ الأشياء الخمسة التي يَضَعُ البشرُ رجاءَهم فيها ويعُطونَها قلوبَهم وحياتَهم، قد أثبتَت أنَّها باطلة. والسَّبب هو أنَّها كلَّها تحت الشمس، وكلُّ شيءٍ تحت الشمس هو باطل. لماذا؟

خمسةُ أباطيل

يُورِدُ سُلَيمان خمسةَ أسبابٍ لمُقدَّمته الكُبرى: أنَّ كلَّ شيءٍ "تحت الشمس" باطل. فهو يَلحَظُ في ما يتعلقُ بهذا العالَم وهذه الحياة "تحت الشمس" خمسةَ ملامحَ تجعَلُ كلَّ شيءٍ باطلًا. والخَمسةُ كلُّها حاضِرةٌ في كلِّ مكان. فعلى غرار السَّرطانات، تمدُّ مَحاليقَها إلى داخِل كلِّ رُكنٍ من أركان حياتنا. وأيُّ واحِدٍ من هذه السَّرطانات الخمسة كافٍ لقَتْلِ المعنى؛ فالحياةُ مَوبوءةٌ بالخمسة كُلِّها. وإليك هذه الخمسة:

١. تَماثُلُ جميع الأشياء وعَدَمُ اختلافها.
٢. الموتُ باعتباره النِّهاية الحتميَّة والنهائيَّة للحياة.
٣. الوقتُ كدَورةِ تكرارٍ لا تنتهي.
٤. الشَّرُّ باعتباره المُشكلة الدائمة والتي لا حلَّ لها.
٥. الله بوصفه لُغزًا لا يُمكِن أن يُعرَف.

١. التَّماثُل وعَدَمُ الاختلاف

إنَّنا نُصدِر أحكامًا على أساس القيمة. فنحن نُفضِّل شيئًا على آخر: الحياةَ على الموت، الجمالَ على القُبح، الخيرَ على الشَّرّ. أمَّا الطبيعةُ فلا تفعَلُ هذا؛ الطبيعةُ لامُبالية. وبكلماتٍ ستيفن كراين (Stephen Crane):

قالَ إنسانٌ للكَون:
"سيِّدي، أنا موجود!"
فأجابَه الكَون:

"هذه الحقيقة لا تُوجِدُ لَدَيَّ
أدنى شعورٍ بالواجب".

أَجْرِ استِطلاعًا إحصائيًّا لِلكوَن. اِسألْه كم كائنًا حيًّا جَلَبَ هو إلى الحياة. وليكُنِ الجواب **س**. ثُمَّ اسألهْ كم واحدًا من تلك الكائنات ردَّ إلى الموت، أو هو عامِلٌ على ردِّه إلى الموت. وسيكون العدد **س** مرَّةً أُخرى. ليس **س**+١، ولا **س**-١، بل **س** فحسْب. فإنَّ الكَون لا يملكُ تَفضيلات. أمَّا نحن فنملك. إنَّنا لا نُلائمُ هذا الكَون. وليسَتْ مأساةُ الحياة الكُبرى فقط أنَّ الأُمور الرديئةَ تحدُثُ، بل إنَّ الأُمور الرديئة تحدُثُ للصَّالحين تماماً وغالبًا كما للطَّالحين. فالمأساةُ هي أنَّ الكُلَّ باطل، حيثُ...

"حادثةٌ واحدةٌ للصِّدِّيق وللشِّرِّير، للصَّالح وللطَّاهر وللنَّجس، للذَّابح وللَّذي لا يذبح: كالصَّالحِ الخاطئُ" (جامعة ٩: ٢).

"فعُدتُ ورأيتُ تحت الشمس: أنَّ السَّعيَ ليس للخفيف، ولا الحرب للأقوياء، ولا الخُبز للحكماء، ولا الغِنى للفُهَماء [ذلك حقٌّ مؤكَّد!]، ولا النِّعمة لذَوي الوقت: لأنَّ الوقت والعَرَض يُلاقيانِهم كافَّةً" (جامعة ٩: ١١).

إنَّ الكَون يبدو تمامًا مِثلَ رِت بَتلَر (Rhett Butler) في رواية "**ذهبَ مع الريح**" *(Gone with the Wind)*. فهذا هو الوجه الذي يُرينا إيَّاه: "بصراحة، أيُّها العزيز، أنا لا أُعطي ولو شيئًا تافهًا".

٢. الموت

إنَّ الموتَ هو العائقُ الأكثرُ إزعاجًا في الحياة، ولكنَّه أيضًا الأكثرُ بَدَهيَّةً... مثل فيلٍ في مَطبخِك! وهو أيضًا أقوى سببٍ يجعَلُ الحياةَ تَبدو باطِلةً. فأيُّ رِبح في استِثمارٍ بأيَّة مصلحة من مَصالح بَلَدٍ ما إذا كان ذلك البَلَدُ على وَشكِ أن يُدَمَّر؟

إلَّا أنَّ الموتَ هو الآن. فحالَما نُولَد، نبدأُ نموت. إنَّنا جميعًا مُفلِسون على السَّواء، ولكنَّ بعضَنا لم يُعلَن إفلاسُهم بَعد: أُوليغاركيَّةَ[٥] الأحياءِ الضئيلةَ والمغرورة، تُحيطُ بها ديمقراطيَّةُ الأموات التي تفوق تِلكَ عددًا إلى أبَعدِ حدّ.

ما معنى الموت؟ هاكَ كُلَّ ما يستطيع أن يُجيبَ به العَقلُ البَشَريُّ على أساس مُراقبةِ الحياة:

> "ما يحدث لبني البشر يحدُثُ للبَهيمة، وحادثة واحدة لهم. مَوتُ هذا كَمَوت ذاك... يذهب كِلاهُما إلى مكانٍ واحد: كان كِلاهما من التُّراب، وإلى التُّراب يعودُ كِلاهما. مَن يعلَمُ روحَ بني البشر هل هي تصعد إلى فوق؟ وروحَ البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل، إلى الأرض؟" (جامعة ٣: ١٩-٢١).

مَن يعلم، حقًّا؟ ها هُنا، تحت الشَّمس، لا أحَد. إلَّا إذا ظهرَ هنا تحتَ الشمس إنسانٌ جاءَ ممَّا وراءَ الشمس، ممَّا وراءَ أُفقِ لَيلِ الموت... إلَّا إذا رأينا

---

(٥) أوليغاركي (Oligarchy) لفظةٌ لاتينيَّة تعني حكمَ الأقلِّيَّة (الناشر).

الشَّمسَ المُشرِقَ، **الابنَ القائم**. غير أنَّ سُلَيمان لم يكُن قد رأى بَعدُ ذلك الإنسان، بل فقط إنسانَ التُّراب، ذاك "الذي من الأرض" والذي "هو أرضيّ"، لا **الإنسانَ** الذي من السَّماء؛ وما يقولُه سُلَيمان عن الإنسان التُّرابيّ، عن آدَمَ الأوَّلِ وجميع ذُرِّيَّته، هو حقٌّ تمامًا. وكما عبَّر پاسكال عن ذلك في "**الخواطر**"، فإنَّ "الخاتمة مُروِّعة، مهما كان باقي المسرحيَّة جميلًا. إنَّهم يَضَعون فوقَ رأسك شيئًا من التُّراب، وتلك هي النِّهاية، إلى الأبد. تلك هي النِّهاية التي تنتظر ألمعَ حياةٍ في العالَم".

قيل عن الإسكندر الكبير إنَّه أوصى بأن يُدفَن وذراعُه المُجرَّدة تتدلَّى خارجَ تابوته، فارغَ اليد، ليُبيِّنَ للعالَم أنَّ الرَّجُل الذي قهرَ العالَمَ غادَرَه كما دخلَه: مُجرَّدًا. "عُريانًا خرجتُ من بطن أُمِّي؛ وعُريانًا أعود". فما تحت لِباسِ حياتنا الوقتيِّ، هو أنَّنا جميعنا عُراةٌ عُريَ الموت.

وكما تستمدُّ المُحاجَّةُ مَوضوعَها من خُلاصتها، هكذا تستمدُّ القِصَّةُ فَحواها من خاتمتها. فإنْ كان الموتُ هو الآخِرةَ النهائيَّة، كما يبدو في الواقع، فإنَّ قِصَّةَ الحياة باطلةٌ بُطلانًا مُفرِطًا. ما يزالُ الكونُ يئنُّ في مَخاضٍ تطوُّريٍّ معنا، وما نحنُ إلَّا الإجهاضُ الكونيُّ فحسْب.

٣. الوقت

الوقتُ باطِلٌ لأنَّ "الوقتَ ليس إلَّا كلمةً مُرادِفةً للموت". إنَّ الوقتَ نهرٌ يأخذُ منَّا كُلَّ ما يُعطينا إيَّاه. فلا يبقى شيء؛ إذ إنَّ الوقتَ يُتلفُ حتَّى النُّجومَ.

أهذا تقدُّم؟ أوَيَضي الوقت إلى مكانٍ ما؟ أنحنُ في قصَّة؟ ليس

كذلك إذا قالَت لنا الملاحظةُ تحت الشمس الحقَّ بشأن الوقت. فإنَّ هذه الملاحظة لا ترى سوى دَورات: "للولادة وقت، وللموت وقت؛ للغرس وقت، ولقلع المغروس وقت... فأيُّ منفعة لمن يتعب ممَّا يتعب به؟" (جامعة ٣: ٢، ٩). "لا جديدَ تحت الشمس". لا بشارة، لا "إنجيل". فالتقدُّمُ أُسطورة، والتطوُّر- إذا لم يكُن أُسطورةً أُخرى- هو فقط قطعةٌ وقتيَّةٌ من عمليَّةٍ كَونيَّة أوسَع: الجانب "الأعلى" من الدَّورة. أمَّا الإنتروبيا[٦] فهي الجانب "الأدنى". فأُسطورةُ التقدُّم تُشبه التوهُّمَ أنَّك تتسلَّق جبلًا فقط لأنَّك تصعد تَلَّ نَملٍ في طريقك نزولًا.

وإذا كان الوقت باطلًا، فإنَّ الحياةَ باطلة، لأنَّ الحياة كُلَّها وقتيَّة. فالوقتُ هو السِّمَةُ الأساسيَّة وغيرُ القابلة للاستئصال بينَ سِمات اختبارِنا الكُلِّيِّ تحت الشمس، سواءٌ لِما هو روحيٌّ أم لِما هو مادِّيّ، لأنَّ التفكير يستغرقُ وقتًا كالتَّصرُّف أيضًا؛ إذ إنَّ نفوسَنا موجودةٌ في الزَّمان شأنُها شأنُ أجسادِنا، وإنْ لم تكُن في المكان. ولكنْ على الرُّغم من بُطلانِ الوقت، هذا الكُلِّيِّ الوجود والذي لا مفرَّ منه، ثَمَّة بادرةُ أمَل، صَدْعٌ في الحائط البغيض، آيةٌ واحدةٌ فيها يفتح سُلَيمان كُوَّةً تُطِلُّ على عالَمٍ آخَر، مِثلَ ما وصفه الشاعر بأنَّه "كُوًى بابيَّة تنفتحُ على الزَّبَدِ الخَطِر" في "أراضي عَبقرَ الساحرة". فبعدَ أن ينوحَ سُلَيمان على دورات الوقت العديمة المعنى، يقولُ بشأن الله إنَّه "صنعَ الكُلَّ حَسَنًا [أي مُناسِبًا] في وقته، وأيضًا جعلَ الأبديَّة في قلبهم [في فكر البَشَر أو روحهم]".

---

(٦) الإنتروبيا (Entropy) مصطلح علميٌّ من الديناميكا الحراريَّة يمثِّلُ مقدارَ الطاقة غير المتوافرة، أي التي لا تُستخدَم، في نظام حراريٍّ مغلَق. وهي تعبِّر أيضًا عن مقدار الفوضى في أيِّ نظامٍ كَونيّ (الناشر).

إنَّنا نختبر الوقتَ وحدَه، ولكنَّنا نتوقُ إلى الأبديَّة، إلى الخُلود بمعزلٍ عن الوقت أو الزَّمن. لماذا، بحقِّ السَّماء؟ من أينَ علِمنا أصلًا بهذا الشيء الذي يُسَمَّى الأبديَّة حتَّى نتوق إليه؟ ما دامَ الوقتُ يكتنِفُ وجودَنا كلِّيًّا، فلماذا لا نستَريحُ تمامًا في إطاره؟ "هل يشكو سَمَكُ البحرِ كونَه مُبلَّلًا؟" غيرَ أنَّنا نشكو الوقت. فليس ثَمَّة أبدًا وقتٌ كافٍ لأيِّ شيء. إنَّ الوقتَ، مُحيطَنا الطبيعيَّ، هو عدوُّنا.

لعلَّ هنالك يابسة. رُبَّما لسنا سَمَكًا، أو لن نكون كذلك دائمًا. ربَّما... بل أكثر من ربَّما. فالأشواقُ المُتأصِّلة تنمُّ عن أغراضٍ حقيقيَّة: إذا كان ثمَّةَ جُوع، فثمَّةَ طعام. وثمَّةَ جُوعٌ فِطريٌّ إلى الأبديَّة.

غير أنَّ هذا الطَّعام ليس مَوجودًا تحت الشمس. فسُلَيمان يُرينا، بالمُباينة، ما معنى الحياة وأين يكونُ هذا المعنى، إذ يُرينا ما ليس معنى الحياة وأين لا يكون. إنَّه **هُنالك**. فثَمَّة ما هو **أكثر**. إنَّ في **السَّماء** والأرض أُمورًا أكثرَ ممَّا حَلَمَ به الناس في جميع الفلسفات. ذلك هو إعلانُ الرَّجاء. فإنَّ رسولَ الرَّجاء قد تسلَّلَ حتَّى إلى داخِل قصر الهلاك. وما تَوقُنا إلى الأبديَّة، استياؤنا السماويُّ من الزَّمَن، إلَّا رسول الرَّجاء.

٤. الشَّرُّ

إنَّ مُشكلةَ الشَّرِّ واللَّاعدل وألَم الأبرياء وحصولَ الأُمور الرديئة للأشخاص الصالحين هي أقدَمُ الألغاز كلِّها، وأقوى جميع الحُجَج ضدَّ الإيمان بصَلاح الله وصلاح الحياة.

"يوجَدُ باطلٌ يُجرَى على الأرض: أن يوجَدَ صدِّيقون يُصيبُهم مثل عمل الأشرار، ويوجد أشرار يُصيبُهم مثل عمل الصِّدِّيقين..." (جامعة ٨: ١٤).

"وأيضًا رأيتُ تحت الشمس: موضِعَ الحقِّ هُناك الظُّلم، ومَوضعَ العَدل هناك الجَور" (جامعة ٣: ١٦).

"ثُمَّ رجعتُ ورأيتُ كلَّ المظالم التي تُجرى تحت الشمس: فهُوَذا دموع المظلومين ولا مُعَزٍّ لهم؛ ومن يد ظالميهم قهر، أمَّا هُم فلا مُعَزٍّ لهم" (جامعة ٤: ١).

قال السيِّد المسيح إنَّ الفُقراءَ والمظلومين سيكونون بين الناس كلَّ حين. فإنَّ عشرين قرنًا لم تحلَّ المشكلة، ولن تحلَّها عشرون غيرها. فالزَّمن لا يحلُّ الشَّرّ. ولا شيءَ تحت الشمس يحلُّه.

حتَّى قليلٌ من الشَّرِّ يبدو أنَّه يُبدِّدُ كثيرًا من الخير: "الذُّباب الميِّت يُنتِّن ويُخمِّر طيبَ العطار: جهالةٌ قليلة أثقلُ من الحكمة ومن الكرامة" (جامعة ١٠: ١). إنَّ ثورًا واحدًا في دُكَّان خَزَفٍ صينيّ، أو إصبعَ مجنون واحد على زنادِ بُندقيَّة آليَّة أو على زِرٍّ نُوويّ، أو كلمةً واحدة أُسيءَ اختِيارُها، أو فِعلَ خيانةٍ واحدًا، يُمكِنُ أن تُدمِّرَ حياةً بكاملها. فالخيرُ رهينةُ الشَّرّ. وهذا أيضًا باطل.

٥. الله

إذًا، هل من معنًى في الله؟

نعم، ولكنْ ليس في إله سُلَيمان. ليس في الإله الذي يُعرَف بالعقل الذي لا يتمتَّع بالإعانة. ليس في "الطبيعة وإله الطبيعة". فذلك مُجرَّد كِيانٍ غير عاقل، لا إلهٌ ذو شخصيَّة، قطعةٍ من الآليَّة السماويَّة تُدعى العلَّة الأُولى أو المُهَندِس العظيم أو المُصَمِّم المجهول وراء تصميم الطبيعة المعلوم. وإذا كان كلُّ ما نعرفُه عن الله هو ما نقرأُه من الطبيعة، فلا بدَّ أن نستنتجَ خمسةَ أُمور:

١. أنَّ الله مَوجود؛

٢. أنَّ الله قويٌّ كفايةً بحيثُ يصنعُ العالَم؛

٣. أنَّ الله ذكيٌّ كفايةً بحيثُ يُصمِّم العالَم؛

٤. أنَّ الله رُبَّما كان أيضًا مُحِبًّا للجمال كفايةً بحيثُ يخلق جمالَ العالَم، رائعةً من روائع الفنّ؛

٥. ولكنْ ليس أنَّ الله صالحٌ أو مُحِبٌّ، أو حتَّى عادلٌ، بحيثُ يعتني بنا وبحياتنا. فلا دليلَ تحت الشمس على ذلك، الأمرُ الذي يهمُّنا فعلًا، الأمرُ الذي لن يجعلَ الله مُجرَّدَ "القوَّة" بَلِ **الأب**. إنَّنا أولادٌ صِغار مُرتعِبون، "ضائعون في غابة مسكونة"، ونحنُ نحتاجُ إلى **أبَا، بابا**، لا إلى **قوَّة** أو **علَّة أُولى**. إنَّنا نحتاجُ إلى إله اسمُه ليس **س**، بل **أنا**.

إنَّ سُلَيمان هذا ليس جاهلًا. ولذلك لم يقُل في قلبه: "ليس إله!" ولكنَّ سُلَيمان هذا ليس أيضًا واحدًا من أولاد الله. فإنَّ الله ليس أباه، بل **مجهولُه**، لُغزه الغامض:

"انظُر عمل الله: لأنَّه مَن يقدرُ على تقويم ما قد عوَّجه؟" (جامعة ٧: ١٣).

إنَّ إله الطبيعة يَدَعُ الأورامَ الدِّماغيَّة تظهرُ في رؤوس الأطفال الصِّغار. وأفضلُ ردَّتَي فعلٍ تُجاهَ تلك الحقيقة هما اللَّاأدريَّة (Agnosticism) والاتِّضاعُ العقلانيّ:

"رأيتُ كلَّ عمل الله أنَّ الإنسانَ لا يستطيع أن يَجِدُ العملَ الذي عُمِلَ تحت الشَّمس. مهما تعبَ الإنسانُ في الطَّلب فلا يجِدُه؛ والحكيمُ أيضًا، وإنْ قال بمعرفته، لا يقدرُ أن يجِدَه" (جامعة ٨: ١٧).

"كما أنَّك لست تعلم ما هي طريق الرِّيح، ولا كيف العِظام في بطن الحُبلى، كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنعُ الجميع" (جامعة ١١: ٥).

أمِنَ المُمكن أن تؤمنَ بالله، ومع ذلك تيأسُ ولا تعلمُ لماذا أنت حيٌّ؟ بالتَّأكيد! فهكذا كانت حالة سُلَيمان. فإنَّ إلهه مِثل القمر: هُناك، ولكنْ ليس هنا؛ مُسيطِرًا على مَدِّ حياته وجَزرِها، ولكنْ غيرَ داخِلٍ في أيَّة علاقةٍ شخصيَّة به، حيثُ لا مُقابلةَ معه وجهًا لوجه كما مع أيُّوب. إنَّ إلهَ سُلَيمان بِلا وجه؛ فهو مُجرَّدُ **كَينونة**، مُجرَّدُ **كائن**، وليس **أنا كائنٌ**. فإنَّ نظريَّة المعرفة عند سُلَيمان هي طبيعانيَّةٌ (Naturalistic) تمامًا، وليسَتِ الطبيعة سوى ظَهْرِ الله. ولكنَّ الأسفارَ المُقدَّسة هي فَمُ الله، والسيِّد المسيحُ هو وجهُ الله. إنَّما سِفرُ الجامعة هو صُورةٌ ظلِّيَّة تامَّة للسيِّد المسيح، الصُّورةُ الجليَّة التي يملأها وجهُ السيِّد المسيح.

الحاجةُ إلى جواب:
ثلاثةُ أبوابٍ شَيطانيَّة

من الجوهريِّ أن نتَفادى من الخُلاصة التي ينتهي الجامعة إليها، بطريقةٍ من الطُّرُق. فمن الجوهريِّ- بطريقةٍ مُطلَقة تامَّة- أن يُدحَضَ الباطِل، أن يُطرَدَ أكثرُ جميع الشَّياطين تَرويعًا.

وثَمَّة ثلاثةُ أبوابٍ منها يمكن أن يدخُلَ هذا الشَّيطانُ حياتَنا. فهُناك بابٌ عاطفيٌّ، نفسيٌّ، مُرتبِطٌ بالاكتئاب. وهناك أيضًا بابٌ مركزيٌّ، بابٌ روحيٌّ، ليس له اسمٌ، ولكنَّه عكسُ الإيمان. إنَّ اسمَه ليس الشَّكّ؛ لأنَّ الإيمانَ العظيم قد يوجَدُ مع الشكِّ الكثير، كما في سِفر أيُّوب. ولا هو عَدَمُ الإيمان فحسْب، أو الإيمانُ الذي لم يوجَدْ بَعد، لأنَّ ذاك يمكنُ أن يكونَ بحثًا أو طَلَبًا، وكلُّ "مَن يطلب، يَجد". بل هو بالأحرى نَوعٌ من ضِدِّ الإيمان كالذي نراه لدى مُلحِدين كِبار مثل سارتر ونيتشِه، ممَّن يُعنَون بلاحقيقة الله قدرَ ما يُعنَى القدِّيسون الكِبار بحقيقة الله. وهناك أيضًا بابٌ ثالِث، بابٌ عقلانيٌّ فِكريٌّ فلسفيٌّ كثيرُ الحُجَّة تعليليّ. ذلك هو البابُ الذي يفتَحُه الجامعة.

ومن الضَّروريِّ إغلاق هذه الأبواب الثلاثة جميعًا. فعِلمُ النَّفس يُغلقُ الباب الأوَّل. ويُغلقُ الدِّين البابَ الثاني، وهو يُغلقُ البابَ الأكبرَ بكثير، البابَ المركزيّ. أمَّا الفلسفة فيجب أن تُغلقَ البابَ الثالث الخاصَّ بها. وكلُّ طريقة غَلقٍ تختلف عن الأُخرى. فليس في وُسْع عِلم النفس أن يستعملَ طريقة الفلسفة في الإغلاق، أي المُحاجَّاتِ العقليَّةَ، كي يُحارِبَ الاكتئاب. وليس في وُسْع الفلسفة أن تستعمل الأساليب السيكولوجيَّة

المجرَّدة كي تشفيَ النُّفوس، مع أنَّ عصرَنا زاخرٌ بالحَمقى الذين يُحاوِلون ذلك. إنَّ عُلَماء النَّفس يستَطيعون أن يُزيلوا مشاعِرَ الذَّنْب؛ ولكنَّ الله وحدَه يستطيعُ أن يُزيل الذَّنْبَ الفِعليَّ. ثُمَّ إنَّ الفلسفةَ لا تستطيع أن تغلقَ الباب الخاصَّ بها بأساليبَ غير عقليَّة، غير فلسفيَّة، سواءٌ كانت تلك أساليبَ دُون عقلانيَّة أم فَوق عقلانيَّة أم لاعقلانيَّة فحسْب. حتَّى لو كان الإيمانُ الدينيُّ أعظمَ من العقل بكثير، فهو ليس بديلًا من العقل المُعلِّل. وإيمانُنا بحدِّ ذاته يُوصينا أنْ: كُونوا "مُستعدِّين دائمًا لمُجَاوبة كلِّ من يسألكم عن سبب الرَّجاء الذي فيكم" (١بطرس ٣: ١٥).

لا أحَدَ **يُريدُ** أن يعترفَ باستِنتاج سُلَيمانَ: "الكلُّ باطِل". ولكن لا يمكنُنا تمامًا أن نؤكدَّ أنَّنا ننكرُه. فإنَّ سُلَيمان قدَّم لنا بعض الأسباب الجيِّدة جدًّا للإيمان به. إنَّه لم يَبنِ قضيَّةً قويَّة، بِناءً متينًا. فعلَينا أن نُقوِّضه. علينا أن ندحضَ حُجَّته.

أعتقدُ أنَّ الله رتَّب بعنايته أن يشتمِلَ الكتابُ المُقدَّس على هذا السِّفر لأجل ذلك الغَرَض الخاصّ. فإنَّ الله يُمارس "أُسلوبًا سُقراطيًّا" معنا، إذ يطرح سؤالًا، أو تحدِّيًا، ويطلبُ أن نُقدِّمَ **نحن** الجواب، أو الرَّدّ. وهكذا تفعلُ بنا الحياة. فنحن نظلُّ نسألُ الحياة: "ما مَعناكِ؟" والحياة تردُّ بطَرح تحدِّيات علينا تَستَوجبُ أن نستجيبَ لها. إنَّ الحياة تسألُنا **نحن**: "ما معناكَ **أنت**؟" وآدَم، بعدَ السُّقوط، سأل أين كان الله، إلَّا أنَّ الله، بَدَلَ أن يُجيب، سألَه: "آدم، أين أنت؟" كذلك طلب أيُّوبُ الله بصفته "رجُلَ مُجاوبَتِه"، ولكنْ لمَّا ظهرَ الله، سألَ هو أيُّوب عن أجوبته الذاتيَّة: "الآنَ دَوري كي أطرحَ الأسئلة، ودورُكَ كي تُجيب". ويقول المتصوِّفون والمَرضى

المُحيَون إنَّ "الكائن النُّورانيَّ" الذي يُشاهِدونَه يطرحُ عليهم سؤالًا، وإنْ لم يكُن بالكلام عادةً، شيئًا من قبيلِ: "قدِّم حسابًا عن نفسك. أنا هو النُّور. قِف في النُّور".

ليس من شيءٍ أكثرَ إملالًا من جوابٍ عن سؤال لم تطرحْه قطُّ ولا اهتَممتَ به. ومُعظَمُ التعليم الدينيِّ هو على غِرار ذلك؛ بل مُعظَمُ التَّعليم الدُّنيويّ أيضًا. غير أنَّ الله، على خلاف مُعلِّمينا البشريِّين لم يغلط تلك الغَلطة (حاشا!). والجامِعة هو السؤال. إنَّ الكتابَ المُقدَّس صُورَةٌ على لوحَين مُتَّصِلَين (دِيپتِك [*Diptych*]). فالجامعة هو اللَّوحُ الأوَّل، السؤال. وباقي الكتاب المقدَّس هو اللَّوح الثاني، الجواب. فالكتاب المُقدَّس يُشبه الحياة، يُشبه التاريخَ حسبَ رأي توينبي: "تَحَدٍّ ورَدٌّ". والجامعة هو التَّحدِّي؛ أمَّا الباقي فهو الرَّدّ.

حسنًا، هل فهمنا الرَّدّ؟ هل نستطيعُ أن نُجيبَ الجامعة؟ هل نستطيعُ أن نُترجِمَ إيمانَنا إلى لُغَةِ العَقل؟ هل نستطيعُ أن نُقدِّمَ سببًا منطقيًّا للرَّجاء الذي فينا؟

أُصولُ الرَّدّ

عندما نردُّ جوابًا، نبتغي أن نفعلَ ما يتَخطَّى مُجرَّدَ "إطلاع الآخرين على مشاعِرنا" أو آرائنا. فذلك أمرٌ صبيانيٌّ؛ إنَّه مُجرَّدُ "إفراغ ما لدَينا"، "إزاحةِ الثِّقل عن صدورنا". إنَّما يتعيَّن علينا ليس فقط أن نُطلِقَ شيئًا ما إلى الخارِج، بل أن نتقبَّلَ شيئًا ما في **الداخِل**، ألا وهو الحقيقة. فينبغي

لنا ليس فقط أن "نُعبِّرَ عن رأينا"، بل أن **نُعبِّرَ** الحقيقةَ إلى داخِل كياننا. ينبغي لنا ليس فقط أن نُمثِّلَ (نُجسِّدَ) ما في الداخل، بل أن نتمثَّلَ ما في الخارج: أن نتعلَّمَ الحقيقة، أن نتبيَّنَ هل يقولُ سُلَيمانُ الحقّ. ذلكَ إذا كُنَّا صادِقين مُخلِصين.

يُوجَد فقط ثلاثُ طُرُق لِدَحض أيِّ بُرهان أو حُجَّة. وليس هذا أمرًا قابلًا للتَّفاوض، أو اصطِلاحيًّا، أو عُرضةً للتَّغيير؛ إنَّه ليس أُصولًا من وَضْع الإنسان لِلُعبةٍ من صُنع الإنسان. فهذا الوَضعُ مُتأصِّلٌ في بنية العقل بذاته. ولم يخترعْه أرسطو، بل أبدعَه الله.

للحُجَّة- أيَّةِ حُجَّة- ثلاثةُ مُقوِّمات، وأيُّ واحِدٍ من هذه المُقوِّمات الثلاثة يمكنُ أن يكونَ ناقصًا. ولكنْ لا يوجد سوى هذه الثلاثة. فالحُجَّة مُؤلَّفة من أخبار، أو تصريحات، أو جُمَل. وهذه تاليًا مؤلَّفة من مُصطلَحات (كلمات أو عِبارات). وتُبنى الحُجَّة بهذه الكُتَل البنائيَّة، مِثلَ البناء المادِّيِّ تمامًا. فإنَّ أخبارَها تُشبه الطَّوابِق، ومُصطلَحاتِها تُشبه الغُرَف. وكلُّ حُجَّةٍ هي بِناءٌ ذو ثلاثة طوابِق (إذا كان قياسًا منطقيًّا، وهو شَكلُ الحُجَّةِ الطبيعيُّ والأكثرُ مألوفيَّةً، والشَّكلُ الذي نجدُه في الجامعة). أمَّا أسماء الطَّوابِق فهي "مُقدَّمتان مَنطِقيَّتان" و"نتيجة" واحدة. والنتيجةُ تُماثِلُ الطَّابق الأعلى؛ إنَّها حيثُ **ينتهي** البناء. وفي كلِّ طابَقٍ غُرفتان، يقال لهما "مُصطلَح المُسنَد إليه" (الموضوع المحكوم عليه) و"مُصطلَح المُسنَد" (الحُكم). وهكذا، فإنَّ الحُجَّة المعروضة حسب القياس المنطقيِّ تبدو شبيهةً بما يلي.

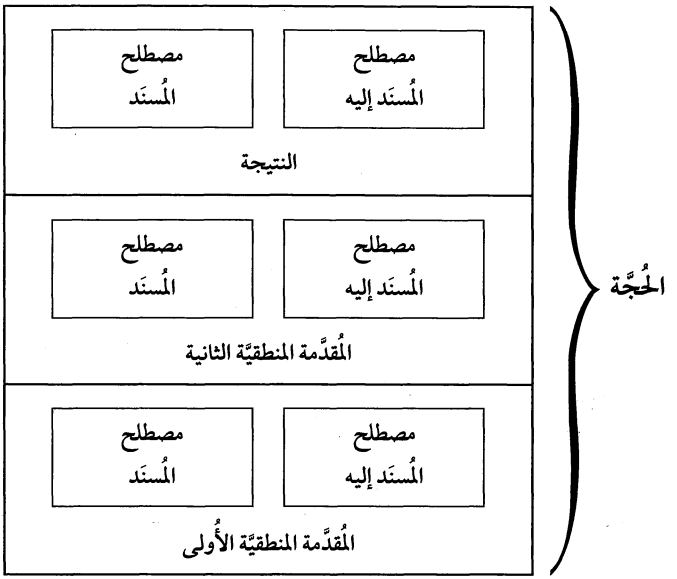

هناك ثلاثة أُمور يجب أن تكون صحيحةً في أيَّة حُجَّة:

١. المُصطلَحات يجب أن تكون غيرَ غامضة.
٢. المُقدَّمتان يجب أن تكونا صحيحتَين.
٣. الحُجَّة يجب أن تكون مَنطِقيَّة.

عليه، فهناك ثلاثةُ أُمور يمكنُ أن تُفسدَ في أيَّة حجَّة:

١. المصطلحات قد تكون غامضة.
٢. المقدَّمتان قد تكونان خاطئتَين.
٣. الحُجَّةُ قد تكون غيرَ منطقيَّة.

إنَّ الحُجَّةَ الأساسيَّة في سِفر الجامعة معروضةٌ على النَّحو التالي:

كلُّ "تعب" هو "تحت الشَّمس".
كلُّ ما "تحت الشمس" هو "باطل".
ولذلك، فكلُّ "تعب" هو "باطل".

فإذا شئنا أن ندحَضَ هذه الحُجَّة، يجب أن نَجِدَ فيها أمرًا ممَّا يلي:

١. مُصطَلحٌ غامض.
٢. مُقدَّمةٌ خاطئة.
٣. مُغالَطةٌ مَنطقيَّة.

ولكنْ ما من مُصطَلح يُستخدَمُ على نحوٍ غامض، وليس من مُغالَطةٍ مَنطقيَّة: فالنتيجة تترتَّب مَنطقيًّا على المُقدَّمتَين. إذًا، يجب أن نَجِدَ مقدَّمةً خاطئة.

في هذه الحُجَّة مُقدَّمتان فقط: أنَّ كلَّ تعب، كلَّ عمل بَشَريّ، هو تحتَ الشَّمس، وأنَّ كلَّ ما تحت الشَّمس هو باطل، للأسباب الخمسة المذكورة. حسنًا، هل مِن تعبٍ ليس تحت الشَّمس؟ هل من عملٍ بَشَريٍّ ليس محصورًا في هذه الأرض؟ ماذا نحن فاعِلون هنا؟ ألَسنا في صدد بناء **ملكوتٍ** أبديّ؟ ألَن يدومَ أيُّ شيء؟ كتبَ وِليَم بَتلَر ييتس (William Butler Yeats) عن فتاةٍ صغيرةٍ تُشاهِدُ الأمواجَ تُدمِّر قُصورًا من الرَّمل على أحد شواطئ نورماندیا، مُفكِّرةً في جميع المجتمعات المدَنيَّة العظيمة التي جاءت وذهبَت في ذلك المكان، وقالت بنبرةٍ مفجوعة: "ألَن يدومَ أيُّ شيء؟".

غيرَ أنَّنا نحن سنَدوم. فنحن نبني ذواتِنا حقًّا بكُلِّ خِيارٍ نتَّخذه، مِثلَ تماثيلَ تَنحَتُ شكلَها الخاصَّ بإزميلِ حرِّيَّة الإرادة. وهذه الذَّوات، النُّفوس، الشَّخصيَّات، محتومةُ المصير إلى الأبد. إنَّنا نحنُ **مَلَكوتُ السماء**. نحنُ الجوابُ لسُلَيمان. ولكنَّ هذا الجواب لم يأتِ واضحًا إلَّا بعد سُلَيمان بمئات السِّنين، من خلال المُفارَقة الخياليَّة القُصوى التي يدعوها كيركغارد "المفارَقة المطلَقة" (The Absolute Paradox)، تلك المُتمثِّلة في حَدَثِ دخول الأزَل إلى الزَّمن، عندما صارَ الله إنسانًا، مُشترِكًا في حياة الإنسان حتَّى يُتاح للإنسان أن يشترِكَ في حياة الله. إنَّ سفرَ الجامعة هو السؤالُ الذي جوابُه السيِّد المسيح.

ثُمَّ المُقدِّمة المنطِقيَّة الثانية... لقد جرَّبَ سُلَيمان اختباراتِ الحياةِ الخمسةَ الأكثرَ مُمارَسَةً لدى عامَّة الناس، ولكنْ أليسَ من شيءٍ لم يجرِّبه؟ أهُنالِك أيُّ شيءٍ آخر تحت الشمس، أيُّ شيءٍ ليس باطلًا؟ إنَّ السِّفرَ التالِيَ في الكتاب المُقدَّس، وهو أيضًا يحمل اسمَ سُلَيمان، يُعطينا الجواب. لقد جرَّب سُلَيمان اللَّذَّة، وتِسعَ مئة زوجة، إنَّما ليس الحُبّ. ففي نشيد الأنشاد، يحبُّ سُلَيمان امرأةً واحدةً فقط. وفي وُسع الواحدة أن تُعطيَ ما ليس في وُسع الكثيرات أن يُعطينَه: معنًى أكبرَ من بُطلان الحياة. فالمحبَّة، الحبُّ الحقيقيُّ، أغابي (Agape)، الغَيريَّة، بَذلُ الذَّاتِ الكلِّيُّ، هو في هذه الحياة تحتَ الشَّمس الشيءُ الوحيد الذي هو "أقوى من الموت"، والذي له رائحةُ الأبديَّة، والذي وحدَه لن يصيرَ مُملًّا أبدًا، والذي لن يُستَنفَدَ البتَّة، والذي يصيرُ أكثرَ- لا أقلَّ- إشباعًا كُلَّما مُورِسَ أكثر. فالمحبَّة لامُتناهية. لأنَّ الله محبَّة. والمحبَّة أيضًا هي حِكمةٌ حقيقيَّة. ويقول الجُهَّال إنَّ الحُبَّ

أعمى. ولكنَّ الله محبَّة؛ فهلِ الله أعمى؟ يجبُ أن يذهَبَ واحِدٌ من هذه الأخبار الثلاثة. ففي الجامعة، ليس الله محبَّة. وفي نشيد الأنشاد، ليس الحبُّ أعمى.

جوابٌ إضافيٌّ للجامعة:
التدخُّل الإلهيُّ

إنَّ أبرزَ سببٍ يتعذَّرُ استئصالُه يُقدِّمه سُلَيمان لإثبات البُطلان هو طبيعةُ الوقتِ الجوهريَّةُ باعتِباره دَوريًّا. والأفعالُ الإلهيَّة العُظمى الأربعةُ المُعلَنةُ في الكتاب المقدَّس كلُّها تقطَعُ الدَّورةَ وتُدخِلُ شيئًا جديدًا على نحوٍ جذريّ، شيئًا من الخارج، من خارج الوقتِ بعَينه، شيئًا من الأبديَّة، لا من الماضي، ومن ثَمَّ شيئًا جديدًا بشكلٍ جذريّ: الخَلْقُ، التجسُّد، القيامة، الدَّينونةُ الأخيرة. فهَهُنا شيءٌ جديد تحتَ الشمس لأنَّه يأتي ممَّا وراءَ الشمس. هُنا المعنى والرَّجاء، وإنْ كان الرُّعبُ أيضًا. هُنا السُّموُّ الحقيقيّ.

الملحَق

يعتقدُ مُعظَم العُلَماء أنَّ آخِرَ سِتِّ آياتٍ من الجامعة خطَّها كاتِبٌ آخر، إذ ينتهي السِّفرُ أصلًا بالآية الثامنة من الأصحاح الثاني عشر: تمامًا حيثُ ابتدأ، بالقول "باطِلُ الأباطيل... الكلُّ باطل". فالكاتب الثاني يُضيفُ الجوابَ القويمَ عن سؤال سُلَيمان، الجوابَ الذي يُقدِّمه باقي كِتاب العهد القديم، وذلك في الآيَتَين الأخيرتَين: "فلنسمَعْ ختامَ

الأمرِ كُلِّه: اِتَّقِ الله واحفَظْ وصاياه، لأنَّ هذا هو الإنسان كلُّه؛ لأنَّ الله يُحضِرُ كلَّ عملٍ إلى الدَّينونة، على كلِّ خفيّ، إنْ كان خيرًا أو شرًّا" (جامعة ١٢: ١٣ و١٤).

إنَّ أسفار العهد القديم الثمانية والثلاثين الأُخرى مُلخَّصةٌ في هاتَين الآيتَين الأخيرتَين. فهَهُنا حقًّا معنى الحياة وغايتُها؛ لأنَّ تقوى (مخافةَ) الرَّبِّ هي بَدءُ الحِكمة، ولكنَّها ليست النِّهاية.

"مخافةُ الرَّبّ: تلك هي بداية الحِكمة، ولذلك فهي تنتمي إلى البداءات، وقد شعرَ بها الإنسان في الساعات الباردة الأُولى قبل فجر المدَنيَّة: القُوَّةُ التي تنطلقُ من البرِّيَّة وتمتَطي الزَّوبعة وتُحطِّم اَلِهَةَ الحجر؛ القوَّةُ التي تسجدُ الشُّعوبُ الشرقيَّة أمامَها مُنطرحةً كسَطحٍ مَرصوف؛ القوَّةُ التي قُدَّامها يجري الأنبياء البَدائيُّون عُراةً وصائحين، مُعلِنينَ إلهَهُم وهاربين منه في وقتٍ واحد؛ ذلك الخوفُ المُتأصِّلُ بحَقٍّ في بداءات كلِّ دين، صحيحٍ أو زائف؛ مخافةُ الربِّ، تلك بَداءة الحِكمة، ولكنَّها ليستِ النهاية" - جي. كاي. تشسترتون، "**الإنسانُ الأبديّ**" *(The Everlasting Man)*.

خاتمة

الجامعة كِتابُ حياةٍ مشرقٌ. وهو مشرقٌ تمامًا بظُلمتهِ الباهرة. إنَّه كِتابُ حياة، تحديدًا لأنَّه يُواجِهُ حقيقةَ الموت بصدقٍ وتجرُّد. إنَّه كتابٌ عظيمٌ

عظيم؛ لأنَّه يستكشفُ بعُمقٍ وعدمِ مُهاوَدة سؤالًا عظيمًا عظيمًا: **لماذا** حياتُنا هنا تحت الشَّمس؟

ذلك هو أعظمُ سؤالٍ في العالَم. والكِتابُ الوحيد الأعظَمُ من هذا لا بدَّ أن يكون كتابًا يقدِّم أعظمَ جوابٍ في العالَم- كتابًا مِثلَ السِّفرِ التالي في الكتاب المقدَّس، أي نشيد الأنشاد. فالفَيلسوف يطرح السؤال، ولكنَّ المحِبَّ يُجيب عنه. إنَّ الرأسَ يُعَلِّل، ولكنَّ القلبَ يُهلِّل.

ففي نشيد الأنشاد، تُرى الحياةُ كما لو كانت أُغنية حُبٍّ، أو نشيدَ محبَّة. إنَّ حَيَواتِنا (جمع حياة) هي نَغَماتٌ في منظومةٍ مُوسيقيَّة عظيمة، تَناغُم كَونيّ، "موسيقى كواكِبيَّة"، وبيتُ القصيد في هذا النشيد هو المحبَّةُ لأنَّ مُنشِدَ النشيدِ هوَ الله؛ والله محبَّة. أمَّا قِصَّتُه، فهيَ قِصَّتُنا، تاريخُنا. غير أنَّ تِلكَ قِصَّةٌ أُخرى. والطريق المفضيَةُ إليها تمرُّ عبرَ **أيُّوب**.

أيُّوب

الحياةُ مُعاناة

من المُعترَف به عمومًا أنَّ سِفرَ أيُّوب هو واحِدٌ من أعظَمِ الكُتُب التي كُتِبت على مرِّ الأزمنة: رائعةٌ من الروائع، عملٌ كلاسيكيٌّ خالد. فلِلقارئ الرَّقيق الشُّعور، هو سِحرٌ حقيقيّ. إنَّه مُروِّع وجميل، مُروِّعٌ على نحو جميل، وجميلٌ على نحو رائع. إنَّه خلَّاب، مُقلِقٌ، غامِضٌ غُموضًا مُعَذِّبًا، رقيق، لكنْ قويٌّ كنهرٍ جارف. وقد يكونُ استِحواذيًّا مِثلَما يمكنُ لكُتُبٍ قليلةٍ أن تكونَ.

فعلى الرُّغم من كَون هذا السِّفر غامضًا بلا حدود، يبقى بسيطًا وواضِحًا من حيثُ "الدَّرسُ" الأساسيُّ فيه، والذي يَطفو فوقًا على السَّطح في كلماتِ الله لأيُّوب في الأصحاحات الأخيرة. وما لم تكُنِ الحاخامَ كوشنَرَ (Kushner)[٧] الذي ينجحُ على نحوٍ لا يُصدَّق في إخطاء المرمى الذي لا يُمكِن إخطاؤه، فلا يُعقَل أن تفوتك رِسالةُ السِّفر. فإذا كان سِفرُ أيُّوب عن مُشكِلة الشَّرّ، فإنَّ جوابَ أيُّوب إذ ذاك عن هذه المُشكِلَة هو أنَّنا **لا نعرف** الجواب. إنَّنا لا نعرفُ ما يُحاوِلُ الفلاسفة، من أفلاطون إلى كوشنَر، وعلى نَحوٍ مُفيدٍ لكنْ شِبهِ مُستحيل، أن يُعلِّمونا إيَّاه: "لماذا تحدُثُ الأُمور الرديئة لأشخاص صالحين" فأيُّوب لا يفهمُ هذه الحقيقةَ في الحياة، ونحنُ أيضًا لا نفهمُها. فنحن "نتماهى أو نتوحَّد" مع أيُّوب لا في معرفته، بل في جهلِه.

إنَّ سفرَ أيُّوب هو معضلة تُجيبُ عن معضلة أُخرى. والمعضلة التي يُجيبُ عنها هي مُشكِلةُ الحياةِ الأعمق: مُشكِلَةُ الشَّرّ، و مُشكِلَةُ الألَم، و مُشكِلَةُ الظُّلم، في عالَمٍ يُفترَض أنَّ إلهًا عادِلًا يحكمه. لكنَّ هذا الإله

(٧) للاطِّلاع على بعض أفكار كوشنَر في هذا الشأن، يُرجى قراءة الصفحتَين ٩٨، ٩٩ من هذا الكتاب (الناشر).

ليس معادلةً محدَّدةً واضحةً صغيرة، بل لُغز. إنَّه ذاكَ الإله الذي قال عنه الحاخام إبراهيم هَشِل (Abraham Heschel): "ليس الله لطيفًا ظَريفًا. ليس الله بِعَمٍّ أو خال. إنَّ الله زِلزال". فقد يروقُنا أو لا يروقُنا الإله الذي هو زلزال، لا عَمٌّ، ولكنَّ ما يُعجِبنا وما لا يُعجِبنا لا يُغيِّران الواقعَ الحقيقيّ. وإذا لم نستطع أن نتقبَّل إلهَ أيُّوبَ (وباقي الكتاب المُقدَّس)، فهذا شأننا ومشكلتنا نحن، لا الله! إنَّنا لا نجعل الكونَ يحبسُ أنفاسَه بحَبسِنا أنفاسَنا.

سِفرُ أيُّوب لُغز. واللُّغز يُشبعُ فينا شيئًا ما، إنَّما ليس عقولَنا. فالعقلانيُّ فينا يُنفِّرُه أيُّوب، كما نفَّر أيُّوبُ أصدقاءَه العقلانيِّين الثلاثة. ولكنَّ شيئًا أعمقَ فينا يُشبِعُه أيُّوب شِبَعًا بالغًا، ويُغذِّيه. فليس أيُّوبُ مِثلَ الكونسوميه (Consommé)، مَرَقِ اللحم الشفَّاف الخفيف، بل مِثلُ المنيستروني (Minstrone)، الحَساء الداكن الكثيف. إنَّه يلتصقُ بأضلاعك. وعندما نقرأ أيُّوب، نكون مثل ولَد صغير يأكل حصَّته من السَّبانخ. "افتَح فمَك وأغمِض عينَيك!" فأيُّوب، مِثلَ السَّبانخ، ليس حُلوَ المذاق. غير أنَّه يُدخِلُ الحديدَ إلى دَمِك.

إنَّ قوَّةَ أيُّوب تُماثِلُ قوَّةَ اللُّغةِ العبريَّة نفسها. وقد وصف ماكس بِكارد (Max Picard) هذه اللُّغَة في "**عالَمُ الصمت**" *(The World of Silence)* بأنَّها محدودةٌ جدًّا، ولكنَّها مُركَّزةُ القوَّة (كحُزمةٍ من أشِعَّة لَيزر)، في وُسعها أن تقولَ أشياءَ قليلةً فقط، ولكنْ هذه الأشياء القليلة التي تقولُها إنَّما تقولها ببوق. فكلماتُها أشبهُ بأعمدةٍ ضخمة تُغرَز في الأرض واحدًا فواحدًا. إنَّ الكلماتِ كلماتٌ عموديَّة؛ فهي تَصِلُ السَّماءَ بالأرض، كما كان **لكَلِمةِ الله** الوحيدُ، يسوعُ المسيح، أن يفعل بعدَ أيُّوب بقُرون. فالعِبريَّة هي لُغَةُ التجسُّد.

إنَّنا نملك في سفر أيُّوب إحساسًا مماثلًا بالمعموديَّة، كما لو كُتِبَ في السماء.

ما كنتُ لأفهم أيُّوبَ قطعًا لولا مُساعَدةُ كاتِبيَن عظيمَين جدًّا: جاي. آر. آر. تولكين (J. R. R. Tolkien) ومارتن بُوبَر (Martin Buber). دون شكّ، ما زلتُ لا أفهمُه، ولكنّي الآن أستطيعُ على الأقلِّ أن أقِفَ أمامَه غيرَ مُتوهِّمٍ أنّي أقِفُ أمامَ شيءٍ سواه أحسَبُه إيَّاه، مُتجنِّبًا إساءةَ الفهم. إنَّ تولكين هو مَن ترجمَ أيُّوبَ ضِمنَ **جيروزَلم بايبل** (Jerusalem Bible)؛ وبُوبَر هو مَن زوَّدني اقتراحُه الفريدُ بمِفتاحٍ لفَتْح باب أيُّوب المغلَق، والأشدِّ غموضًا. فلأُفسِّرْ بإيجازٍ كُلًّا من هذين الإسهامَين.

سبق لي مرَّةً واحدة فقط أن لاقيتُ ترجمةً أحدثَت لَدَيَّ فرقًا بالغًا وفتحَت لي كتابًا كان مُغلَقًا من قَبل. كان تلك هي ترجمة فرانك شِيد (Frank Sheed) لكتاب "**اعترافات**" أُوغسطينوس، وقد وجدتُها حيَّةً كالحُمَم المصهورة. أمَّا التَّرجمة الأكثرُ تَداوُلًا، فكانت ترجمةً ميِّتة حقًّا. وعندما قرأتُ أيُّوب في ترجمةِ **جيروزَلم بايبل**، لم أكُن أعلم أنَّ تُولكين هو مُترجِمُه. ثُمَّ بعدَ اختباري الرائع رؤيةَ السِّفر ينفتحُ وينبعث أمامي حيًّا من على الصفحات، تبيَّن لي لاحِقًا أنَّ "فتَّاحة العُلَب" كان تُولكين الذي طالما اعتقدتُ دائمًا أنَّه واحِدٌ من أعظم الروائيِّين المَلحميِّين على مرِّ العصور. وبالتَّأكيد لا شيءٌ منذ "**الكوميديا الإلهيَّة**" لدانته يمكن أن يُضاهيَ "**سيِّد الخواتم**" (*The Lord of the Rings*)، ما عدا "**الفِردَوس المفقود**" (*Paradise Lost*). وإلى جانب "**الإنياذة**" (*The Aeneid*) و"**الإلياذة**" (*The Iliad*) و"**الأُوذيسَّة**" (*The Odyssey*)، تُشكِّل هذه الأعمالُ الستَّة طبقةً ملحميَّة خاصَّة بها.

إنَّما ينبغي لي أن أشكُر مارتن بُوبَر أكثرَ بَعدُ على وَضعهِ في يدي المِفتاحَ الذهبيَّ الذي فتحَ لي البابَ المركزيّ، بيتَ القصيد في السِّفر، الحلَّ الجوهريَّ للمعضلة الجوهريَّة. بل ما هو أكثرُ من ذلك بَعدُ أنَّ هذا المِفتاح كشفَ لي واحدًا من أعمق أسرار اللَّاهوت، اللَّاهوتِ المسيحيِّ بقَدْر اللَّاهوت اليهوديِّ الخاصِّ بِبُوبَر بل أفضلَ من هذا أيضًا، وذلك بإلقائه الضَّوءَ الكاشف على أُحجيَّةِ **كُوان**[٨] (Koan) المُتمثِّلة في اسم الله الخاصِّ "يهوه" الذي أعلنَه بذاته، في إعلانِ الذات المُقدَّس، القِمَّةِ القُصوى التي يتعذَّر أن يبلغَها الفِكرُ البَشَريُّ، كشفِ طبيعة الحقيقة القُصوى، طبيعةِ الله الجوهريَّة كما هو في ذاته، لا في علاقته بنا فقط. وهذا كلُّه تمَّ بطريقةٍ بسيطةٍ على نحوٍ غير متوقَّع، غيرِ مُعقَّدة على نحوٍ مُفاجئ. فمِفتاحُ سِفر أيُّوب مَوجودٌ في خروج ٣: ١٤.

غير أنِّي أسيرُ بسُرعةٍ فائقة. فلن أتكلَّم أكثرَ عن هذا الحلِّ الآن، لأنَّ أيَّ حلٍّ يكونُ عديمَ المعنى دون تقديرٍ للمَسألة. وأرجو أن أكونَ قد أثَرْتُ شهيَّتك بوَعدِ وليمةٍ روحيَّة من إعدادِ خبير، وبتحليةٍ مُناسِبة. إنَّما يجبُ الآن أن نبدأ من البداية، من المُشكِلات المهولة المُقلِقة والتي يُثيرُها هذا السِّفر. لا أعني المُشكِلات التي يُثيرها العُلَماء **بشأن** هذا السِّفر (مثلًا: مَن كتبَه، ولماذا، ومتى، وأين، وهكذا دَوالَيك)، بل ما يُثيرُه **هذا** السِّفر من مُشكلاتٍ تتعلَّق بالحياة، أي بنا نحن شخصيًّا. فما تلك المُشكِلات؟

إنَّ سِفر أيُّوب يُشبهُ بَصَلة، أو تشكليةً من الصناديق المُتداخِلَة، أو رِزمةً

(٨) مصطلح في بوذيَّة زن (Zen Buddhism)، ويُشيرُ إلى يقظةٍ روحيَّة (الناشر).

ملفوفةً بعدَّة طبقات. فإذا قشَّرتَ الخارج، تجد في الداخل أكثرُ فأكثر. وهو في الداخل أكبرُ منه في الخارج، مثلَ كائن بَشَريّ، ومِثلَ إسطبلِ بيتَ لحم، ومِثلَ رَحِمِ مَريَمَ المطوَّبة المُبارَكة. يقينًا أنَّ هنالك عدَّة مُشكلاتٍ ومُستَوياتِ مُشكِلات أكثرَ من الأربع التي أراها وأذكرُها هنا، ولكنَّ هذه الأربع على الأقلِّ ماثلةٌ هُناك، وهي مُجرَّدُ مُنطلَقٍ، تشغيلٍ لِمَضَخَّتك، بحيثُ يتسنَّى لك- أنتَ القارئَ الحُرَّ والمستقِلَّ- أن تعثُرَ بنفسك على المزيد.

١. "مشكلةُ الشَّرّ"

لا شكَّ أنَّ هذه هي **المشكلة**، مشكلةُ المشكلات. وعلى النَّحو الأعَمّ، هي مشكلةُ وُجود الشَّرِّ أصلًا، ولا سيَّما في كَونٍ خلقَه ويديرُه ويُدبِّره إلهٌ كُلِّيُّ الصَّلاح وكلِّيُّ القُدرة. ويصوغُ توما الأكوينيُّ المشكلَة على نحوٍ غاية في الإحكام في "**الخُلاصة اللَّاهوتيَّة**": "إذا كان أحَدُ نقيضَين لامُتناهِيًا، فالآخَر يُزال كُلِّيًّا. غير أنَّ الله هو صلاحٌ لامُتناهٍ. وهكذا، فإذا كان الله مَوجودًا، فإنَّ الشَّرَّ يُزال كُلِّيًّا. ولكنَّ الشَّرَّ موجود. إذًا، الله غيرُ موجود"، (الخُلاصة ١، ٢، ٣، الموضوع ١). أمَّا نُسخة أُوغسطينوس فهي أطولُ قليلًا وأصرَحُ قليلًا: "إذا كان الله كُلِّيَّ الصلاح، فإنَّه لن يُريدَ إلَّا الخَير؛ وإذا كان كلِّيَّ القُدرة، فإنَّه يكون قادرًا أن يفعلَ كلَّ ما يُريدُه. ولكنَّ الشَّرَّ مَوجود [كما الخير أيضًا]. ولذلك، فالله إمَّا ليس كُلِّيَّ الصَّلاح، وإمَّا ليس كُلِّيَّ القُدرة، وإمَّا ليس الأمرَينِ كِلَيهما". وإليك تصييغًا ثالثًا للمُشكلة، عمليًّا أكثرَ منه نظريًّا: كيفَ يُعقَل أنَّ الله- الإلهَ الكُلِّيَّ الصلاح والكلِّيَّ القدرة- يسمَحُ بأن تحدُثَ الأُمورُ الرديئة لأُناسٍ صالحين؟ هذه الصِّيغة أقربُ إلى

شكوى أيُّوب. فالمشكلةُ الضاغطةُ ليست مُجرَّدَ وجودِ الشَّرِّ فحسْب، أيِّ شرٍّ على الإطلاق، بل هي وجودُ الشَّرِّ واختبارُه الشخصيَّان، شرُّ اللَّاعدل تحديدًا. إنَّ عِقابَ الجريمة المُستَحقَّ هو شرٌّ بمعنًى ما؛ لأنَّ العِقابَ يجب أن يؤذي، ولكنَّه بمعنًى آخَر ليس شرًّا أبدًا بل خير: إنَّه عَدل. إلَّا أنَّ أيُّوب ليس مُختبرًا العَدلَ بلِ اللَّاعدلَ. إنَّ أُمورًا رديئة- أُمورًا رديئةً جدًّا جدًّا- حادِثةٌ له، وهو من "الناس الصالحين"، وبالحقيقة "الناس الصالحين" جدًّا جدًّا، حسبَما يقولُ كاتِبُ السِّفر (أيُّوب ١: ١)، بل بصورةٍ أكثرَ مَوثوقيَّةً بَعدُ: حسبَما يقول مُبدِعُ كِيانِ أيُّوب بذاته، اللهُ نفسُه (أيُّوب ١: ٨).

هنالك فقط أربعةُ أجوِبَةٍ ممكنة لهذه المُشكِلة. أوَّلًا، الجوابُ البديهيُّ (لكنِ الخاطئ) عندَ شخصٍ يؤمنُ بإله الكتاب المُقدَّس، الإله الذي هو كُلِّيُّ الصلاح وكلِّيُّ القدرة معًا، ألا وهو أنَّ أيُّوب ليس من "الناس الصالحين". هذا هو جوابُ أصدقاء أيُّوب الثلاثة، وهو مَنطِقيٌّ على نحوٍ هائل. وقد كان على كاتب السِّفر أن يُعرِّجَ قليلًا لكي يقولَ للقارئ في البداية تمامًا إنَّ أيُّوب كان رجُلًا كاملًا ومستَقيمًا، يتَّقي الله ويحيد عن الشَّرّ"، ولكي يؤكِّدَ هذه الحقيقة بفمِ الله نفسِه (أيُّوب ١: ٨)، وإلَّا كان من شأننا، على غِرار أصدقاء أيُّوب الثلاثة، أن نختارَ هذا الحلَّ حَتمًا. فإنَّ المُفارقةَ الصادمة بين المَظهَر والحقيقة، بين ما يبدو أنَّه الحلُّ الصحيح بصورةٍ بديهيَّة وما هو الحلُّ الحقيقيُّ، الأكثرُ بما لا يُقاسُ صُعوبةً وغُموضًا وإدهاشًا، هي واحدةٌ من فوائد السِّفر الدراماتيكيَّة الرئيسيَّة. وعلينا ألَّا ننظُرَ إلى أصدقاءِ أيُّوبَ الثلاثةِ كما لو كانوا جُهَّالًا؛ لأنَّهم ليسوا كذلك، ولأنَّنا عندئذٍ نُقصِّرُ عن إدراكِ الدَّراما العظيمة والسُّخريَة والتَّباين بين

المظهر والحقيقة. فعَلينا أن نتَعاطَفَ مع الأصدقاء الثلاثة لكي يصدمَنا الله كما صدمَهم. وبمعنًى ما، هذا هو السببُ الرئيس لكتابة السِّفر: أن يصدمَ السِّفرُ القارئَ بالله، الإلهِ الحقيقيِّ، "ربِّ مُنافاةِ العقل" - باستخدامِ عُنوان الأب رايمُند نوُغار (Raymond Nogar)- مُتميِّزًا عن إلهِ توقُّعاتنا وتصنيفاتِنا المريح والملائم. فلو أنَّ الله ذاتَه، المُصَمِّمَ الكُلِّيَّ الحكمة لكامل القِصَّة التي نحنُ فيها، **لم** يكُن "ربَّ مُنافاة العقل" هذا الصَّادِمَ والمفاجئ، بل كان خاضِعًا للمَنطِق البشريِّ وقابلًا للتَّكهُّن ومُريحًا وملائمًا، إذًا لَمَا كانت الحياةُ لُغزًا يُعاش بل مشكلةً ينبغي حلُّها، لا قِصَّةَ حُبٍّ بل قِصَّةً بوليسيَّة، لا دراما تراجيديَّة كوميديَّة بل صيغةً حسابيَّة. فإنَّ التراجيديا والكوميديا هما شكلا الأُحجيَّة الأوَّليَّان؛ وإذا علَّمنا أيُّوبُ شيئًا، فهو أنَّنا نعيشُ في أُحجيَّة.

وهكذا، فإنَّ أوَّلَ جوابٍ للمُشكِلة، جوابَ أصدقاء أيُّوب الثلاثة، ألا وهو أنَّ أيُّوب **ليس** من "الناس الصالحين"، لا بُدَّ أن يُرفَض لهذه الأسباب: (١) لأنَّه ليس جوابَ كاتب سفر أيُّوب كما هو جليٌّ؛ (٢) لأنَّ الله نفسَه يدحضُ هذا الجواب، سواءٌ في بداية السِّفر عندما يُكلِّم الشيطانَ عن فضائل أيُّوب أم في النهاية عندما يمتدح أيُّوبَ ويؤنِّب أصدقاءَه الثلاثة؛ (٣) لأنَّ من شأن هذا الجواب أن يُقلِّصَ لُغزَ الحياةِ الأساسيَّ إلى مشكلة. إذًا، ينبغي لنا أن نتوجَّه إلى جوابٍ ثانٍ ممكن.

لعلَّ الله غيرُ صالح. هذا هو الجواب الذي يعبثُ به أيُّوب على نحوٍ خَطِرٍ عندما يحلُم بأن يجرَّ الله إلى المحكمةَ ويفوزَ في دعواه، إنْ وُجِدَ فقط قاضٍ نزيهٌ وعادلٌ يفصلُ بينه وبين الله، إلَّا أنَّه يتفجَّع لعَدَم وجود قاضٍ كهذا ولحِيازة الله كامِلَ السُّلطان بجانبه، ولكنْ بمعزِلٍ عن العدل. وبعبارة

أُخرى، إنَّ الله غيرُ صالح، ولكنَّه قادِر. وهكذا، فإنَّ الصَّلاح (العدل) والقُدرة مُنفصِلان تمامًا، وليسا واحِدًا. وهذه فلسفةٌ رهيبة، رهيبةٌ على نحوٍ لا يوصَف، ولا يُنقِذُ أيُّوبَ منها إلَّا صِدقُه وشكوكيَّتُه بشأن براءته الشخصيَّة:

"كم بالأقلِّ أنا أُجاوِبُه وأختارُ كلامي معه؟
لأنَّني، وإن تبرَّرتُ، لا أُجاوب، بل أسترحِمُ ديَّاني.
لو دعوتُ فاستَجابَ لي، لَمَا آمنتُ بأنَّه سمع صوتي.
ذاك الذي يسحَقُني بالعاصفة، ويُكثِرُ جروحي بلا سبب،
لا يدعُني آخُذُ نفَسي، ولكنْ يُشبِعُني مرائر.
إن كان من جهة قوَّة القويّ، يقول: هَأنذا!
وإنْ كان من جهة القضاء، يقول: من يُحاكِمُني؟
إن تبرَّرتُ يحكمُ عليَّ فمي، وإن كنتُ كاملًا يستَذنِبُني.
كامِلٌ أنا؟ لا أُبالي بنفسي، رذلتُ حياتي.
هي واحدة. لذلك قلت: إنَّ الكاملَ والشرِّيرَ هو يُفنيهما.
إذا قتلَ السَّوطُ بَغتةً، يَستهزئ بتَجرِبة الأبرياء...
لأنَّه ليس هو إنسانًا مثلي فأُجاوبَه، فنأتيَ جميعًا إلى المُحاكمة.
ليس بينَنا مُصالحٌ يضعُ يدَه على كِلَينا" (أيُّوب ٩: ١٤-٢٣، ٣٢ و٣٣).

إنَّ قيامة السيِّد المسيح تملأُ المسيحيَّ بفَرَح كَونيٍّ، لأنَّها على نحوٍ حاسِم وملموس تدحَضُ الفلسفةَ الرهيبةَ القائلةَ إنَّ الصَّلاحَ والقُدرةَ مُنفصِلانِ تمامًا. فإنَّ الصلاحَ مُتجسِّدًا، الإنسانَ الصالح كلِّيًّا الوحيدَ

الذي عاشَ على الإطلاق، الكائنَ الوحيد الصالح صلاحًا مُطلَقًا والذي ظهرَ للعيون البشريَّة مرَّةً، انتَصرَ على الموتِ، القوَّةِ الشرِّيرة الهائلة التي لا يستطيعُ أيُّ إنسانٍ أن يقهرَها، "آخِرِ عدوٍّ".

والنتائجُ السيكولوجيَّة للإيمان بالقيامة مُتأصِّلةٌ تمامًا في الوعي المسيحيِّ، بحيثُ لا نُدرك عادةً الهُوَّةَ الفاصِلة ما بين "نعم" و"لا" هُنا، ما بين الإيمان والكُفر. فحاولْ أن تتصوَّر الأمر: ذاتَ يومٍ تُدرِكُ أنَّ الله لا يُبالي، أنَّ القوَّةَ القادرةَ على كلِّ شيء لا تُبالي بالخير والشَّرّ، أنَّ قِصَّة الكَون وقِصَّة حياتك يحكيهما هُراءٌ هَباءٌ خَواءٌ، لا **شخصٌ** مُحِبّ. ذلك هو الهَولُ الهائلُ الذي يلوحُ في أُفق أيُّوب هنا.

ثُمَّ إنَّ إنكارَ القيامة، أو اقترانَ الصَّلاحِ المُطلَق بالقُدرة المُطلَقة، قد يتَّخذُ شكلًا آخر، وهذا جوابٌ ثالثٌ عن مشكلة الشَّرّ: بدلًا من إنكار صلاح الله، يمكن أن ننكرَ قُدرة الله. فتَصوَّر اكتِشافَ رُفاتِ يسوع المَيْت في قبرٍ بمدينة القُدس. إنَّ النتيجةَ المنطقيَّةَ هي واحدةٌ في كِلتا الحالتَين- حيثُ ظاهرةُ الشَّرِّ "تُفسَّر" - ولكنَّ النتائجَ السيكولوجيَّة مُختلفة. فإنْ كان الإله الذي نعبَدُه قُدرةً ولكنْ ليس صلاحًا، فإنَّ الصلاحَ تتدنَّى رتبتُه والقُدرةَ تُمَجَّد في الحقيقة الموضوعيَّة، ومن ثَمَّ في حياتنا أيضًا، إذا كُنَّا عاقِلين كفايةً بحيث نُكيِّفُ حياتَنا وَفقًا للحَقيقة الموضوعيَّة. عندئذٍ نبدأُ نتعبَّد للقُدرة، ونُقلِّص الصلاحَ إلى أمرٍ ثانويّ، إلى وسيلةٍ من أجل تحقيق النُّفوذ أو النَّجاح. وهكذا يُفصَل الدِّين عن النِّظام الأخلاقيّ. أمَّا، على النقيض، إذا كان الإله الذي نتعبَّد له هو الصلاح ولكن ليس القُدرة، فإنَّنا ما نزال نضَعُ الصَّلاح والأخلاق في أعلى مستوى، باعتبارهما من المُطلَقات، غيرَ

أنَّنا لا نستطيع أن نتيقَّن أو نتوقَّع انتِصارَ الخير. إنَّنا نقف بجانب الله، ولكنَّنا لسنا على ثِقَةٍ بأنَّنا في الجانب الفائز. فنحن صالحون، ولكنْ غيرُ واثقين. وإذا قَبِلنا الحلَّ الثاني، تأكيدَ قُدرة الله دُونَ صلاحه، نكونُ واثقين، ولكنْ ليس صالحين. أمَّا إذا قَبِلنا الحلَّ الثالث، تأكيدَ صلاح الله دون قُدرته، فنكونُ صالحين، ولكنْ ليس واثِقين.

إنَّ الحلَّ الثالث، إنكارَ قُدرةِ الله على كلِّ شيء، هو حلٌّ شائعٌ جدًّا بين الناس، كما كان في الأزمِنة الوثنيَّة. والنُّسخة الوثنيَّة له كانت تعدُّدَ الآلِهة، قِسمةَ الله إلى أُلَيهاتٍ صغار، ليس لواحِدٍ منها قُدرةٌ كُلِّيَّة. أمَّا النُّسخة العصريَّة له فهي تقليصُ الله إلى الطَّبيعة أو الزَّمَن (الصَّيرورة). فإنَّ "لاهوت الصَّيرورة" (Process Theology)[٩] هو شكلُ هذه البِدعة الحديثُ الطِّراز اليوم. ذلك أنَّ الحاخام كوُشنَر والدكتور نيكولاس وُلترزدورْف (Dr. Nicholas Woltersdorff) كِلَيهما كَتَبا مؤخَّرًا كُتُبًا رائجةً جدًّا تقترحُ هذا الحلَّ لسببٍ واحِد بعَينه، حيثُ كان على كِلَيهما أن يُعيدَ التفكيرَ في مُعتقدِه في ضَوءِ مَوتِ ابنٍ عزيزٍ مُراهِق بصورةٍ مأساويَّة. فقد كان على كِلَيهما أن يتشبَّثَ بمحبَّة الله، بالله على أنَّه جديرٌ بأن يُحَبَّ، به على أنَّه صالح. واستنتجَ كلاهُما أنَّ الله لم يكُن مُسيطرًا كُلِّيًّا على الأشياء، وأنَّ الله ما يزال ينمو وربَّما سيَظلُّ ينمو ويتعلَّم دائمًا، وأنَّ الله خاضعٌ للنَّواميس الطبيعيَّة. وهذا يعني أنَّ شخصَ الله المُحَبَّ والمُحِبَّ ليس هو الحقيقةَ المُطلَقة، بل إنَّ الضَّرورة اللَّاشخصيَّة أو نواميس الطبيعة هي المُطلَقة. إنَّها فوقَ الله نفسه. إنَّما هذا "الحلُّ" ينتزع منَّا العطيَّة الثمينة: عطيَّةَ الثِّقة

(٩) مدرسة لاهوتيَّة متأثِّرةٌ بالميتافيزيقيَّة تدَّعي أنَّ الله دائم التطوُّر، وهو يخضع لنواميس الطبيعة (الناشر).

واليقين. فليس في وُسعنا بَعدُ أن نكونَ أولادًا صغارًا، كما يوصي السيِّد المسيح، وندعوَ الله "أبَا" (بابا)، مُتمتِّعين بالأمان التامِّ على ذراعَيه. وعلينا أن نُدبِّرَ أنفُسَنا بأنفُسِنا. فإنَّ الله يُقلَّصُ من **أبٍ** قادر على كلِّ شيء إلى **أخٍ كبير**. إنَّه قادِر، ولكنَّه ليس كُلِّيَّ القدرة.

غير أنَّ أيُّوب لا يعبثُ أبدًا بهذا الحلّ. فمِثلَ مُعظَم الناس، يُحاجُّ ضمنيًّا بأنَّه إذا كان هُنالك أصلًا إلهٌ جديرٌ باسمِه، فلا بُدَّ أن يكون كُلِّيَّ القُدرة. وإنْ كان قد خلقَ الكَون فلا بُدَّ أنَّه كُلِّيُّ القدرة، لأنَّ خَلْقَ كلِّ شيءٍ من العَدَم يقتَضي قُدرةً لامُتناهية. واللُّغَةُ العاديَّة تتَّفِق مع أيُّوب؛ فالصِّفة التي نقرنُها تلقائيًّا باسمِ "الله" هي **القدير** (أي القادر على كلِّ شيء)، كما لو كانت مُتمِّمةً لاسْمِ الله الأساسيّ. وفي الكتاب المُقدَّس كُلِّه، ليس السؤالُ البتَّة "هل الله حقيقيٌّ؟" ("قال الجاهِل [وحدَه] في قلبه: "ليس إله"!")، ولا "هَل الله كلِّيُّ القُدرة؟" (الوثنيُّ القائل بتعدُّد الآلِهة أو الطبيعانيُّ العصريُّ وحدَهما يشكَّان في ذلك)، بل "هل الله صالحٌ وجديرٌ بالثِّقة؟ على أيِّ مُستوًى هو، وعلى أيِّ مُستوًى يُفترَض أن نكون نحن؟" فإنَّ أيُّوب سِفرٌ كِتابيٌّ مُقدَّس ليس فقط بمعنى أنَّه مَوجودٌ في الكتاب المُقدَّس، بل أيضًا بمعنى أنَّه يُسلِّم بِلاهوتيَّات باقي الكتاب المُقدَّس. ومُحاوَلةُ تفسيره باعتِباره مُناقِضًا لباقي الكتاب المقدَّس، على غِرار ما يفعل كُوشنَر وآخرون- أن يُفسَّر باعتبارِ أنَّه يُعلِّم أنَّ الله ليس كُلِّيَّ الصَّلاح، أو أنَّ أيُّوب مُصيبٌ والله مُخطئ، أو أنَّ الحياة مُشكِلةٌ يجب حلُّها عقليًّا وليست لُغزًا يجب توكيدُه بالإيمان (وهذه المفاهيم كُلُّها هي تأويلاتُ كوشنَر في الأساس)- مُحاولةٌ تُلحِق تحريفًا جوهريًّا بالأساس الراسخ

لُمسَلَّمات الكتاب المُقدَّس التي لم تكُن قطُّ مَوضِعَ شكٍّ لا في ذهن أيُّوب ولا في سِفر أيُّوب، لا في خُلُقِ كاتِبِ السِّفر ولا في ما قد كتبَه.

وإذا لم نستَطِعْ أن نحلَّ "مشكلةَ الشَّرّ" بأنْ نُنكِر (١) أنَّ الأُمورَ الرديئة تحدُثُ فعلًا للنَّاس الصالحين، كما فعلَ أصدقاءُ أيُّوبَ الثلاثةُ بقَولهم إنَّ أيُّوب ليس شخصًا صالحًا؛ أو بأنْ نُنكِر (٢) أنَّ الله كُلِّيُّ الصلاح؛ أو (٣) أنَّ الله كلِّيُّ القُدرة، فعندئذٍ يبدو أنَّ الأمرَ الوحيد المُتبقِّي هو (٤) أن ننكرَ وجودَ الله بحدِّ ذاته. ولكنَّ هذا إنَّما يُضخِّمُ جميعَ العواقب الرَّهيبة المُترتِّبة على جميع "الحلول" الأُخرى. إذًا، أيُّ حلٍّ خامسٍ مُمكِنٌ؟

لعلَّ المشكلةَ يتعذَّرُ حلُّها تمامًا. أو لعلَّها ليست مشكلةً بل لُغزٌ. أو لعلَّ هنالك، رُغم كلِّ شيء، حلًّا ما، حلًّا جُزئيًّا، ولو على المُستوى العقلانيّ. فَلننظُرْ في المسألة آخِذين في الحسبان مُحاجَّةَ أصدقاء أيُّوب الثلاثة. وإليكَ هذه المُحاجَّة:

١. مُقدَّمة الإيمان: الله عادل.
٢. مُقدَّمة المَنطِق: العدل يعني مُكافأةَ الصالح ومُعاقَبة الطالح.
٣. مُقدَّمة الفِطرة السليمة: المُكافآت تُسعِدُك؛ العقوبات تُشقِيك.
٤. مُقدَّمة التَّجريب: أيُّوب ليس سعيدًا.

النتيجة: أيُّوبُ طالح.

عند تفكيك هذه المُحاجَّة مَنطِقيًّا، نَجِدُ لها أربعَ مُقدَّمات من مصادر مُختلِفة. فالمُقدَّمة الأُولى تُستمَدُّ من الإيمان، من لُبِّ الإيمان اليهوديِّ غير القابل للتَّفاوض بشأن **أمانة** الله، حقِّ الله وعدله ومَوثوقيَّته (**إيميث إيلوهيم**

[Emeth Elohim]). إنَّه الإيمانُ بأنَّ الله حقيقيٌّ وصالحٌ ومَوثوقٌ وكلِّيُّ القُدرة، ويحكمُ هذا العالَمَ بالعدل. تلك هي المُقدَّمة التي يشكُّ فيها أيُّوب. وجميعُ الذين يُعانون كما عانى أيُّوبُ يميلون بصورةٍ طبيعيَّةٍ إلى الشَّكِّ في هذه المقدَّمة، سواءٌ أنجحوا في مُقاوَمة هذه التجربة أم أخفَقوا. ويجب أن نعترفَ بِفَضْل أصدقاء أيُّوب الثلاثة على الأقلِّ بحيازتهم إيمانًا كافيًا لمُقاومة هذه التجربة. فقد يَفترون على أيُّوب، وربَّما كان ذلك يستحقُّ اللَّوم كالافتراء على الله. ولكنَّهم على الأقلِّ لا يفترون على الله. وظلَّ أيُّوب يعبثُ بهذا مِرارًا وتَكرارًا. فهو يقولُ إنَّ الله يخترعُ شَكاوى عليه بلا سبب، وإنَّه إذا مَثَلَ الله وأيُّوب في المحكمة أمام قاضٍ نزيهٍ فلا بُدَّ أن يربحَ أيُّوبُ الدَّعوى. لكنَّ السَّببَ الوحيدَ لخسارة أيُّوب ليس عدلَ الله بل قُدرةُ الله. وهذا افتراءٌ على الله حقًّا، إذ يدعوه أيُّوب، مُداوِرةً، طاغِيةً ظالِمًا. **فعلَى** أيُّوب (علينا نحن) أن نتمسَّك بالمقدَّمة الأُولى، عدالةِ الله.

ثُمَّ إنَّ المُقدَّمة الثانية تفكُّ معنى المُصطلَح الرئيسيِّ في المُقدَّمة الأُولى، المُسنَدِ، هو **عادِلٌ**. فإذا كان الله عادلًا، فماذا يعني ذلك؟ حسنًا، إنَّ العدلَ يعني مُكافأةَ الصالح ومُعاقَبة الطالح، لا العكس بالعكس. إنَّه يعني إعطاءَ كِلَيهما حقَّه، "جزاءَه العادل". وهذه مُقدَّمةٌ مُستمدَّةٌ لا من الإيمان بل من المَنطِق، من الأخلاقيَّات العقلانيَّة. وهي جوهريَّةٌ بالنِّسبة إلى الأخلاق مِثلَما المُقدَّمة الأُولى بالنِّسبة إلى العقل. فمن دون إلهٍ جديرٍ بالثِّقة، ليس من إيمانٍ دينيّ؛ ومن دون عَدلٍ ذي معنًى يُميِّز ما بين الخير والشَّرّ، ويُعيِّن مُكافآتٍ وعقوباتٍ مُناسِبةً، ليس من أخلاق. فحتَّى الآن، لا تبدو أيَّةُ واحدة من المُقدَّمتَين عُرضةً للشَّكِّ أو التعديل.

كذلك المُقدِّمةُ الثالثة تفكُّ المُسنَدَ في الثانية، كما فعلَتِ الثانيةُ في الأُولى. فإذا كان العدلُ يعني المُكافآت والعُقوبات، ففِيمَ تكمنُ المُكافآت والعقوبات؟ بديهيًّا، في أشياءَ كثيرة ممَّا هو ملموس وخاصّ، من المال إلى الكرامة، ومن الإعدام إلى الغَرامات. ولكنَّ الأمرَ المُشتَركَ بين جميع المُكافآت هو أنَّها تُعطي الشَّخصَ الذي يستحقُّها شيئًا يُسعِدُه، في حين أنَّ الأمرَ المُشترَك بين جميع العُقوبات هو أنَّها تُعطي الشَّخص المعاقَب شيئًا يُتعِسُه. فلو كانت السُّجون مُنتجَعاتٍ مُترَفةً، لَمَا كانت عقوبات. ولو كان المالُ مَرَضًا، لَمَا كان مُكافأة. ذلك هو مغزى قِصَّة الأرنب والثَّعلب، من قِصَص "العَمِّ ريمُس" (Uncle Remus). فإنَّ الثعلبَ كان قد حاوَلَ أن يمسكَ الأرنبَ على مدى سنين بكلِّ طريقةٍ يمكنُ تصوُّرُها، إلَّا أنَّه لم يتمكَّن من ذلك قطُّ، لأنَّ الأرنب كان ذكيًّا جدًّا. ولكنْ ذاتَ يوم أمسكَه الثَّعلبُ. فحملَه بأُذنَيه وقال: "والآن، أيُّها الأرنب، لكَ أن تختارَ كيف ستَموت. فهل تُريد أن تُسلَخ، أو تُشوَى، أو تُقلَى بالزَّيت؟" أجاب الأرنب: "لك أن تسلخَني إن شئتَ، ولك أن تشويَني إن شئت، ولك أن تقليَني بالزَّيت إن شئت؛ ولكنْ رجاءً، رجاءً، لا تَرمِني في شجيرة الورد البرِّيِّ المُروِّعة!" ورأى الثَّعلبُ وميضَ الرُّعب في عينَي الأرنب، فقال: "اعلَمْ أيُّها الأرنب، أنَّ ذلك تمامًا هو ما سأفعلُه بك". ثُمَّ طوَّحَه بمَرَح وكُرهٍ إلى داخلِ شجيرة الوردِ البَرِّيّ. ولكنْ بدلًا من رؤيةِ أشلاءِ أرنَبٍ مَيْت، كان ما رآه الثعلب هو الأرنبَ يركضُ بينَ شُجَيرات الورد البرِّيِّ ضاحكًا: "لقد خدعتُكَ مرَّةً أُخرى، أيُّها الثعلب! إنِّي وُلِدتُ وتربيَّتُ في شُجيرة وردٍ بَرِّيّ!" فالسببُ الوحيد الذي من أجله تنطوي هذه القصَّة على فائدة هو افتِراضُ أنَّ

العقوبات ينبغي أن تؤذيَك أو تُشقِيَك. ولا أحدَ يشكُّ في هذه المقدَّمة. فهي تُستمَدُّ من الفِطرة السَّليمة.

أمَّا المقدَّمة الرابعة فهي أنَّ أيُّوب ليس سعيدًا. وهذه المُقدَّمة تُستمَدُّ من الاختبار، وهي أكثرُ بَدَهيَّةً بَعدُ من المُقدَّمات التي سبَقَتها. وبالحقيقة أنَّ كلًّا من المقدَّمات الأربع أكثرُ جلاءً واستِعصاءً على الإنكار من سابقاتها، الأمرُ الذي يعني أنَّ الأُولى وحدَها، أي مقدَّمة الإيمان، هي مَوضِعُ شكٍّ حقًّا. فلا أحَدَ يُغرى بأن ينكرَ المُقدَّماتِ الثلاثَ الأُخَر، ولكنَّ أيُّوبَ يُجرَّب بأن يُنكِرَ الأُولى. ويبدو أنَّ الإمكانيَّةَ الأُخرى الوحيدةَ هيَ استخلاصُ النَّتيجة المنطقيَّة، على غِرار ما فعلَه الأصدقاءُ الثلاثة، تلك النتيجة القائلة إنَّ أيُّوب بائسٌ لأنَّه يُقاسي عِقابًا مُستحَقًّا، أي أنَّ أيُّوب هو خاطئٌ كبير.

غير أنَّ القارئَ يعلمُ أنَّ هذا خطأ. فالله نفسُه قال مثل هذا لإبليس. ويعلَمُ القارئُ أيضًا أنَّه خطأٌ أن تُنكَر المقدَّمة الأُولى. ومع ذلك، فإنَّ المقدَّمة الأُولى، مقرونةً بثلاث مُقدَّمات أُخَر لا يمكن إنكارُهنَّ البتَّة، تستلزم النتيجةَ مَنطِقيًّا. يا لها من أُحجيَّة!

فلنلعبْ لعبةً لم يلعَبْها سِفرُ أيُّوب: لِنَقُم بشيءٍ من المنطق. لقد ترجَمْنا مشكلةَ الشَّرِّ الوجوديَّةَ إلى مشكلة الشَّرِّ المنطِقيَّة، وهكذا يَحسن بنا أن نحلَّها على المستوى المنطقيّ (لا شكَّ أنَّ السِّفر يحلُّها على المستوى الذي أثارَها عليه، أي المستوى الوجوديّ، المستوى الذي يُعاش. فإنَّ الدراما تُحَلُّ عُقدَتُها... كيف؟ سنرى في ما بعد).

تُوجَدُ ثلاثُ وسائلَ، ثلاثٌ فقط، للرَّدِّ على أيَّة حُجَّة مَنطِقيَّة (على

حدٍّ ما رأينا في دراسة الحُجَّة في سفر الجامعة). فإذا كانت المصطلَحات غير غامضة، وإذا كانت المقدَّمات غير خاطئة، وإذا كانت عمليَّةُ المحاجَّة غير ناقصة منطقيًّا، يتبرهنُ عندئذٍ أنَّ النتيجةَ صحيحةٌ وأنْ لا سبيلَ لمعارضتها ما عدا توكيدَك لعنادك الشَّخصيِّ الشديد بالقول: "لقد برهنتَ صحَّةَ رأيك، ولكنِّي لن أعترِفَ أبدًا بأنَّه صحيح". وذلك بالتَّأكيد لا يقولُ شيئًا البتَّة عن الحُجَّة أو النتيجة، بل يقول شيئًا عنكَ أنت.

لا واحِدةَ من المقدَّماتِ الأربع خاطئةٌ بوُضوح، والنتيجةُ تترتَّبُ مَنطِقيًّا على المقدَّمات، غير أنَّ كلًّا من المقدَّمات تتضمَّن مُصطَلحًا غامضًا. على ذلك النَّحوُ يُمكنُ أن يُرَدَّ على الشكل المنطقيِّ لمشكلَة الشَّرّ.

تقولُ المقدَّمة الأُولى إنَّ الله صالح ومَوثوق. ولكنَّ صلاحَ الله لا يُعقَلُ أن يعنيَ تمامًا ما يَعنيه صلاحُ الإنسان، لأنَّ الله ليس إنسانًا. فالإنسانُ الصالح لا يُماثِلُ تمامًا حيوانًا أليفًا صالحًا؛ وللسَّبب عينِه ليس صلاحُ الله مُماثلًا لصَلاح الإنسان. والسَّببُ هو أنَّ الصلاح مُتناسِبٌ مع الكَينونة. فكينونةُ الله إلهيَّةٌ ولامحدودة؛ وكَينونة الإنسان محدودةٌ وبشريَّة؛ وكَينونة الحيوان الأليف محدودةٌ وحيوانيَّة. فلِكُلٍّ صلاحٌ مُتناسِبٌ مع طبيعته. مثلًا، ليس شَرًّا أن يكونَ الحيوان الأليفُ مُتعدِّد الشَّريكات على الصعيد الجنسيّ، كما هو شَرٌّ للإنسان. فإذا نُقِلَ صلاحُ الحيوان الأليف ("الأليفِ اللطيف") إلى إنسانٍ ما، يكونُ ذلك لا صلاحًا بل عَيبًا أو نقيصة، انكِفاءً إلى مُجرَّدِ غريزةٍ حيوانيَّة. وهكذا يجب أن يكون الوضعُ بالنِّسبة إلى الصَّلاح الإنسانيِّ والصَّلاح الإلهيّ. فإنَّ المُصطلَح قِياسيٌّ تمثيليٌّ، لا أُحاديُّ المعنى: ليس مَعانيه واحِدةً كلِّيًّا أو تمامًا بل هي مُعدَّلة، واحدةٌ

جزئيًّا ومُختلفة جُزئيًّا. وإذا كان لنا أن نفعل، أو حاولنا أن نفعل، بعضًا من الأشياء التي يفعَلُها الله، نكونُ غير صالحين أي طالحين. مثلًا، إذا سمحَ أبٌ بشريٌّ بأن تصدمَ سيَّارةٌ ولدَه فيما كان ممكنًا أن يركض إلى الطريق لإنقاذه، فهو ليس أبًا صالحًا. ولكنَّ الله يقدرُ أن يُنقِذَنا، بمُعجزة، كُلَّما تهدَّدَنا الخَطَر؛ غير أنَّه لا يُنقِذُنا من كلِّ أذًى. ومع ذلك فهو صالحٌ في عدم إنقاذنا من كل أذًى، لأنَّه يرى، في حكمته اللَّامُتناهية، تمامًا إلى أيَّة مُعاناةٍ نحتاجُ في سبيلِ أقصى كمالِنا وحكمتنا وسعادتنا على المدى البعيد، وهو يرى إفسادَ الشخصيَّة الرُّوحيَّ الذي من شأنه أن يترتَّب على إنقاذنا من كلِّ مُصيبة. فلِلآباء البشريِّين جُزءٌ ضئيلٌ فقط من نَوع البصيرة هذا؛ ولذلك يكونُ من الخطإ لهم أن يُمثِّلوا دَورَ الله ويَدَعوا أولادَهم يُعانون، إلَّا في حالاتٍ قليلة حيثُ تكونُ معرفةُ الأبِ البَشَريِّ مؤكَّدةً تمامًا. مثلًا، يكونُ من الخطإ لأيِّ أبٍ بَشَريٍّ أن يَدَعَ ولدَه يموتُ لأنَّه اعتَقَدَ أنَّه لو بَقِيَ الولَدُ حيًّا لَمَا انتقلَ إلى التقدُّم الخُلُقيِّ والرُّوحيِّ بل تردَّى ومات أخيرًا في حالةٍ أسوأ. فإنَّه ما من أبٍ بَشَريٍّ يعلمُ أُمورًا من هذا القبيل، كما يعلمُها الله. ولكنْ يكون من الصَّواب لأبٍ بَشَريٍّ أن يُرسِلَ ولدَه إلى مدرسة صعبةٍ على نحوٍ استِثنائيّ، مدرسةٍ تُسبِّبُ للولد أن يعرقَ في دروسه ويُنجِزَ فُروضًا منزليَّة مُضاعَفة، إذا كان الأبُ يعرِف أنَّ الولد ذكيٌّ وأنَّ المدرسة تستحقُّ التَّضحية. وهكذا، فبالنِّسبة إلَينا أن نكون صالحين ومَوثوقين هو عادةً (إنَّما ليس دائمًا) أن نُنقِذَ بعضُنا بعضًا من المُعاناة، ولكنْ لا يمكن أن ينسحِبَ هذا على الله بالطريقة نفسها. إنَّ أوامرَ التحرُّك لكَتيبة المُشاة لا تنسحِبُ على القائد الذي يضَعُ الاستراتيجيَّة الشاملة.

لا يعني هذا أنْ ليست لله صفةٌ أخلاقيَّة، ولا أنَّ الصَّلاح مُجرَّدُ مخلوق، لا صفة حميدةٍ من صفات الخالق، أي شيءٌ يصنعُه الله اعتِباطيًّا وكان يمكنُ أن يصنعُه بصورةٍ مختلفة، كما كان مُمكنًا أن يجعلَ السَّماء حمراءَ لا زرقاء. كلَّا! فإنَّما "الله محبَّة"، والله أيضًا عادِل، ولكن ما يعنيه هذانِ الكمالان الأدبيَّان في الله يسمو على ما يَعنِيانِه فينا، تمامًا كما يسمو الصَّلاحُ فينا على الصَّلاحِ في حيوانٍ أليف.

ثُمَّ إنَّ المُصطلَح الغامض في المُقدَّمة الثانية هو اللفظةُ **عَدل**. فبالنِّسبة إلينا، يعني العَدلُ مُساواةً، أو على الأقلّ تكافؤَ فُرَص. إنَّه يعني شيئًا رياضيًّا أو حِسابيًّا تقريبًا. فنحنُ جميعًا مُتساوون أمام القانون. ولكنْ ليس هذا معنى العَدل الأعمقَ. فثمَّة عَدلٌ في الموسيقى، تناغُمٌ وتناسُبٌ وترابُطٌ تؤولُ إلى الجمال، إلَّا أنَّ ذلك ليس مُساواة. إنَّه شيءٌ أكثرُ غموضًا بكثير، وأكثرُ تثقُّلًا بالمعنى، وأكثرُ روعةً. وقد قال الشاعر: "بالعَدلِ النُّجومُ قويَّة". وتكلَّم الإغريق بشأن عَدلٍ كونيٍّ (**دايكيي** [Dikē])، بشأن "موسيقى الكواكب". فهذا أقربُ إلى العَدل الإلهيّ. أهو "عادِلٌ" بالمعنى الرياضيِّ البسيط أنَّ نِصفَ الجنس البَشَريِّ يفتقِر إلى رَحِم؟ أهو عادلٌ أنَّ الرجال يملكون عضلاتٍ بَدَنيَّةً عُليا أقوى من عضلاتِ النِّساء؟ أَمِنَ العَدلِ بَعدُ أن يكونَ البَشَرُ مُتفوِّقين على القُرود؟ (إنِّي أستَثني أُولئك البَشَر الذين لا يعتقدون أنَّهم مُتفوِّقون على القُرود، باعتِبار ذلك نُبوءةً ذاتيَّة التحقُّق!)

إنَّ أسمى شكلٍ من العَدل الإلهيِّ سَمِعنا به على الإطلاق، والشَّكلَ الأكثرَ غموضًا، هو- على وجه التحديد- الإنجيلُ، الأحداثُ المُذهِلةُ المُواكِبةُ لتَنازُلِ الله كي يصيرَ إنسانًا ولموتِه لأجلنا على **صليب**.

ويدعو القدِّيس بولس هذا الإنجيلَ "بِرَّ الله" في رسالة رومية. غير أنَّ هذا "البِرَّ"، أو العَدلَ، يتركَّز على الفِعلةِ الأكثرِ لاعدلًا بين كلِّ ما حدثَ في التاريخ على الإطلاق: قَتلِ إلهٍ، قَتلِ الإنسان الذي لم يستحقَّ الموتَ قطُّ، البريءِ الأكثرِ براءةً، البريء الوحيد، مُتألِّمًا لأجل الأثَمَة. وهذا هو **عدلُ** الله! فبديهيٌّ أنَّ العدلَ هُناكَ هو شيءٌ مُختلفٌ عن العدل هُنا. إنَّه هنا مُكافأةُ الصالح ومُعاقَبة الطالح. أمَّا هُناك، فهو "كلُّنا كغَنَم ضَلَلْنا، مِلنا كلُّ واحدٍ إلى طريقه، والربُّ وضع عليه إثمَ جميعنا" (إشعياء ٥٣: ٦).

أمَّا في المُقدِّمة الثالثة، فالمُصطلَحُ الغامِض هو **سعيد**. فإنَّ المُكافآت هي في شَكلِ "سعادة"، والفِطرةُ السليمة دون شكٍّ على حقٍّ إذ تقولُ ذلك. ولكنْ رُبَّما كانت الفِطرةُ السليمة غيرَ واضحةٍ تمامًا بشأن ما تَعنيه السَّعادة. فنحن نميل إلى مُماهاتِها (١) بشيءٍ مُباشَر وحاضِر، لا مُستقبليٍّ أو بعيد المدى أو أبَديّ، و(٢) بشُعورٍ ذاتيٍّ واعٍ بإشباعِ رغبةٍ ما، لا بحقيقةٍ مَوضوعيَّة. فرُبَّما لم يكُن أيُّوب سعيدًا حتَّى الآن، ولكنَّه سعيدٌ في النِّهاية؛ ورُبَّما لم **يشعُرْ** أيُّوب بأنَّه سعيد، **ولكنَّه** سعيدٌ رُغمَ ذلك.

ولكي ترى النُّقطة الثانية، انظُرْ بعين الاعتِبار إلى قياس المشابَهة في الصحَّة. فيُمكِنُ أن نكونَ أصحَّاءَ دون أن نشعرُ بأنَّنا أصحَّاء، كما حينَ يعتَرينا صُداعٌ مُزعج ولكنْ لا يكونُ بنا خَطبٌ آخر. فالصُّداع اليسيرُ يشغلُ مركَزَ وَعينا، ونشعرُ كما لو كُنَّا سنَموت، غير أنَّ الحقيقةَ الموضوعيَّةَ هي أنَّنا أصحَّاءُ تمامًا. إنَّ مشاعرَنا هي مؤشِّرٌ ناقِصٌ إلى صحَّتنا. وفي المقابل، قد نكونُ ضَحايا مَرَضٍ رهيبٍ قتَّال ومحتومًا علينا أن نموتَ خلال دقيقتَين، غير أنَّنا نشعرُ بأنَّنا أصحَّاءُ كلِّيًّا. فإنَّ المشاعرَ ليست مؤشِّرًا مَعصومًا إلى الحقيقة.

حسنًا، إنَّ ما هو صحيحٌ على المستوى البَدَنيِّ يمكنُ أن يكونَ صحيحًا على المستوى الروحيِّ أيضًا. فالفَرِّيسيُّ قد يشعرُ بأنَّه صحيحٌ أخلاقيًّا وروحيًّا، في حين أنَّه بالحقيقة فاسِدٌ تمامًا بحيثُ إنَّ السيِّدَ المسيح اللطيفَ يدعوه قبرًا ملآنًا بعظام أُناسٍ أموات. والقدِّيسُ يمكن أن يكونَ مُجتازًا "ليلَ النَّفسِ المُظلِمَ" ويشعُرَ بأنَّه في جفافٍ تامٍّ داخليًّا، في حين يكونُ الله بالحقيقة مُكمِّلًا إيَّاه كفنَّانٍ يُكمِّل تُحفَتَه.

فرُبَّما كان أيُّوب سعيدًا بمعنى كَونه **مُبارَكًا**، دون أن يكونَ سعيدًا بمعنى كَونه **راضيًا**. إنَّ أيُّوب هو تُحفةُ الله، وآلامُه تجعلُه أشبَهَ بالتُّحفةِ بَعدُ. وسعادتُه الموضوعيَّة، أو كمالُه، أو مُبارَكيَّتُه (تلك التي تتضمَّن حِكمتَه وشجاعتَه ونُضجَه) تُبلغُ بالتَّحديد بواسطة تعاستِه الذاتيَّة، أو مُعاناته.

أخيرًا، تتضمَّنُ المقدَّمةُ الرابعةُ المُصطلَحَ الغامض **غيرَ سعيد**، أو بائسًا، وهو غامضٌ تمامًا بالطريقة التي كان بها المصطلَحُ "**سعيدٌ**" غامضًا في المُقدَّمة الثالثة. فإنَّ أيُّوب بالحقيقة مُبارَك، أو مغبوط، في آلامه، كما وعد السيِّدُ المسيح في تطويباته: "طُوبى للحزانى... طُوبى لكم إذا عيَّروكم وطرودكم". لا يعني شيئًا على الإطلاق، بمعنى "السعادة" السطحيِّ والبديهيِّ، أن يُقال: "سُعَداءُ أنتم يا مَن تنوحون". ولكنْ بمعنى السعادة الأقدم والأعمق (المغبوطيَّة)، أيُّوبُ سعيدٌ سعادةً عميقةً هُناك على كومة الرَّماد. إنَّه مُتألِّم وغيرُ راضٍ، ولكنَّه مُبارَك وغيرُ مرفوض.

ثُمَّ إنَّ الغموضَ الآخر في المُصطلَح "**سعيد**" ينسحبُ أيضًا على المقدَّمة الرابعة. فربَّما كان أيُّوب غيرَ سعيد على المدى القصير، غير أنَّه سعيدٌ على المدى الطويل، حتَّى بمعنى الرِّضى أو الشِّبَع. إنَّ أيُّوب راضٍ في الأخير

(وسنَستكشفُ لماذا في ما بعد). فعلى الرُّغم من كلِّ شيء، هو في دراما، في قصَّة، وفي الفصول الأُولى فحسْب. وكيف يَسَعُكَ أن تفهمَ مغزى الفصل الثاني في المسرحيَّة قبل أن تصل إلى الفصل الخامس؟ إنَّ مشكلة الشَّرّ، كما تُعاشُ لا كما يجري تأمُّلُها، هي مشكلة في قصَّة، في الزَّمان، وجوابُ الكتاب المقدَّس المؤلَّفُ من كلمةٍ واحدة عن المشكلة هو "انتظِرْ!".

لمَّا عبَّر القدِّيس توما الأكوينيُّ في "**الخلاصة اللاهوتيَّة**" عن مشكلة الشَّرِّ باعتبارها أحَدَ الاعتراضَين على وجود الله، تذكَّر ما ينساه فلاسِفةٌ كثيرون: أنَّ الحلَّ، حلَّ الله، ملموسٌ لا مُجرَّدٌ؛ دراميٌّ لا تخطيطيٌّ؛ حَدَثٌ في الزَّمان لا حقيقةٌ سرمديَّة. وكما رأينا، فإنَّ القدِّيس توما الأكوينيَّ عبَّر عن المشكلة على الوجه التالي: "إنَّ "الله" يعني الصلاحَ اللَّامُتناهي. ولكنْ، إذا كان أحَدُ نقيضَين لامُتَناهيًا، يُنقَضُ الآخَر كلِّيًّا. غير أنَّ الشرَّ مَوجود [وليس مَنقوضًا]. ولذلك، فإنَّ الله [الصلاح اللَّامُتناهي] غيرُ موجود". وقد أجاب الأكوينيُّ عن المشكلة كما يلي: "مثلَما يقول أُوغسطينوس: ما دامَ الله هو الخيرَ الأسمى، فهو لَن يسمح لأيِّ شرٍّ بأن يُوجَد في أعماله إلَّا إذا كانت قُدرتُه على كلِّ شيء وصلاحُه في وَضعٍ يُمكِّن من أن يطلعَ الخيرُ حتَّى من الشَّرّ". بعبارةٍ أُخرى، إنَّ الحياة، مِثلَ أيُّوب، تُشبه حكايةً من حكايات الجِنّ. فلكي يُتاحَ لك أن تعيشَ في سعادةٍ دائمةٍ كلَّ حين، لا بُدَّ أن تمرَّ في كومة الرَّماد. إنَّ الشَّرَّ وقتيٌّ فقط؛ أمَّا الخيرُ فهو أبديّ. فمرَّةً أُخرى بَعدُ، بكلمةٍ واحدة، "انتظِر!".

لكنِ انتظِرْ بإيمان. فقد قال السيِّدُ المسيح لمرثا، قبل إقامته أخاها لِعازر من بين الأموات: "ألَم أقُل لكِ: إنْ آمنتِ تَرَين مجدَ الله؟" إنَّ العِيان

ليس هو الإيمان، ولكنَّ الإيمانَ يُفضي إلى العِيان أخيرًا. فأيُّوب لا ينتظرُ بصبرٍ، إلاَّ أنَّه ينتظر. وإيمانُ أيُّوب ليس مُشمِسًا وصاحيًا، إلَّا أنَّه إيمان. وهو ليس خاليًا من الشُّكوك (في الواقع أنَّ شكوكَ أيُّوب جاءت من إيمانه: فعندما يكونُ الإيمان تامًّا، يكون مُنفتِحًا وقد ينطوي على شكوك؛ وعندما يكونُ ضعيفًا، لا يُمكنُ أن يُطيقَ الشُّكوك). غير أنَّ أيُّوب يبقى بَطَلَ إيمان. فهو ينتظرُ بإيمان، وهو يرى مجدَ الله. إنَّه مُبارَكٌ في الانتظار بعَينه، على كومةِ الرَّماد، في قَلبِ المصيبة؛ وهو مُبارَكٌ مُضاعَفًا في نهاية المطاف.

٢. مشكلةُ الإيمان مُقابلَ الاختبار

حتَّى الآن، خَدَشنا السَّطحَ وحدَه. فمشكلةُ الشَّرِّ ليست إلَّا المشكلةَ الأكثرَ جلاءً في سفر أيُّوب، تلك التي تتحدَّث جميع الكُتُب بشأنها. ولكنْ تُوجَد مُستَوياتٌ أُخرى أعمق من هذا مثلَ كهوفٍ تحت الأرض أو حتَّى مُدُن، عَوالِمُ كاملةٌ من السِّرِّ والمعنى أقلُّ طواعيةً للتَّحليل الواضح والحلِّ البسيط. فعلى مُستوًى ثانٍ من المشكلات يمثلُ الصِّراعُ ليس بين الإيمان والعقل، كما في مشكلة الشَّرّ، بل بين الإيمان والاختبار، إيمانِ أيُّوبَ واختباره. وهنا لا نجدُ أُحجيَّةً فلسفيَّة، بل دُموعَ وَلَد. ففي كُلِّ مَوضعٍ من الكتاب المُقدَّس وكلِّ لحظةٍ من حياة أيُّوب، يتقدَّمُ الله حاملًا "إعلانَ بَيعٍ" يقول: "ثِقْ بي" (أو "توكَّلْ عليَّ"). وليست أمانةُ الله (**إيميث إيلوهيم**) هُنا مُعطًى في أُحجيَّة مَنطقيَّة، بل حَبلُ سلامة، ويبدو أنَّ الحبلَ قد انقطع، ففي كلِّ مَوضِعٍ من الكتاب المُقدَّس، الوعدُ هو دائمًا أنَّ أمانتَك نحو الله ستُكافأ بأمانةِ اللهِ نحوَك ونحوَ وعوده بالمُكافأة. إنَّ الابرارَ يفوزون؛

أمَّا الأشرار فيَهلِكون. وهكذا يقتنعُ أيُّوب بهذا الإعلان، بهذا الإيمان. ومن ثَمَّ يُراهِن بكامل حياته على البِرِّ والطاعة والأمانة والتقوى. فما مُكافأتُه؟ خَسارةُ أملاكِه، وأولادِه، وإخلاصِ زوجته، بل أيضًا- في ما يبدو- هُوِيَّته وإلهه (كما سنَرى على مُستويَين تالِيَين، أعمقَ بَعدُ). وأسوأُ كلِّ شيء تَخَلِّي الله: اختِبارُ أيُّوب لحالة "إلهي، إلهي، لماذا تركتَني؟" إنَّ الموضوع الثابت في المزامير هو هذا: "صرختُ، فسَمِعَني الربُّ وأجابَني من جَبَلِ قُدسِه". ولكنْ يبدو أنَّ اختبار أيُّوب يُغلِّطُ هذا. فقد يكون الله هُناك، ولكنَّه ليس في مُتناوَل أيُّوب.

إليكَ ما يبدو أنَّ اختبارَ أيُّوب يُعلِّمه عن الله. يبدو الله شبيهًا بالأب في المَزحة الثقيلة التالية. قال أبٌ لابنه الصغير: "يا بُنَيّ، أُريد أن أُعلِّمَك واحدًا من أهمِّ دروس الحياة: كيف تتَّكِل على أبيك. قِف على ذلك الجِدار الذي يرتفع مِترًا ونِصفًا واقفِز إلى ذراعيَّ. إنِّي سألتَقِطُك". "ولكنِّي خائف، يا بابا. لا تجعَلني أَصعَد إلى هناك". "أنا أعرِف أنَّك خائف، يا بُنَيّ. ولكنِّي أُريدُ منك أن تفعلَ هذا لأجلي". "حاضر، يا بابا. ها أنا آتٍ... هاه! لقد أمسكتَني!" "بالتَّأكيد أمسكتُك. لقد وعدتُ، أليس كذلك؟" "هلَّا نذهب إلى البيت الآن!" "لا، أُريد منك أن تقفزَ عن ذلك الحائط الذي يرتفع ثلاثة أمتار". "أُوه، بابا، أنا خائف جدًّا". "ثِقْ بي". "طيِّب. ها أنا آتٍ... هاه! لقد أمسكتَني مرَّةً ثانية!" "بالتأكيد أمسكتُك". "هلَّا نذهب إلى البيت الآن!" "بعدَ مرَّة واحدة فقط. هذه المرَّة، اقفز عن ذلك الحائط الذي يرتفعُ ستَّةَ أمتار". "أُوه، بابا، أنا خائفٌ جدًّا". "ثِق بي". "طيِّب، ها أنا آتٍ..." فإذا بالأب يخطو إلى

الوراء في اللحظة الأخيرة ويَدَعُ ابنَه يَهوي على الرصيف. ومن بركَةِ دَمٍ ودُموع يطلع السؤال: "بابا، بابا، لماذا فعلتَ هذا؟" فيأتي الجواب: "حتَّى أُعلِّمَكَ أهمَّ درسٍ في الحياة، يا بُنَيَّ: لا تثقْ بأحَدٍ، ولا حتَّى بأبيك".

هذه مُداعبةٌ سيِّئة ونُكتة سَمِجة، ولكن تلك هي الحال التي تبدو عليها الحياةُ في نظر أيُّوب. فإنَّه وَثِقَ بالله، والآن خطا الله إلى الوراء وتركَه يَهوي ويتهشَّم. إنَّ إيمانَ أيُّوب يقول: إذا وَثِقتَ بالله، فلا بُدَّ أن تُكافأ. أمَّا اختبارُ أيوُّب فيقول العكس. ولا بُدَّ أنَّ أيُّوب كان رجُلَ إيمانٍ رائعًا حتَّى تشبَّثَ بإيمانه (وإنْ كان بالكادِّ) بينَ أنيابٍ مثلِ هذا التكذيب الذي يبدو حاسمًا والذي أمدَّه بهِ الاختِبار.

يُعدُّ أيُّوبُ، تقليديًّا، بطلًا في الإيمان. وهذا يُبيِّن أنَّ الإيمان، بالنِّسبة إلى يهوديِّ العهد القديم (وأيضًا بالنِّسبة إلى مسيحيِّ العهد الجديد) هو أكثرُ جوهريَّةً ممَّا عرَّفه به مُلخَّصُ بَلتيمورَ القديمُ للعقائد المسيحيَّة (Baltimore Catechism)، مع أنَّ ذلك بدَورِه أعمق بكثير من التَّوصيفات الواردة في مُعظَم الكُتُب الدِّراسيَّة العصريَّة: "فِعلٌ عقليٌّ تحفزه الإرادة، به نُصدِّق ما قد أعلنَه الله على أساس السُّلطانِ المَرجِعيِّ **للَّذي** أعلنه". فالإيمانُ في نظر أيُّوب ليس في الأصل فعلًا صادرًا من العقل، بل من الأحشاء أو القلب. إنَّ الإيمان هنا هو **إيميث**، أمانة، مُتَّكَليَّة، وفاءٌ بالوعد، مَوثوقيَّة. وأيُّوب هو بَطَلُ حضارة، لأنَّه يمتحنُ القيمةَ الجوهريَّة في حضارته، **إيميث**، في حياته كما في أُنبوبِ اختبار. فهو يُراهنُ عليه بحياته؛ وفي الواقع أنَّه يتخلَّى عن الكثير ممَّا في حياته لأجله؟ غير أنَّ السؤالَ الساخرَ هو: مَن يمتحن مَن؟ إذ يبدو لأيُّوب كما لو أنَّ اختبارَه يمتحنُ أمانةَ الله، ولكنْ بالحقيقة- كما يعرف

القارئُ من تلك النَّظرة الخاطفة وراء الكواليس في الأصحاح الأوَّل- هو اللهُ مَن يمتحن أمانةَ أيُّوب.

على أنَّ الامتحان هو بصورةٍ جُزئيَّة فقط خَسارةُ أيُّوب لجميع أملاكه الأرضيَّة. فالامتحان هو جوهريًّا خَسارةُ أيُّوب الظاهريَّة لله. وبُرهانُ هذا كامنٌ في حقيقةِ أنَّ أيُّوب، حتَّى قبلَ أن يستردَّ أيًّا من أملاكه الأرضيَّة، بات راضيًا في النهاية لمُجرَّدِ استِرداده الله. ولكنَّه طوالَ سبعةٍ وثلاثين أصحاحًا مُفعَمة بالعَذاب والعناء، لا يَجدُ الله، مع أنَّه يطلبه. فإيمانهُ يقول له، في الواقع: "اطلُبْ تَجِد؛ فإنَّ كلَّ مَن يطلبُ يَجد". ولكنَّ اختبارَه يقول له العكس. فلا أحَدَ يطلبُ كما يطلبُ أيُّوبُ بكَثرةٍ ولهفة واحتياج؛ غير أنَّه لا يجدُ شيئًا. "هأنذا أذهبُ شرقًا، فليس هو هناك؛ وغربًا، فلا أشعر به؛ شمالاً حيثُ عملُه، فلا أنظُره؛ يتعطَّف الجنوب، فلا أراه" (أيُّوب ٢٣: ٨ و٩). لماذا؟ لماذا لا يُجاوِبُ الله أيُّوب؟ كيف يتَناغَمُ إلهُ الإيمان، إلهُ الأمانةِ الأمينُ، مع اختِبار الطَّلَب دونَ جواب؟

ليس هذا الاختبارُ مَقصورًا على أيُّوب. فكما عبَّر عنه سي. أس. لِويس، في "**فاجِعةٌ مُراقَبة**" *(A Grief Observed)*، مُفكِّرًا في عدم العزاء الذي أعطاه إيَّاه إيمانُه بعدَ وفاة زوجته:

> في هذه الأثناء، أينَ الله؟ هذا واحدٌ من أكثر الأعراض إقلاقًا. عندما تكونُ سعيدًا، سعيدًا جدًّا بحيثُ لا يكونُ لديك شعورٌ بالاحتياج إليه، سعيدًا جدًّا بحيثُ تُغرى بأن تُحِسَّ أنَّ حُقوقَه عليك تُشبهُ مُقاطَعةً لحياتك، فإذا تذكَّرتَ نفسَك والتفَتَّ إليه

شاكِرًا حامدًا، فلا بُدَّ- أو هكذا يُخيَّلُ إلَيك- أنَّك ستَلقى منه تَرحيبًا بذراعَين مفتوحتَين. إنَّما اذهَبْ إليه حين تكون في أشدِّ احتياجِك، حين يكونُ كلُّ عونٍ سواه باطلًا، فماذا تَجد؟ بابًا يُصفَقُ في وجهك، وصوتَ إقفالٍ وإقفالٍ مُضاعَف مِن الداخل. وبعد ذلك، يسودُ الصَّمت.

في العصور السالفة، ولا سيَّما القُرون الوُسطى، تلك التي كانت قويَّةً في مجال العقل لكنْ ضعيفةً في مجال الاستِبطان السيكولوجيّ، كانت المشكلةُ الحرجةُ هي العلاقةَ بين الإيمان والعقل (بدا أنَّ بعضَ استنتاجات أرِسطو الفلسفيَّة والعلميَّة تُناقِض الإيمانَ المسيحيّ). أمَّا في عصرنا، وهو ضعيفٌ في مجال العقل (حتَّى إنَّه يشكُّ في قُدرة العقل على اكتشاف الحقيقة الموضوعيَّة أو إثباتها) وقويٌّ في مجال السيكولوجيا والاختبار، فإنَّ المشكلةَ الحرجة هي العلاقةُ بين الإيمان والاختبار. فاليومَ يفقدُ كثيرون جدًّا إيمانَهم لأنَّهم يختبرون الألم ويظنُّون أنَّ الله قد تخلَّى عنهم، بَدَلَ أن يفقدوا إيمانَهم بسبب أيَّة حُجَّةٍ عقلانيَّة. حقًّا إنَّ أيُّوب هو رجُلُ لكُلِّ الأوقات، ولكنْ خاصٌّ لوَقتِنا الحاضر. فإنَّ مشكلتَه هي، على وجه الدِّقَّة، مشكلتُنا نحن.

تُرى، ما الحلُّ؟ تحديدًا، لماذا يختبرُ أيُّوب غيابَ الله في حين وعدَ الله بأن يكونَ حاضرًا؟ إنَّ قِسمًا من الجواب سهل: أنَّ الله يمتحنُ إيمانَ أيُّوب. فعلى أيُّوب أن يؤمنَ بِكَون الله حقيقيًّا وحاضِرًا وأمينًا ليس فقط لأنَّه يسهلُ أن يؤمن، لأنَّ الأُمور تجري حَسنًا كما يُرام، لأنَّ الاختبار يؤيِّد الإيمانَ تمامًا بحيثُ يكادُ أن يكونَ الإيمانُ غيرَ ضروريّ، بل عليه أيضًا أن يتعلَّم كيف يؤمن بالله بدافعٍ من الإيمان الخالص، حتَّى حينَ يبدو أنَّ الاختِبارَ والمَظاهِر

تُناقِض الإيمان... كحال السيِّد المسيح على الصليب، إذ تركَه الله، ولم يكُن له عزاءٌ من أيِّ نوع. إنَّ إيمانًا كهذا أثمَن بما لا يُقدَّر أبدًا من الإيمان الرخيص وغير الضروريِّ ذاك الذي يقودُك في الاتِّجاه الذي يقودُك فيه اختِبارُك تمامًا. فالإيمانُ الذي يجعلُ الأسنانَ تصرُّ ثمينٌ لي لا لأنَّ الألَم ثمينٌ في ذاته، ولا لأنَّ صريرَ الأسنان ثمينٌ في ذاته، بل لأنَّ إيمانًا كهذا يطلعُ من مركَز الشخص الأبديِّ، من الأنا، من الإرادة، لا من المشاعِر، أي من أجزاء الشَّخص التي تخضعُ للبيئة ولِما يجري في العالَم. ذلك لأنَّ العالَم سيَزول، أمَّا الذات فلن تزول. فما تُقرِّره الذاتُ في الزَّمان يُبرَمُ في الأبديَّة. وكلَّما كان قرارُ الوقوفِ مع الله في مركَز الذات هذا السرِّيِّ وغيرِ العاطفيِّ قَرارًا أقوى، سيكون الخلاصُ الأبديُّ لكامل الذات أكثر يقينيَّةً وعُمقًا. فإنَّ الإرادةَ هي حارسةُ العواطف، ويجب أن تتعلَّم كيف تقودُهنَّ، لا كيف تتبعُهنَّ.

ذلك هو القِسمُ الواضحُ والسَّهل من الجواب. فإنَّ الله آخِذٌ في تَمتينِ إيمان أيُّوب، أو أمانةِ أيُّوب، وتكميله في أتُّونِ الألَم. ولكنَّ للجواب قِسمًا آخر، يأتي لا من طبيعة أيُّوب بل من طبيعة الله. فَبسبب ما هو الله عليه، لا يُمكنُ أن يَظهَرَ هو إجابةً لأسئلة أيُّوب، أو استِجابةً لحاجات أيُّوب. إنَّ الله يأبى أن يُجاوبَ أيُّوب لأنَّ الله ليس "رَجُلَ المجاوَبة". إنَّه ليس المجاوِبَ، أو المُجيب. إنَّه المُلقِّن، الفاحِصُ السائل. إنَّه ليس بثانٍ، بل هو الأوَّل، "في البَدء". واسمُه (الذي يُعلِن جوهرَه) هو "أنا الكائن"، وليس "هو كائنٌ". فالله مَوجود **بصيغة المُتكلِّم**. إنَّه المُبتدأ والفاعل، لا الخَبَرُ والمَفعولُ به، ولا حتَّى غَرَضُ استِجوابات أيُّوب واستِفساراته.

كلُّ مَن قابَلَ الله مرَّةً مُتَميِّزًا عن مَفهوم ما لله، جميعُ القدِّيسين والمُتصوِّفين، وبكلمةٍ أُخرى، كلُّ مَن كانوا كأيُّوب لا كأصدقاء أيُّوب اللَّاهوتيِّين الثلاثة، قالوا القولَ عَينه: عندما تُقابِلُ الله، لا يُمكِنكُ أن تصوغَ المُقابلةَ في كلمات، ناهيك بالله الذي تُقابلُه. إنَّ الله لا يُعقَلُ أن يكون غَرَضًا لمفاهيمنا. إنَّ المفاهيمَ تتحطَّمُ كالنظَّارات المكسورة، كالعيون المكسورة، بل بالحقيقة كالأنا المكسورة. فلستُ أنا بَعدُ إيَّاي، وليس الله إيَّاكَ في نظري: مُسنَدي أو غَرَضي. إنَّ الله الآن هو القائلُ أنا، وأنا نفسي مُسنَدُه أو غَرَضُه. وهكذا يقولُ المُتصوِّفون أشياءَ غريبةً من هذا القبيل بشأن الذَّات، كما لو كانت وَهْمًا أو لو تلاشَتْ في هذه المقابلة. أمَّا الوهمُ الذي يتبدَّدُ فليس الذاتَ بحدِّ ذاتها، بل مَوقفُها المُعتاد حيثُ أكونُ أنا إيَّاي، المركَز، ويظهرُ الله على شاشتي في نُقطةٍ ما. **هذه** الذاتُ هي وَهْم، والله يُحطِّمُها بعكسه للموقِف؛ إذ نظهر نحن على شاشته هو. فإنَّما نحنُ مُسنَدُه أو غَرَضُه، وليس هو ذلك بالنِّسبة إلينا.

لذلك السبب يُعلِنُ السيِّدُ المسيح لاهوتَه على نحوٍ قويٍّ جدًّا بعكسه دائمًا للعَلاقة التي يُحاوِل سائلوه أن يضَعوه فيها. فأعداؤه يحاولون أن يُحرِجوه ويُثبِّتوه أرضًا؛ وإذا به يُحرِجُهم ويُثبِّتهم. ويُحاوِلون أن يُصنِّفوه؛ فإذا به يُصنِّفهم. ويُحاوِلون أن يحكموا عليه؛ فإذا به يحكمُ عليهم. حتَّى أصدقاؤه يُحاوِلُون أن يكشفوه، أن يفهموه، أن يُعلِنوه، أن يُخرِجوا سِرَّ هُويَّته من الخفاء، ولكنَّ كلَّ مُقابلة تُنجزُ العكس: إنَّهم **هُم** يُكشَفون ويُفهَمون ويُعلَنون؛ وسرُّ هُويَّتهم **هُم** لا بُدَّ أن يخرجَ من الخفاء حين يكونون في حضرة **النُّور** الإلهيّ. "أنرجُم الزانية أم لا؟"... "مَن كان بلا خطيَّة فليَرمِها أوَّلًا

بحَجَر". "أندفَعُ الضرائب للقيصر أم لا؟"... "أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (هُم كانوا يسلبون كِلَيهما). "من هو قريبي (جاري؟)"... "اِذهَب وكُن جارًا على غِرار السامريِّ الصالح". فكُلَّما حاولتَ أن تمتحِنَه، يمتحِنُك هو؛ لأنَّه هو المُعلِّم وأنت التلميذ، وليس العكس.

يتحدَّثُ ڤيكتور فرَنكْل (Viktor Frankl) بهذا الاختبار للعكس المُفاجئ المذهل في الموقف أو المنظور، في سياق وصفه لمُعسكَرات الاعتقال. ففي "**بحثُ الإنسان عن المعنى**" *(Man's Search for Meaning)* يقول إنَّ كثيرين من الأسرى تعلَّموا الكفَّ عن طَرْح السؤال "ما معنى الحياة؟" وأدرَكوا أنَّ الحياةَ كانت تسألهم ماذا كان مَعناهُم هم. فبَدلًا من الاستمرار في السؤال: "أيَّتُها الحياة، لماذا أنتِ فاعِلةٌ هذا بي؟ إنِّي أطلبُ جوابًا!" أدرَكوا أنَّ الحياةَ كانت تسألهم وتطلبُ جَوابًا، جوابًا بالأفعال، لا بمُجرَّد الأقوال. وكان عليهم أن يُجاوِبوا عن هذا السؤال، هذا التَّحدِّي، بأن يكونوا حاملين مسؤوليَّتهم. حتَّى إنَّهم، لَمَّا لم يُفسِّروا الحياةَ بوصفها أداةَ الله، لَمَّا بَدَت "الحياةُ" مفهومًا مُجرَّدًا لا شخصًا، شعروا بأنَّها هي تُسائلُهم، على غِرار ملايين الأشخاص الذين كانت لهم اختِباراتٌ قارَبوا فيها الموت، إذ شعروا بأنَّ "الكائنَ النُّورانيَّ" يُسائلُهم، لا العكس. فإنَّ الشيءَ الوحيد الذي لا تستطيعُ أن تُنيرَه هو النُّور. والنُّورُ هو أفضلُ رمزٍ طبيعيٍّ إلى الله لأنَّه الشيءُ الطبيعيُّ الوحيدُ الذي لا يمكن أن يكون غَرَضًا للنَّظر. فلا يمكن أن يكون الله غرضًا للبَصَر، الطبيعيِّ أو العقليّ. ويقولُ القدِّيس توما الأكوينيُّ إنَّنا نعرفُ الله معرفةً صحيحةً فقط حين نعرفُه بصفةِ كَونه لا يمكنُ أن يُعرَف. والكتابُ المقدَّس يقولُ الأمرَ ذاتَه: "الله لم يَرَه أحدٌ قطُّ؛ الابنُ

الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو خبَّر" (يوحنَّا ١: ١٨). فلو لم يُبادِرِ الله بإعلان ذاته، ما كان هنالك من طريقةٍ يمكنُنا بها أن نعرفَه. عندما نُريدُ أن نعرفَ حَجَرًا، يكونُ هو خاملًا كلِّيًّا، ونكون نحن فاعلين كلِّيًّا. وعندما نُريدُ أن نعرفَ حيوانًا، يكون هو فاعلًا قليلًا، ويمكنُ أن يهربَ ويختبئ. وعندما نريدُ أن نعرفَ شخصًا آخر، نعتمدُ تمامًا على حرِّيَّةِ إرادةِ الآخَر في أن يُعرَف، كما على حرِّيَّة إرادتنا الخاصَّة في أن نَعرِف: فالدَّوران مُتساويان. أخيرًا، عندما نُريد أن نعرفَ الله، يجب أن تبدأ الفاعليَّة كلُّها من جانبه.

وهكذا، لم يكُنْ ممكنًا أن يَظهَرَ الله نفسُه جوابًا عن أسئلة أيُّوب، كما لو كان تعالى كِتابًا في مكتبة (وهذه هي الطريقة التي بها عاملَ أصدقاءُ أيُّوب الثلاثة الله). إنَّ أيُّوب يكبسُ أزرارًا، ولكنَّ آلةَ الله لا تشتغل، ليس لأنَّها مُعطَّلة بل لأنَّها ليسَت آلة. ويُدرِكُ أيُّوب هذا أخيرًا حين يظهرُ الله على المسرح بصفتِه الحقيقيَّة، أي المُمتحِن السائل، لا المُمتحَن المُجيب. لهذا السبب يتوبُ أيُّوب في النهاية (أيُّوب ٤٢: ٦). وما يتوبُ عنه ليس خطيَّةً مُحدَّدةً قد ارتكبها وأخفاها، كما توهَّم الأصدقاءُ الثلاثة، بل عن غلطته الماورائيَّة، خطإٍ بحقِّ قواعد الكَينونة: تمثيلِه دَورَ الله. فأفضلُ كلماتٍ تفوَّه بها أيُّوب كانت كلماتِه الأخيرة: "تمَّت أقوالُ أيُّوب". فعندما يسكتُ أيُّوب، عندئذٍ فقط يَظهَرُ الله.

الأكثرون بيننا يتكلَّمون أكثرَ ممَّا ينبغي. ولكنْ مُذهِلٌ كم كانت أقوالُ السيِّد المسيح قصيرةً! فعندما نُصلِّي، مَن يتولَّى مُعظَم الحديث؟ أهو الفريق الأكثرُ أهمِّيَّةً في المحادثة أم الفريقُ الأقلُّ أهمِّيَّة؟ إذا أُتيحَت لنا الفُرصة لمحادثة شخصٍ عظيم، مثل الأُمِّ تيريزا (Mother Teresa) أو ألكسندر

سولجينتسين (Alexandr Solzhenitsyn)، فهل نودُّ أن نتولَّى مُعظَم الكلام، أم نودُّ أن نُصغيَ مُعظَمَ الوقت؟ فلماذا نتكلَّم إلى الله كثيرًا جدًّا بحيثُ لا يُتاحُ لنا وقتٌ للإصغاء؟ كم ينبغي أن يكونَ الله صَبورًا، مُنتظِرًا حتَّى نتخلَّصَ من كلِّ ضَجيجنا العقليِّ والكلاميّ، وراجيًا ألَّا نتوجَّهَ بعدَئذٍ مُباشَرةً عن مُخاطبته إلى مُخاطبة العالَم؟ ففي لُحَيظَةِ الصَّمت تلكَ بين وقتٍ توقُّفِنا عن التكلم إلى الله ومُباشَرةِ التكلُّم إلى العالَم، يُدخِلُ فينا الله نِعَمًا أكثرَ من أيِّ وقتٍ آخَرَ خارجَ إطار احتِفالنا بالمُمارَسات الكَنَسيَّة المُقدَّسة.

يقولُ أيُّوب عندَ نُقطَةٍ ما لأصدقائه الثَّرثارين الثلاثة: "أيُّ بَلاءٍ في وجوبِ أن تكونَ لكمُ الكَلِمةُ الأخيرة!" فإنَّهم مِثلُ مَلِكات "المسلسات الطويلة"، إذ ينتظِرنَ دائمًا عندَ باب المُغادِرة لكي يُلقِينَ "العِبارة الطنَّانة" ثُمَّ يُغادِرن. إلَّا أنَّ أيُّوب يفعلُ لله تمامًا ما يفعله أصدقاءُ أيُّوب لأيُّوب! فهُم لا يُصغون إلى أيُّوب لأنَّهم مُنشغِلون جدًّا بالتكلُّم إليه؛ وأيُّوب لا يُصغي إلى الله لأنَّه مُنشغِلٌ جدًّا بالتكلُّم إليه. وما يتوبُ عنه أيُّوب في النهاية، عندما يظهر الله، ليس أنَّه كان أسوأ من أصدقائه الثلاثة بل أنَّه كان مِثلَهم تمامًا! لقد كانوا مثل الرُّهبان البوذيِّين الزنِّيِّين الأربعة الذين نذروا الصَّمتَ طوالَ العُمر. فذاتَ يوم، أفلتَتْ من أحدِهم كَلِمَةٌ واحدة. فقال له الثاني: "لقد نقضتَ نَذْرَ صمتك". وقال الثالثُ للثاني: "أنت أحمقُ أكبرُ منه. فأنت أيضًا نقضَت نَذرَك!" فابتسمَ الرابعُ لنفسه وقال: "أنا الوحيدُ الذي لم ينقُضْه".

هل بقِيتَ مرَّةً صامِتًا نِصفَ ساعة، غيرَ مُتكلِّم بشَفتَيك أو بذهنك؟ سيكونُ عليك أن تتعلَّم ذلك الفَنَّ إذا أردتَ أن تُطيقَ السَّماء، لأنَّه سيَحدثُ في السَّماء سُكوتٌ نحوَ نصفِ ساعة بعدَ فَضِّ الختم السابع (رؤيا ٨: ١).

فإنَّما في الصَّمت فقط يقف الإيمانُ والاختبار في صفٍّ مضبوطٍ تمامًا، لأنَّ الإيمانَ يقولُ لنا إنَّ الله هو "أنا الكائنُ"، والصَّمتُ يَمكِّننا من أن نخبرَ معنى "أنا" وأيضًا معنى "الكائن"، أولويَّتَه وأيضًا حقيقتَه. وكما عبَّر لاوتْسو (Lao-tzu) فإنَّ "أولئك الذين يقولون، لا يعرفون؛ وأولئك الذين يعرفون، لا يقولون". لأنَّ "**الطريق** الذي يمكن التكلُّم بشأنه ليس هو **الطريقَ** الأبديّ". غير أنَّ **الطريقَ** قد تكلَّم إلَينا. "في البدء كان الكَلِمة"، لا مُجرَّدُ الصَّمت. نحنُ نحتاج إلى الصَّمت ليس لأنَّ الله سُكوتٌ بل لأنَّ الله **كَلِمَة**. فإنَّما في الصَّمت فقط يقفُ الإيمانُ والاختبار في صفٍّ مضبوطٍ تمامًا.

٣. مشكلةُ معنى الحياة

إنَّ أعظمَ الأسئلة كلِّها، السؤال الذي يشتملُ على جميع الأسئلة الأُخرى، هو ذاك الذي يطرحُه أيُّوب على الله في أيُّوب ١٠: ١٨ "لماذا أخرجتَني من الرَّحِم؟" بعِبارةٍ أُخرى: أيُّ نَوعٍ من القِصَّة أنا فيه؟ ما الكلامُ الذي عليَّ أن أتلوَه؟ أيُّ مسرحيَّةٍ هذه؟ لماذا وُلِدتُ؟ لماذا أنا حيٌّ؟ ما مَوضوعُ الرواية كُلِّها؟

إنَّه سؤالُ سِفر الجامعة أيضًا، ولكنَّ أيُّوب يتلقَّى جوابًا، أمَّا الجامعة فلا. وپاسكال يدعوهما أعظمَ فيلسوفَين، وأنا أُوافِقه. إنَّما لماذا تلقَّى أيُّوب جوابًا، وليس الجامعة؟ للسَّبب نفسه الذي من أجله تلقَّى موسى جوابًا عن الأسئلة التي طالَما تحزَّرَ الفلاسفةُ بشأنها، بِلا انقطاعٍ ولا جدوى، على مدى العصور: مَن هو الله؟ ما اسمُه؟ ما طبيعتُه؟ لقد كان لموسى ذَوقٌ سليمٌ

حتَّى سألَه! (راجِع خروج ٣: ١٤). والجامِعة يُشبهُ أصدقاءَ أيُّوب الثلاثة: إذ يتفلسَفُ بِلا انقطاعٍ **بشأن** الله. أمَّا أيُّوب فيُشبهُ موسى: إذ يسأل **الله**؛ إنَّه يطلبُ وجهَ الله. و"كلُّ مَن يطلب، يجد".

ولكنْ ليس مُدَّةً طويلة. فلماذا التمهُّل؟ ما معنى التمهُّل؟ إنَّ حياةَ أيُّوب التي يسأل عنها، ذاتُ جانِبَين: أن يَفتِّش وأن يَجِد. ومن الجليِّ أنَّ الجوابَ عن السؤال "ما معنى الحياة وغرضِها وغايتها وجوهرها وذُروَتها؟" هو في أن يلقى المرءُ الله. ولكنْ ماذا عن النِّصف الآخَر، أي التفتيش؟ لأجلِ مَن سمحَ الله أن يُعانيَ أيُّوبُ ويُفتِّش ويتعذَّب؟ ماذا كان من شأن الله أن يُبرهِن؟ أأيُّوبُ حَشَرةٌ في أُنبوبِ اختِبار لكَي يُشبعَ فُضولَ الله المُتراخِي أو الساديّ؟ أم عَمَدَ الله إلى رَفْع درجة الحرارة تحت أُنبوب الاختبار لكي يَكسِبَ رِهانَه مع إبليس؟

من الجليِّ أنَّ الله لا يفعلُ أيَّ شيءٍ لأجل الشَّيطان. فلا تسويغَ لتملُّق الخير للشَّرِّ، ولا حاجةَ إلى القُدرة على كلِّ شيءٍ لتَقديم أدنى مُهاوَدةٍ للشَّرّ. وجليٌّ أيضًا أنَّه ليس لأجل الله، لأنَّ العِلمَ بكُلِّ شيء لا يحتاجُ إلى اختبارات. إنَّ الله لم يكُن يحتاجُ لأنْ يعلَمَ بأنَّ إيمانَ أيُّوب سيَصمد. ولكنَّ أيُّوب كان يحتاجُ إلى ذلك. فلا بُدَّ أنَّ العذابَ والانتظارَ كلَيهما كانا لأجل أيُّوب، لخير أيُّوب، لغِبطة أيُّوب. حتَّى الصليبُ "هو الهديَّة التي يُهديها الله لأحِبَّائه"، كما يقولُ أحد القدِّيسين. الصَّليب على نحوٍ خاصّ!

إنَّ العالَم هو "وادٍ لِصَقلِ النَّفس"، دُكَّانُ نحَّاتٍ عظيم، ونحن التماثيل. فَلِكَي تُكمَّلَ التماثيل، يجب أن تحتملَ عدَّةَ ضَرَبات من الإزميل، وتُقَسَّى في النار. وليس هذا اختِياريًّا. فما إنْ فَقَدْنا براءتنا الأصليَّة،

حتَّى باتَ **واجبًا** أن يكونَ طريقُ العودة إلى الله مؤلِمًا؛ لأنَّ **إنسانَ** الخطيَّةِ **القديمَ** سيظلُّ يتَشكَّى ويتوجَّع عند كُلِّ خُطوةٍ حِيالَ عدوِّه، أي الصَّلاح. والقَولُ "لِتكُن لا إرادتي بل إرادتُك" كان فَرَحًا عذبًا في عَدْن، وسيكونُ كذلك في السَّماء، غير أنَّه مَهمَّةُ الحياةِ الأصعبُ (والأكثرُ ضرورةً) الآن. فمِن دونه، لا تكونُ لنا وُجوهٌ بها نُواجِه الله. ولماذا استَطاعَ أيُّوب أن يرى الله وجهًا لِوَجه ويبقى حيًّا؟ لأنَّ أيُّوب حصلَ على وجهٍ عبرَ إيمانهِ المُتألِّم. وكما يقول سي. أس. لِويس في نهاية روايته **"إلى أن تكونَ لنا وجوه"** *(Till We Have Faces)*: "كيف يُمكِنُنا أن نُقابِلَ الآلِهةَ وجهًا لوجهٍ إلَّا بعد أن تكونَ لنا وجوه؟".

ذلك هو معنى الحياة: أن تحصلَ على وجه، أن تصيرَ حقيقيًّا، أن تصيرَ أنتَ ذاتك... ولكنْ بطُرُقٍ ولأجل غايةٍ لم يحلُمْ بها مُجرَّدَ حُلم عُلَماءُ النَّفس الشَّعبيُّون الذين يقولون هذه الأُمورَ بصورةٍ عابِرة تمامًا. حقًّا إنَّ الحياةَ هي عمليَّةُ صَيرورتِكَ أنتَ ذاتَك... ولكنَّ هذه العمليَّة تتمُّ باحتمالِ العَناء، لا بارتكاب الخطيَّة؛ وبالقولِ "لا" كما بالقول "نعم"؛ بالصُّعود ضدَّ جاذبيَّةِ الذات الأنانيَّة، لا بالسُّبُل المُباشَرة التي تخصُّ "تحقيق الذات" وتحقيق الإمكانات الذاتيَّة. إنَّ معنى الحياة هو الحرب. وأعداؤنا ليسوا أقلَّ من اللَّحم والدَّم حقيقةً ورُعبًا، بل أكثرُ من ذَينِك. وما لم نهزمْهم، فإنَّنا سنموتُ مِيتةً أشدَّ يأسًا وهَولًا من أيَّةِ طَعنةٍ في ساحة القتال. فليس سَهلًا أن نحصلَ على وجه. وأيُّوبُ ليس استِثناءً، بل هو القاعِدة؛ فالبَليَّة التي وجبَ أن يُجيزَه الله فيها هي بليَّتُنا أيضًا، بطريقةٍ أو بأُخرى. غير أنَّ طريقَ أيُّوبَ ظاهرةٌ للعِيان بشكلٍ غير مُعتاد، مُجسَّدةٌ على

نحوٍ فائقٍ خارق. فليس كُلُّنا نفقدُ أولادَنا وصحَّتنا وأملاكَنا وثِقتَنا في يوم واحد. ولكن علينا كُلِّنا أن نتعلَّمَ كيف نفقدُ كلَّ شيءٍ ما عدا الله، لأنَّنا كُلَّنا سنَموت، ولأنَّك لا تستطيعُ أن تأخُذَ معك أيَّ شيءٍ ما عدا الله.

إنَّ الفلاسِفةَ يُقدِّمون بعضَ الأجوبة الجليلة والجميلة عن السؤال بشأن معنى الحياة وغَرَضِها وغايتها: الفضيلةِ، الحِكمة، الكرامة، الخُلُق، الفَرَح، الحرِّيَّة، "الحقِّ والخير والجَمال"؛ غير أنَّهم يتَجاهَلون السؤال الصغيرَ النهَّاش الذي يُقلِقُنا ويؤرِّقُنا فيما نُعجَب بهذه المُثُل الصادقة: كيف؟ كيف يتمكَّنُ هذا القزمُ من أن يطيرَ كذاك النَّسر؟ كيف أستطيعُ أن أعبُرَ من هُنا إلى هُناك، من **قبلُ** إلى **بَعدُ**، من العقل المخبول إلى السيِّد المسيح؟ "حسنًا، أنتَ الآن تعلَمُ لأجلِ ماذا أنتَ مَصنوع: كي تصيرَ مَخلوقًا مُشرِقًا مُتألِّقًا قويًّا جليلًا، يستطيعُ أن يحتملَ نور **السماء**، إلهًا أو إلاهةً بالحقّ. إذًا، انطلِقْ في هذا الأمر بنَجاح، رجاءً! تحوَّلْ إلى مخلوقٍ كهذا. كونوا قدِّيسين كما أنَّ الربَّ إلهَكُم قُدُّوس. كونوا كاملين كما أنَّ أباكُمُ السماويَّ كامِل". صحيح!

أنت ترى إذًا أنَّ قليلًا من العَمَل مطلوب، قليلًا من النَّحت، قليلًا من الحرب الروحيَّة. فما هو رائعٌ ليس أنَّ الله يُسدِّدُ إلينا ضَرَباتٍ كثيرةً جدًّا بإزميلِ نَحتِه، بل أنَّه يُدبِّر الأمرَ بضَرَباتٍ قليلةٍ جدًّا. وما هو رائع- إذ تَرى البُعدَ الشاسع بين مَوقِعِك الحاليِّ ومآلِكَ المستقبليِّ- كيف تنجحُ رحمةُ الله في إيصالنا إلى هناك بقليلٍ جدًّا من البَلاء، قليلٍ جدًّا من الألَم. وما هو رائعٌ ليس كم من الأُمور الرديئة تحدُث للنَّاس الصالحين، بل كم من الأمُور الصالحة تحدُثُ للنَّاس الأردياء. هذا هو ما يُدرِكُه أيُّوب حالَما يرى

الله في الأخير، وهذا هو السبب الذي من أجله يُجاوَب ويَرضى. ونحن أيضًا سنَحظى بذلك.

كان في وُسع الله أن يخلقَنا في السَّماء أوَّلًا، سُعَداء وأبرياء من الخطيَّة. فلماذا أعطانا بالأحرى وقتَ اختبارٍ على الأرض؟ للسَّبب عينِه الذي من أجله لا يُعطي المُعلِّم الصالحُ التِّلميذَ جميعَ الأجوبَة. ونحنُ نُثمِّنُ الحقيقةَ أكثرَ حين نهتَدي إليها بأنفُسنا. فعندئذٍ تصيرُ ملكَنا حقًّا. والحقيقةُ هنا ليست حقيقةً موضوعيَّة فحسْب، بل هي هُوِيَّتُنا الخاصَّة، وجهُنا الحقيقيّ. لقد صمَّمها الله، ولكنَّ الله يُرتِّب لنا أن نُشارِكَ في نحتها، أن نُعاوِنَ في تكوين ذواتنا الخاصَّة باختِياراتنا واختِباراتنا في الزَّمان. إنَّنا نكتشفُ مَن نحنُ بواسطة عَيشِ الحياة فقط.

وهذا يعني أنَّنا قبلَ أن نُكمَّلَ لا نعرفُ حقَّ المعرفة مَن نحن (حالَما نكفُّ عن خِداع أنفُسنا). إنَّه يعني أنَّ كلَّ حياةٍ هي أزمةُ هُوِيَّةٍ مُتطاولةٌ. إنَّما حياةُ أيُّوب هي مَرئيَّةٌ ومُفاجئةٌ أكثرَ فحَسْب. إذ كان هو في ما مضى أيُّوبَ البارَّ، أيُّوبَ الصِّدِّيق، أيُّوبَ القُدوةَ الصالحة، أيُّوبَ المُحبَّبَ لدى الله. أمَّا الآن فجميعُ هذه الألقاب قدِ انتُزِعَت، وهو كُتلةٌ من القُروح على كومةٍ من الرَّماد، يحكُّ جلدَه بكسرةِ إناءٍ خَزَفيّ. ولا عَجَبَ أنَّ أصدقاءَه الثلاثة، لمَّا وصلوا، لم يعرفوه (أيُّوب ٢: ١٢)! ولا بُدَّ أن يُذكِّرَ قارئُ الكتاب المُقدَّس بعَبدِ الله المُتألِّم في إشعياء ٥٢ و٥٣، ذاك الذي كان هو المَنبوذَ كأبرَصَ، ذاك الذي يُخفي الناسُ وُجوهَهُم عنه، ذاك الذي سِيقَ إلى خارج أبواب المدينة ليُصلَب، خارِجَ البَشَريَّة، مُبعَدًا عن شَركة شعبه كأنَّه "دودةٌ لا إنسان"، كما يقول المزمورُ الثاني والعشرون الذي اقتبسَ منه على الصَّليب. فأيُّوب

صورةٌ عن السيِّد المسيح، لا يُمكنُ تمييزُه تمامًا بحيثُ يُمكِن تمييزه تمامًا، لأنَّ هذا جُزءٌ ممَّا هو السيِّد المسيح في الواقع: لا يُعتَدُّ به، "دودةٌ، لا إنسان... مُحتقَرُ الشَّعب".

إنَّ المكانَ الوحيدَ الذي يستطيعُ فيه أيُّوب أن يَجِدَ هُوِيَّتَه هو في **مُنشئه وصانعِه**. والأمرُ ذاته يصحُّ بالنسبة إلى كلِّ إنسان، لأنَّنا كُلَّنا أشخاصٌ أبدعَهم **مُنشئٌ** واحد، فكيف يستطيعُ الشَّخص أن يَجدَ هُوِيَّته خارجَ **المُنشئ**؟ وهكذا، فإنَّ أيُّوب يَجِدُ هُوِيَّته فقط في أنَّه وجدَ إلهَه؛ فأيُّوب يحلُّ المشكلةَ الثالثة (هُوِيَّتَهُ وغايتَه) فقط في حلِّ المشكلة الرابعة، أعمقِ المُشكِلات، مشكلةِ الله، وإليها يجب أن نتوجَّه الآن.

٤. مُشكِلة الله

إنَّ "مشكلة الله" في أيُّوب ليسَت إنْ كان الله مَوجودًا أو غيرَ مَوجود. فالجاهلُ فقط يقول في قلبه: "ليس إله!" وهو يقولُ ذلك ليس لأنَّ العقلَ والدَّليل يُوَجِّهانه، بل لأنَّ شهواته المخادِعةَ الساعيةَ إلى إشباع الرَّغبات تقولُ له أنْ يتَظاهرَ بأنْ ليس من إلهٍ حتَّى يتمكَّن من أن يُخطئ بلا عِقاب (ذلك هو التَّحليل النفسيُّ الذي قدَّمه ناظمُ المزامير [مزمور ١٤] والرَّسول [رومية ١: ١٨-٢: ١] كلاهما).

وليست "مشكلة الله" أيضًا في مَن يكون أو في ماهيَّته في ذاته. فتلك هي مشكلةُ اللَّاهوتيِّ أو الفيلسوف. إنَّ مشكلةَ أيُّوب هي: ما (أو بالأحرى مَن) الله بالنِّسبة إليَّ؟ ما العلاقة؟

هناك مشكلتان بشأن الله في سِفر أيُّوب: الأُولى تتعلَّق بأيُّوب والتفتيش؛ والثانية تتعلَّق بالله واللِّقيان. فالمُشكِلة الأُولى هي لماذا أيُّوب في علاقةٍ سليمةٍ بالله في تفتيشه. والثانية هي لماذا يُبرهنُ الله، حالَما لقاه، أنَّه كفوءٌ بأن يُجاوِبَ عن جميع أسئلة أيُّوب وأشكال معاناته الأليمة حتَّى دونَ أن يُجيب عن أيٍّ من أسئلة أيُّوب، وحتَّى قبلَ أن يردَّ لأيُّوب جميع الأملاك الدُّنيويَّة التي سبقَ أن جرَّده منها. وفي سِفر أيُّوب مَقطعان مُحيِّران يُحدِّدان بدقَّة هاتَين المشكلتَين. الأوَّل هو أيُّوب ٤٢: ٧، حيث يستَحسِنُ الله كلامَ أيُّوب الهَرطقيَّ والتَّجديفيَّ ويستَهجنُ كلامَ الأصدقاء الثلاثةِ الرَّشيدَ والسَّديدَ والوَرِع. أمَّا الثاني فهو أيُّوب ٤٢: ١-٦، حيثُ أيُّوب- وهو الرَّجُل الأكثرُ تطلُّبًا والأقلُّ صبرًا والأصعبُ إرضاءً في الكتاب المُقدَّس- يَرضى ويشبعُ تمامًا.

إليكَ نصَّ العبارة المُحيِّرة الأُولى: "وكان بعدما تكلَّم الربُّ مع أيُّوب بهذا الكلام أنَّ الرَّبَّ قال لأليفاز التَّيمانيِّ: "قد احتمى غضبي عليك وعلى كِلا صاحِبَيك، لانَّكم لم تقولوا فيَّ الصَّواب كعبدي أيُّوب"" (أيُّوب ٤٢: ٧). ولكنَّ أيُّوب، باعترافه الشخصيّ، نطقَ لَغوًا (أيُّوب ٦: ٢ و٣). فقد حسبَ أنَّ الله كان عدوَّه، وأنَّ الله كان يخترعُ شَكاوى عليه بلا سبب، بل حسب أيضًا أنَّ الله لا بدَّ أن يخسرَ دَعوى قضائيَّةً عادِلةً ضدَّه! وكم يكونُ ذلك مُروِّعًا: أن تفوز في المحكمة ضدَّ الله. فأيُّ رجاءٍ يكون هناك عندئذٍ؟ إنَّ رجاءَنا الوحيد، كما يصوغه كيركغارد على نحوٍ أَسِرٍ جدًّا في عُنوانِ عِظة، هو "في التنوير الذي تتضمَّنُه الفكرةُ القائلة إنَّنا في مُواجَهة الله نحنُ دائمًا على خطأ". فإذا كان مَصدرُ كُلِّ صوابٍ هو نفسُه مُخطئًا، فليس لَدَينا عندئذٍ

أيَّةُ حقيقةٍ صائبة نتوافقُ معها، ونضعُ رجاءَنا فيها، ونشقُّ طريقَنا راجعين إليها كمَن يرجعُ إلى دياره. إنَّ كلامَ أيُّوب لَغوٌ سخيفٌ جامح، بل تجديفيٌّ أيضًا. فكيف يُعقَل أن يقول الله إنَّ أيُّوبَ قال الصواب؟

وكيف يُعقَل أن يقولَ الله إنَّ الأصدقاءَ الثلاثة لم يقولوا الصواب؟ إنَّ كلَّ قَولٍ فَردٍ قالوه يمكنُ أن نَجِدَه في عشرات المواضِع الأُخرى من الكتاب المُقدَّس. فهُم يُدافِعون عن الله؛ وهم أتقياء؛ وهُم مُستقيمو العقيدة. إنَّ وجهةَ نظرِهم هي تمامًا: "ليكُنِ الله صادقًا وكلُّ إنسان كاذبًا" (رومية ٣: ٤). وتَوقُّهم هو تمامًا: "قُم، يا ربُّ، لا يعتزَّ الإنسان!" (المزمور ٩: ١٩). فكيف يُعقَل أن يكونَ هذا خطأً، وأيُّوبُ مُصيبًا؟

ثمَّة "حَلٌّ" يقترحُه مُفسِّرون مُتطرِّفون، وهو أنَّ سِفر أيُّوب كتبَهُ مُهَرطِقٌ وأنَّه يُناقِضُ باقيَ الكتاب المقدَّس (كلُّ مَن يقول ذلك يبدو بالحقيقة أنَّه يعني أنَّ باقيَ الكتاب المقدس هَرطقيٌّ لأنَّه يُناقِض سِفرَ أيُّوب). وترى النَّظريَّةُ أنَّ أيُّوب مُصيبٌ حقًّا وأنَّ الله مُخطئٌ حقًّا: أيُّوب هو البَطَل والله هو الفَشِل. ولا شكَّ أنَّ هذه هي تمامًا الفِكرةُ الحمقاء التي يعبثُ بها أيُّوب إذ يتخيَّلُ فوزَه بدَعواه على الله في المحكمة. إنَّما يجب أن يُوجَدَ طريقٌ أفضل.

وبالحقيقة أنَّه يوجَدُ. فلاحِظْ بانتباهٍ ما يقوله الله في أيُّوب ٤٢: ٧- ليس أنَّ أيُّوب نطقَ بالحقِّ، بل إنَّه قال الصَّواب، أي تكلَّمَ صادقًا؛ وليس أنَّ الأصدقاءَ الثلاثة لم ينطقوا بالحقّ، بل إنَّهم لم يقولوا الصواب، أي لم يتكلَّموا صادِقين، كما تكلَّم أيُّوب. وما الفرق بين النُّطق بالحقِّ والتكلُّم بصِدق؟

إنَّه الفَرقُ بين الاسم والحال، بين الحقِّ في مَضمونِ ما يُقالُ والصِّدق في فِعلِ التكلُّم. فأنْ تقولَ الحقَّ أو لا تقولَه مسألةٌ مَوضوعيَّة؛ أمَّا أن تتكلَّمَ صادقًا أو لا تتكلَّم صادقًا فمسألةٌ ذاتيَّة، أيْ مسألةٌ شخصيَّة. إنَّ أيُّوب لم يتفوَّه بالحقِّ دائمًا، ولكنَّه تكلَّمَ بصدقٍ دائمًا. فكَلِماتُه لم تكُن دائمًا صادقةً في ميزان الحقّ، أمَّا هو فكان صادقًا. إذ كان يتحلَّى بمَزيَّة "**إيميث**"، الحقِّ والأمانة والصِّدق، في كِيانه وتصرُّفه. لقد كان لديه ما دعاه كيركغارد (على نحوٍ مُضَلِّل نوعًا ما) "الحقُّ بصفةٍ ذاتيَّة" (في **خُلاصةُ المُلحَق غير العلميّ**).

ماذا يعني هذا على وجه التَّحديد؟ يعني أنَّ أيُّوب يلتصقُ بالله، مُحافِظًا على الشَّركة الحميمة والشَّغَف والاهتمام، في حين أنَّ الأصدقاء الثلاثةَ تكفيهم صحَّةُ الكلمات، "استقامةُ العقيدةِ الميِّتةُ". فإنَّ كلامَ أيُّوب لا يعكسُ صورةَ الله على وجه الدِّقَّة والضَّبط، كما يعكسُها كلامُ الأصدقاء الثلاثة، ولكنَّ أيُّوبَ نفسَه على علاقةٍ صحيحة بالله، على خلاف الأصدِقاء الثلاثة- علاقةِ قَلبٍ ونفس، شَغَفِ "حياةٍ أو موت". وأنْ يكونَ المرءُ مُرتَبِطًا بالله بطريقة تتَّصف بأنَّها فقط محدودةٌ أو جُزئيَّة، أو مكبوحةٌ أو حذرة، هو ألَّا يكونَ مُرتَبِطًا بالله ارتباطًا حقيقيًّا. فالله هو إمَّا كلُّ شيء وإمَّا لاشيء. وأيُّوب يعتقد أنَّ الله قد خذلَه، بحيثُ إنَّ الله- بمعنًى من المعاني- قد صارَ لاشيئًا في نظره. فتِلكَ غلطة، غير أنَّ أيُّوب على الأقلِّ يعلمُ أنَّه يجب أن يشملَ الأمرُ كلَّ شيء، وإلَّا يكُن لاشيئًا. إنَّ الله محبَّةٌ لامُتناهية، ونقيضُ المحبَّة ليس البُغض بلِ اللَّامُبالاة. فمحبَّة أيُّوب لله يشوبُها البُغض؛ أمَّا محبَّة الأصدقاء الثلاثة لله فتَشوبُها

اللَّامُبالاة. إنَّ أيُّوب يبقى مُقترِنًا بالله، إنَّما يُخاصِمُه ويُشاكِسُه؛ أمَّا الأصدقاءُ الثلاثة فلهُم اقترانٌ بالله شكليٌّ مُهذَّب، يُذكِّرنا بزَوجَين لكُلٍّ منهما غُرفةٌ مُنفصلة وعُطلةُ استِجمام مُنفصِلة. غير أنَّ الأُسرةَ التي تُحارِبُ معًا تبقى معًا.

وثَمَّة سببٌ ثانٍ يُبيِّنُ لماذا تكلَّم أيُّوبُ بصِدقٍ بشأن الله. فالفارق الأوضح والأهمُّ بين خِطابات أيُّوب وخِطابات الأصدقاء الثلاثة هو فارقٌ يفوتُ انتِباهنا للسَّبب عينه الذي من أجله تفوتُ انتِباهَنا أسماءُ القارَّات المكتوبةُ على الخرائط بأحرُف بارزة، كما أنَّ "الرِّسالة المُختلَسة" (في حكاية پو الشهيرة التي تحمل هذا العُنوان بعينه)، وهي مَعروضةٌ للعِيانِ بجلاء، فاتَت انتِباهَ رجال الشُّرطة الذين كانوا يُفتِّشون بتدقيقٍ كُلَّ رُكنٍ وشِقٍّ بحثًا عنها: أنَّها كبيرةٌ جدًّا، وقريبةٌ جدًّا، وواضحةٌ جدًّا، كالأنفِ على وجهك (أو وجهي). وكان ينبغي أن يقومَ مارتِن بُوبَر بإرشادي إلى حقيقة الأمر، فإذا بهذا الاكتشاف عينه يُنيرُ كامِلَ سِفر أيُّوب كما لم يستطعْ سواه أن يُنيرَه: أنَّ الفارق هو تمامًا أنَّ الأصدقاء الثلاثة يتكلَّمون **بشأن** الله في حين أنَّ أيُّوب يتكلَّم **إلى** الله.

وهذا تكلُّمٌ **بصِدقٍ** لأنَّه تكلُّمٌ إلى الله كما هو الله، أي باعتباره شخصًا حاضرًا كلَّ حين، لا فريقًا غائبًا. فالتكلُّم إلى الله بصيغة المُخاطَب أقربُ وأوثقُ إلى المُتكلِّم المُفرَد الذي هو "أنا الكائنُ" في كَينونته الجوهريَّة من التكلُّم بشأنه بصيغة الغائب. ويقول بُوبَر: "الله هو "**الأنتَ**" الذي لا يمكنُ أن يصيرَ البتَّة **غائبًا** غيرَ عاقِلٍ أو مجهولًا". كما يقول أيضًا: "الله يمكن فقط أن يُخاطَب، لا أن يُشرَح"، للسَّبب نفسه.

افترضْ أنِّي في حضرتك، وإذا بكَ تبدأ بالتكلُّم إلى فريقٍ ثالث

عنِّي مُتجاهلًا إيَّاي. فهذا الأمر ليس فقط مُهينًا إلى حدٍّ بعيد، بل هو أيضًا خاطئٌ فوقَ الحدّ. إنَّه يُعامِلُ الحقيقيَّ مُعامَلةَ غير الحقيقيّ؛ يُعامِلُ الحضورَ كما لو كان غِيابًا. وهذا هو ما يفعلُه الأصدقاءُ الثلاثة دائمًا. فهم لا يُصَلُّون أبدًا، بل يَعِظون فقط. أمَّا أيُّوب فهو مُصَلٍّ دائمًا، مثل أُوغسطينوس في "**الاعترافات**": كلُّ كلمة مَنطوقٌ بها إمَّا إلى الله وإمَّا في حضرته. ولذلك يوجَدُ نورٌ باهرٌ جدًّا حتَّى وسطَ الارتباك؛ إذ يُصِرُّ أيُّوب على الوقوف في حضرة الله الذي هو نُور. إنَّ الأصدقاء الثلاثة يُحاوِلون أن يُولِّدوا نُورَهُم الخاصَّ بالمُحاجَّة عن الله بصفته فِكرةً مُميَّزة. ولكنَّ الله حاضِرٌ هناك تمامًا طوال الوقت، بين أيُّوب والأصدقاء الثلاثة- إذا جاز التعبير- باعتبارِه الفريق الخامس حول كومة الرَّماد. فأيُّوب مؤمنٌ بهذه الحقيقة الأساسيَّة، ومن ثمَّ يتكلَّم صادقًا (أعني إلى الله الذي هو حاضرٌ حقًّا)، في حين أنَّ الأصدقاء الثلاثةَ يتصرَّفون كما لو كان الله غائبًا. وذلك لأنَّ ضميرَ المَخاطَب ("أنت") يعني الحضور، أمَّا ضميرُ الغائب ("هو") فيعني الغِياب.

إنَّ الدرسَ الأكثرَ عمليَّةً الذي يمكن أن نتعلَّمه من أيُّوب- الدرسَ الأكثرَ عمليَّةً الذي يمكن أن نتعلَّمه على الإطلاق من أيِّ شيء- هو "مُمارسةُ حضورِ الله"، التمرينُ الأبسَطُ والأكثرُ جوهريَّةً في الحياة الواقعيَّة وفي القداسة. وهذان الأمران مُتماثِلان، لأنَّ كِلَيهما يعني تمامًا العيشَ في الواقع، لا الوهم، مُتصرِّفين باعتبار ما هو حقيقيٌّ حقيقيًّا. والحقيقةُ الأكثرُ جوهريَّةً هي الله الذي هو حاضر.

أمَّا المقطع المُحيِّر الآخر فهو جوابُ أيُّوب عن خِطاب الله:

"فأجاب أيُّوب الربَّ، فقال:
"قد علمتُ أنَّك تستطيع كلَّ شيء، ولا يعسرُ عليك أمر.
فمن ذا الذي يُخفي القضاء بلا معرفة؟
ولكنِّي قد نطقتُ بما لم أفهم؛ بعجائبَ فوقي لم أعرِفها.
اسمعِ الآن وأنا أتكلَّم؛ أسالُك فتُعلِّمني.
بسَمع الأُذن قد سمعت عنك؛
والآن رأتك عيني.
لذلك أرفض [أتراجع] وأندم [أتوب] في التُّرابِ والرَّماد"""
(أيُّوب ٤٢: ١-٦).

إنَّ أيُّوب هو الرجلُ الأكثر تطلُّبًا في الكتاب المُقدَّس، "توما الشكَّاك" المذكورُ في العهد القديم. فلماذا يرضى فجأةً سُقراطُ اليهوديُّ هذا؟ لم يُجِبِ الله عن أيٍّ من أسئلته، بل بالأحرى بدا أنَّ كلَّ ما يقولُه له كان "ماذا تعلَمُ أنت، على كلِّ حال؟ أيُّ حقٍّ لك في أن تعتقد أنَّك تستطيعُ معرفة الجواب، على كلِّ حال؟ مَن تحسبُ نفسَك، على كلِّ حال؟" حتَّى الإنسانُ العاديُّ لا بُدَّ أن يُخيَّبَ ويُحرَجَ إزاءَ جوابٍ كهذا، فكم بالأحرى أنَّ هذا الرئيسَ طارحَ الأسئلة يُخيَّبُ ويُحرَج؟

لنُجرِ اختبارًا فكريًّا صغيرًا كي نكتشفَ لماذا رضيَ أيُّوب. افترض أنَّ الله أعطى أيُّوبَ ما توقَّعه أيُّوب بدلًا ممَّا حصلَ عليه. افترضْ أنَّ الله أجابَ كلَّ واحدٍ من أسئلة أيُّوب بوُضوحٍ كامِلٍ ووفاءٍ شاملٍ بالمُراد (في وُسع الله بالتَّأكيد أن يفعلَ ذلك إن أراد). افترضْ أنَّ الله كتبَ لأيُّوبَ أدقَّ كتابٍ لاهوتيٍّ في العالَم. فالآن، ماذا تظنُّ أنَّ النتيجةَ ستَكون حينذاك؟

أظنُّ أنّي أعرفُ الجواب، لأنّي أعرفُ أيُّوب. فإنَّ أيُّوب كان سيَرضى ويقنعُ مُدَّةَ خَمسِ ثوانٍ بعد انتهائه من قراءة الكتاب، أو رُبَّما مدَّةَ خمس دقائق. ولكنْ بعدئذٍ كانت ستَنشأ أسئلةٌ أُخرى، مثلَ رؤوس العُدار (Hydra) [الأُفعوانِ الخُرافيِّ الذي كُلَّما قطعَ هِرَقل واحدًا من رؤوسه التِّسعة نبتَ محلَّه رأسانِ جديدان]: أسئلةٌ عنِ الأسئلة، أسئلةٌ عنِ الأجوبة، أسئلةٌ عن تفسيرات أجوبة الله. فإنَّ كُلَّ جوابٍ يُنتج عشرةَ أسئلةٍ إضافيَّة لذِهنٍ كذِهْن أيُّوب، أي ذهنٍ فَيلسوفٍ من الطِّراز الأوَّل، صادقٍ وذي شَغَف. ومن ثَمَّ، فإنَّ الحربَ الفكريَّة لا بُدَّ أن تبدأ من جديد. ومئاتُ الجنود الصغار المُنطلِقين من رأس أيُّوب لا بدَّ أن يُواجِهَهم مئةُ مُحارِبٍ كبير مُنطَلقينَ من عند الله. ولا شكَّ أنَّ هؤلاء سيُواجَهون. ولكنْ بعدَئذٍ لا بُدَّ أن ينطلق مئةٌ آخرون، أو ألف. فإنَّ للذِّهن البشريِّ قُدرةً لامحدودةً على التساؤل. ولا شيءَ يُمكِنُ أن يُوقِفَه، حتَّى الأجوبةُ، لأنَّ كلَّ جوابٍ يُثيرُ عشرةَ أسئلةٍ أُخرى. وفي الأخير تكونُ عندَنا ساحةُ قتالٍ فكريَّةٌ نُثِرَت فوقَها كُلِّها جُثَثُ الأفكار المقتولة، إساءاتُ الفهم المدحوضة، مُكوَّمةً بارتفاعِ كيلومترٍ وأكثر، فمن شأن هذه أن تتراكم أُسِّيًّا (على نحوٍ تضاعفيّ)، وأن تقفَ حائلًا ما بين أيُّوب والله، كما قامت بين أصدقاء أيُّوب الثلاثة والله. وخَطَرُ الحقِّ هو أنَّه يصيرُ غامضًا بفِعل الحقائق. إنَّما هنالك طريقةٌ واحدةٌ فقط لدَحرِ ذلك الخَطَر، وقدِ اعتمدَ الله تلك الطريقة مع أيُّوب. وقِوامُ الطريقة قِسمان. أمَّا القسم الأوَّل فسلبيٌّ: ألَّا يُعبِّرَ عن الحقِّ بالكلام، ألَّا تُقدَّمَ أجوبة، ولا حتَّى أجوبةٌ صحيحةٌ ووافية، ألَّا يُقطَع واحِدٌ من رؤوس العُدار لئلَّا يُفرِّخَ رأسَينِ جديدَين. وهكذا، فإنَّ الله لا يُجيبُ سؤالَ أيُّوب؛ بل يُجيبُ أيُّوبَ

بالأحرى. وذلك هو القِسمُ الثاني، قِسمُ القَلب. فكما أنَّ السيِّدَ المسيحَ دائمًا يُجيبُ السائلَ بدلًا من السؤال، إذ يرى أنَّ السؤالَ الحقيقيَّ هو السائلُ لا السؤال، القلبُ لا الكَلِمات، كذلك هنا يُجيبُ الله أعمقَ سؤلٍ قلبيٍّ لدى أيُّوب: أن يرى الله وجهًا لوجه؛ أن يرى **الحقَّ**، لا الحقائق؛ أن **يُقابل الحقَّ**، لا أن يعرفَه فقط. إنَّ أيُّوب يكتَفي ويرتَضي بالجواب الوحيد الذي كان يمكنُ أن يكفيَه ويُرضيَه، أكان في الزَّمان أم في الأبديَّة، الجوابِ الوحيدِ الذي يمكنُ أن يكفيَنا ويُرضيَنا في الزَّمان أو الأبديَّة، الجوابِ الوحيدِ الذي يمكن أن يدحَرَ السَّأَمَ و"باطلَ الأباطيلِ" النهائيَّ، الجوابِ الحاسِمِ لسفر الجامعة، كما للأصدقاء الثلاثة: **المُجيب**، لا الجواب.

"بسمع الأُذن قد سمعتُ عنك؛ والآن رأتك عيني". هذه ذُروةُ سِفر أيُّوب. هذه هي أهمُّ آيةٍ في السِّفر. هذا القول يُفسِّر كلَّ ما حدث، يفسِّر السببَ الذي من أجله أجازَ الله أيُّوب في كومة الرَّماد: لأجل هذه الغاية. فهذه غايةُ الحياة، معنى الحياة، غَرَضُ الحياة. هذا هو حلُّ مشكلة الشَّرّ، وحلُّ مشكلة التَّضاربُ بين الإيمان والاختبار، وحلُّ مشكلة هُوِيَّتي أنا، وحلُّ مشكلة الله، مشكلة مَن هو الله بالنِّسبة إليَّ. هذا هو جوابُ كلِّ شيء. فلا أحَدَ أبدًا، ولا حتَّى أيُّوب، يُمكِن ألَّا يكتَفيَ ويرتضيَ بهذا الجواب. ولا أحَدَ ستَثورُ لديه أيَّة أسئلةٍ أُخرى حالَما يرى هذا الجواب. ولا أحَدَ أبدًا سيَشعرُ بأنَّه مكسوفٌ ومُخذول، أو مخدوع، أو مُخيَّب، بهذا الجواب، مهما كان مُتطلِّبًا ومُستاءً بشأن كلِّ شيءٍ آخَر. فهذا هو الجواب الذي يملأُ فراغَ القلبِ البشريِّ اللَّامُتناهيَ، ذاك الفراغ الذي له شَكلُ الله. بل هذا هو الله!

إنَّ أعظمَ سؤالٍ سُئلَ على الإطلاق وأعظمَ جوابٍ قُدِّم على الإطلاق هُما في حادثةٍ جَرَت في أواخر حياة القدِّيس توما الأكوينيّ. فقد كان الأكوينيُّ وحدَه يصلِّي أمام المذبح (ولكنَّ صديقَه ريجِنالد [Reginald] كان يُراقِبه، وقد أكَّد تحت القَسَم أنَّه رأى وسمع ما جرى). وإذا بصَوت يخرجُ من فم السيِّد المسيح المعلَّق على الصليب قائلًا: "لقد كتبتَ عنِّي حسنًا، يا توما. فماذا تطلبُ أن تُعطَى مُكافأةً؟" وكان ذلك بعَينه هو السؤالَ الذي به استهلَّ السيِّد المسيح خِدمته العلنيَّة، في إنجيل يوحنَّا، السؤال العظيم: "ماذا تطلبان؟" (يوحنَّا ١: ٣٨). أمَّا الجوابُ العظيم المُساوي الذي قدَّمه الأكوينيُّ لله، الجوابُ الذي يجعلُ غُصَّةً في حَلقي وزقزقةً في قلبي كُلَّما قلتُه، فكان: "ذاتَكَ فقط، يا ربّ!" إنَّ اللَّاهوتيَّ الذي وجدَ آلاف الأجوبة- أجوبةً أكثرَ عددًا ووفاءً بالمُراد ممَّا وجدَ أيُّ لاهوتيٍّ آخر على مرِّ التاريخ- يطلبُ فقط الأمرَ الواحِدَ الذي تدعو إليه الحاجة، ذاكَ الذي أرادَتْه مَريَم وأرادَ السيِّد المسيحُ لِمَرثا أن تطلبَه (لوقا ١٠: ٤٢)، ألا وهو المسيحُ نفسُه. لذلك السَّبب اكتفى وارتضى حتَّى أيُّوبُ. فهو لم يحصل على ما ظنَّ أنَّه يحتاجُ إليه، بل حصل على ما كان يحتاجُ إليه حقًّا. إنَّه لم يحصُلْ على ما ظنَّ رأسُه ووعيُه أنَّهما يحتاجان إليه، بل حصل على ما عَلِمَ قلبُه ولاوعيُه العميقُ أنَّهما يحتاجان إليه، الأمرِ الواحد الذي نحتاجُ كلُّنا إليه. ونحن لا نستطيعُ أن نتمالكَ أنفُسَنا عن ذلك: فهكذا خلقَنا الله. إنَّ مِفتاحًا واحدًا فقط يُناسِبُ ذلك القُفل؛ وروميو واحِدٌ فقط يُرضي ويَكفي تلك الجولييت. "غَمرٌ يُنادي غمرًا": اللَّانهايةُ فقط يُمكن أن تقترنَ باللَّانهاية. فكما أنَّ أيَّ حيوانٍ لم يكُن مُناسِبًا لآدم (تكوين ٢: ١٨-٢٤)، كذلك

تمامًا ليس من مخلوقٍ يُناسِبُ القلبَ البشريّ، وبالأحرى ليس من مفهومٍ أو فكرة. إنَّ المفاهيمَ صُوَرٌ، والناس لا يستطيعون أن يقتَرنوا بِصُوَر (مع أنَّ كثيرين منَّا يُحاوِلون ويتَواصلون مع الصُّورة التي لنا في أذهاننا عمَّا نحلُم بأنَّ الشَّريكَ أو الصديق ينبغي أن يكونَه أكثرَ منهم مع الآخَرِ الحقيقيِّ الذي يُفجِّر حُدودَ كلِّ صورة). فأيُّوبُ اكتفى وارتضى لأنَّ الحياةَ كلَّها كانت مُغازَلة، وها هو الآن يتزوَّج في الأخير. ذلك أنَّ المُشاهَدة المغبوطة التي تنتظرُ جميعَ المؤمنين في السَّماء تُمنَح لأيُّوب لحظَةً على الأرض.

إنَّه الفَرقُ ما بين المعرفة غير المُباشرة والمعرفة المُباشرة، بين "سَمْع الأُذن" و"رؤية العين". كان أيُّوب قد سمعَ عن الله؛ أمَّا الآن فهو يرى الله. فكأنَّك لم تقابِلْ أباك قطُّ لأنَّه كان في الخارج حيث يخدم في "الجيش المُتغرِّب"، وكان يبعَثُ إليك برسائل تنقلُها وتشرحُها لك والِدَتُك (الكنيسةُ الأُمّ)، ثُمَّ ذاتَ يوم تخطَّى عَتَبة الباب قائلًا: "هأنذا!" وافترضْ أنَّ الرسائلَ كانت كامِلةَ الدِّقَّةِ والوفاء بالمُراد، وقد فسَّرَتها والدتُك بالتَّمام والكمال، فلا بُدَّ أن يبقى الفرقُ غيرَ محدودٍ بين "سَمْعِ الأُذن" و"رؤية العين". إنَّ لحظةً واحدةً في حضرته ستكونُ أثمنَ بما لا يُقاس من جميع الرَّسائل في العالَم.

يتصوَّرُ القدِّيس أُوغسطينوس- في عظَته "محبَّةُ الله الخالصةُ" - الله آتيًا إليك بسؤالٍ شبيهٍ بالَّذي طرحَه على القدِّيس توما. فالنُّقطة الأساسيَّة نوعٌ من امتحان الذات لتَتبيَّنَ هل تحوزُ "محبَّةَ اللهِ الخالصةَ"، أي هل تُطيعُ الوصيَّة الأُولى والعُظمى بأن تحبَّ الله من كلِّ قلبك ونفسك، في مركزِ كِيانِك ذاك العميقِ والخفيّ، حيثُ "اختيارُك الأساسيُّ" يُقرِّرُ مَصيرك الأبديّ.

ويفترضُ أُوغسطينوس أنَّ الله عرضَ عليك صفقةً فقال: "سأعطيك أيَّ شيءٍ تُريده. في وُسعك أن تمتلك العالَم كُلَّه. لن يكونَ أيُّ شيءٍ مُستحيلًا عليك. ستَحوزُ سُلطانًا مُطلَقًا. ولا شيءَ سيكون خطيَّة؛ لا شيءَ سيكون مُحرَّمًا. لن تموتَ أبدًا، ولَن تُعانيَ الألَمَ أبدًا، ولَن يكونَ أبدًا لك أيُّ شيءٍ لا تُريدُه، بل سيكون لك دائمًا أيُّ شيءٍ تُريدُه... ما عدا شيئًا واحِدًا فقط: لَن ترى وجهي أبدًا". فهل تقبَلُ تلك الصَّفقة؟ إنْ كان لا، فلَديك محبَّةُ الله الخالصة. وإليك السبب في ما قد فعلتَهُ توًّا: لقد تخلَّيت عن العالَم، بل أكثَرَ- عن جميع العَوالِم المُمكِنة وجميع العَوالِم المُتَصوَّرة وجميع العوالِم المُشتهاة- مُقابِلَ اللهِ فحسبْ. ثُمَّ يسأل أُوغسطينوس: "هل سَرَت قُشَعريرةٌ في قلبك لَمَّا سمعتَ الكَلِمات "لن ترى وجهي أبدًا"؟" إنَّ تلك القُشَعريرةَ هي أثمَنُ ما فيك؛ تلك هي محبَّةُ الله الخالصة!

لقد أحسَّ أيُّوب تلكَ القُشَعريرةَ في أثناء آلامه كُلِّها. فالأمرُ الذي ظلَّ يتحدَّث بشأنه ليس قُروحَه، ولا أملاكَه المفقودة، ولا حتَّى عائلتَه المفقودة، بل هو بالأحرى إلهُه المفقود. لقد بدا أنَّ الله تخلَّى عنه؛ لقد بدا أنَّه لن يرى وجه الله أبدًا. وذلك هو الأمرُ الذي تاقَ إليه أكثرَ الكُلِّ، حتَّى لو عنى موتَه. فإنَّه في الواقع قال ما قاله أُوغسطينوس في "**الاعترافات**": "فَلأمُتْ، إنَّما اسمحْ لي بأن أرى وجهَك فقط، لئلَّا أموتَ دونَ تَوقٍ إلى رؤيته" (أو في ترجمةٍ أُخرى: "فلأمُت، لئلَّا أموت؛ إنَّما اسمح لي بأنْ أرى وجهَك فقط").

أمرٌ واحدٌ فقط في الحياةِ مضمون: لا السعادة، ولا نِشدان السعادة، ولا الحرِّيَّة، ولا حتَّى الحياة. فالأمرُ الوحيد المضمونُ لنا هو الأمرُ الوحيدُ

الذي نحتاج إليه احتياجًا مُطلَقًا، ألا وهو الله. وتكمن الحِكمة جوهريًّا في أن نطلُبَ طلبًا مُطلَقًا ذاك الذي نحتاجُ إليه احتياجًا مُطلَقًا، في أن نُماثِلَ مطاليبَنا بالحقيقة. وأيُّوبُ أحكَمُ من الجامعة فوقَ كُلِّ مُضاهاة بسببِ هذا. فعلينا أن نَتَماهى مع أيُّوب، لا مع الجامعة، لأنَّ باطلَ الجامعة هو فلسفةُ جهنَّم؛ أمَّا بحثُ أيُّوب فهو فلسفةُ المَطهَر، وكلُّ واحِدٍ إنَّما يتخرَّجُ في جامعةِ المَطَهر بدرجةِ امتيازٍ إلى السَّماء.

نشيد الأنشاد

الحياةُ محبَّة

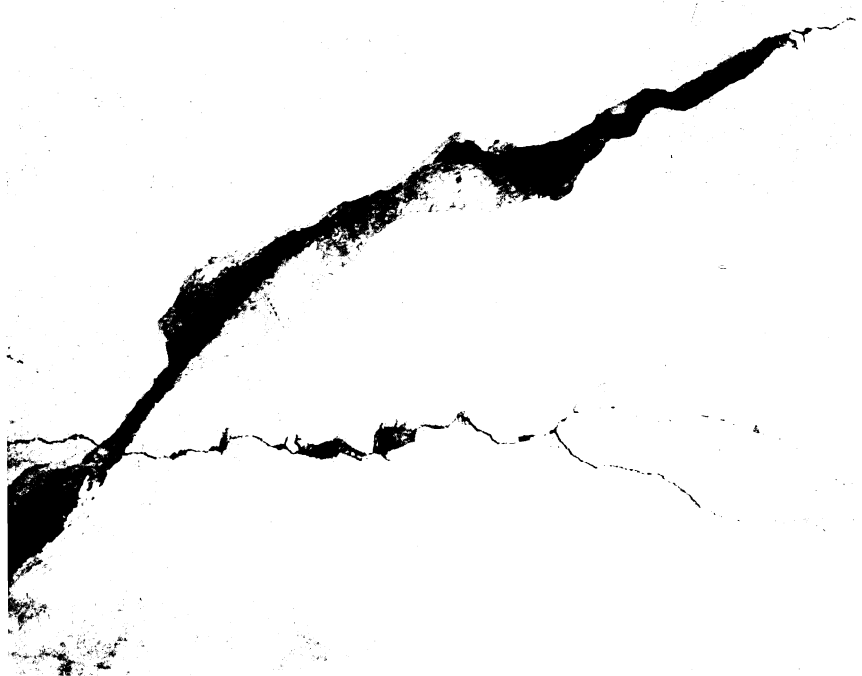

قبلَ أن أكتبَ أيَّ شيءٍ عن نشيد الأنشاد، يجبُ أن أعترفَ بمُشكلَةٍ وأُواجِهَها: أنّي أخوضُ غِمارًا أعمقُ من قامتي، سابحًا خارِجَ بِرَكتي، أو لاعِبًا بقُدرتي الضئيلة في ملعَب مُتبارِينَ كِبار. فما يزالُ هذا السِّفرُ هو المُفضَّلَ عندَ أعظمِ القدِّيسين والمُتصوِّفين، من أمثالِ القدِّيس برنار كليرڤو (Bernard of Clairvaux)، والقدِّيس يوحنَّا الصليبيِّ (John of the Cross)، والقدِّيس توما الأكوينيِّ الذي كان يكتبُ تفسيرًا له لمَّا تُوفِّيَ (كيف يناسبُ ذلك؟ أنَّ الله أنهى عَمَلَ مُصوِّر العُرس لمَّا باتَ جناحُ شهر العَسَل جاهزًا!) فكيف أستطيعُ أن ألعبَ في ملعبِ هؤلاء؟

لا أستطيعُ ذلك بالتَّأكيد. وليس عندي بالحقيقة أيُّ حلٍّ للمشكلة. فَلنَندَفِعْ إذًا على كُلِّ حال إلى حيثُ يخشى الملائكةُ أن يطأُوا. ولنُغامِرْ في اللَّعِب معًا. لَرُبَّما لا نتمكَّنُ من اللَّعِب في ملعبهم، غير أنَّنا نستطيعُ أن نلعبَ اللُّعبةَ عينَها. فنشيدُ الأنشاد هو عن الحُبِّ دون شكّ، والحُبُّ هو للجميع.

هذا، ونُشيرُ إلى مشكلةٍ أُخرى في البداية: أنَّ هذا السِّفر في الكتاب المُقدَّس هو الوحيد (ما عدا سِفر أستير في نُسخَتِهِ الأقصر) الذي لا يذكر أبدًا اسمَ الله ولو مرَّةً واحدة.[١٠] فكيف يُعقَل أن يكونَ هذا السِّفر هو المُفضَّل عندَ القدِّيسين؟

إنَّ الجوابَ عن هذا السؤال أسهلُ بكثير؛ لأنَّ الله حاضِرٌ في كلِّ مَوضِع من هذا السِّفر، على نحوٍ رمزيّ. فالعريس، سُلَيمان، المَلِكُ الشَّمس،

---

(١٠) من جرّاء غُموضٍ في الأصل العِبريّ، تختلف ترجماتُ نشيد ٨: ٦. وفي بعض الترجمات، كالترجمة العربيَّة المُتداولة، تُستعمَل كلمةُ الربِّ (يهوه بالعِبريَّة).

هو رمزٌ إلى الله، وعروسُه المُختارة رمزٌ إلى النَّفس، أو إلى شعبِ اختيارِ الله في القديم، أو إلى الكنيسة، شعبِ الله الجديد. وعندَ تفسير هذا السِّفر رمزيًّا، يبدو السِّفر الأكثرَ حميميَّةً في الكتاب المُقدَّس. فهو يَصِفُ غَرَضَ الحياة الأسمى، ذاك الذي وَجَدْناه في آخِر سفر أيُّوب: اللقاءَ و"الزواج" بين الله ونفوسنا. هذا هو رجاءُ القلبِ البشريِّ الأرفَعُ والأقدسُ والأسعد، الأمرُ الذي وُلِدنا كلُّنا جائعين إليه، باحثين عنه، توَّاقين إليه. وهذا هو الفصلُ الأخير في قصَّةِ الحياة، بيتُ القصيد والغاية القصوى لها كُلِّها.

وهو أيضًا المِفتاحُ المخفيُّ لباقي الكتاب المقدَّس. فلا شكَّ أنَّ الكتابَ المقدَّس هو عن الحياة الحقيقيَّة، وهو الكِتابُ الأكثرُ واقعيَّةً بين كلِّ ما كُتب على الإطلاق. وبيتُ القصيد في قصَّة الحياة الواقعيَّة هو المحبَّة. فالكتابُ المُقدَّس بكامله قصَّةُ حُبٍّ لأنَّ الله، مؤلِّفَه، هو محبَّة. ووراءَ مظاهرِ قِصَّةِ حَرب، أو قصَّةٍ بوليسيَّة أو مأساة، أو مَلهاة، أو فرصة، ما الحياةُ إلَّا قصَّةُ حُبّ. وهكذا، فإنَّ نشيدَ الأنشاد هو الجوابُ الحاسِم لسؤال الجامعة ولِمَطلب أيُّوب.

إنَّ السِّفرَ قصَّةُ حُبٍّ مُزدَوَجة، عموديَّة وأُفقيَّة، إلهيَّة وبشريَّة. فالوصيَّتان العُظمَيان هما أن نحبَّ الله وأن نحبَّ القريب (أي الآخَر). ومن ثَمَّ ينبغي أن تُفسَّر هذه القصيدةُ الغَزَليَّة على مُستويَين، إلهيٍّ وبَشَريّ. فالعريسُ يرمزُ إلى الله، ولكنَّه أيضًا أيُّ رجُلٍ، حرفيًّا؛ والعروس ترمزُ إلى النفس، ولكنَّها أيضًا أيَّةُ امرأة، حرفيًّا. وتفسيرُ سِفرٍ أو نَصٍّ بصورةٍ رمزيَّةٍ لا يستَوجبُ التخلِّيَ عن التفسير الحرفيّ. ذلك أنَّ بينَ مُعظَم دارِسي الكتاب المُقدَّس، المُختصِّينَ والهُواةِ على السواء، رأيًا مُسبَّقًا سخيفًا يتعذَّرُ الدِّفاعُ عنه، قائلًا إنَّ علينا أن نختار إمَّا التفسيرَ الرمزيَّ وإمَّا التفسيرَ الحرفيَّ لأيِّ سِفرٍ أو نصٍّ مُعيَّن.

فالقائلون بالعِصمة الحرفيَّة يتَّخذون تلقائيًّا مَوقِفًا عُدوانيًّا تُجاهَ الكلمة **رمزيٍّ** بحدِّ ذاتها، والعصريُّون يتَّخذون تلقائيًّا مَوقِفًا عُدوانيًّا تُجاهَ الكلمة **حرفيٍّ**. وأنا أعتقدُ أنَّه قد آن الأوانُ كي نكتشفَ من جديدٍ غِنى "أُسلوبِ التفسير الرُّباعيِّ" الحكيم والسَّليم، ذاك الذي اعتمدَه توما الأكوينيُّ ولاهوتيُّو القُرون الوُسطى، ونتمسَّكَ من جديدٍ بالقمم التأويليَّة التي هَوَينا منها.

إنَّ نشيدَ الأنشاد يستخدمُ الحُبَّ الرُّومانسيَّ والزواج، بدلًا من أيِّ شَكلٍ آخَر من أشكال الحُبِّ البشريِّ الكثيرة، كرمزه المُختار إلى محبَّة الله، لأنَّ الحُبَّ الرُّومانسيَّ والزواج يُشكِّلان المحبَّةَ الأكمل والأمثل بين جميع المَحبَّات البشريَّة الأُخرى. ومن الأُمور التي سنراها في سَبرِنا أغوارَ النَّصِّ (النُّقطة ٢٤) ذلك تمامًا: تضمينُ الصَّداقة والمودَّة والرَّغبة والمحبَّة الباذلة في توليفةٍ غنيَّة، كالقهوةِ الفاخرة.

يُعطي الزَّوجُ والزَّوجة أحدُهما الآخر كلَّ ما يمكنُ إعطاؤه بَشَريًّا: ذاتَيهما الكامِلتَين، جسدًا ونفْسًا، الحياة والوقت والأصدقاء والعالَم والمُمتلَكات والأولاد... فلا شيءَ يُبخَلُ به. لذلك تُعارِضُ الكنيسةُ وسائلَ مَنعِ الحَمْل الاصطناعيَّة؛ لأنَّ في ذلك حَجبًا مقصودًا للعُنصر التَّناسُليِّ في الزواج، كما أنَّ أطفالَ الأُنبوب يُشكِّلون الخَيلولةَ العمديَّةَ دونَ العُنصر الاتِّحاديِّ، والوَساوِس الفكتوريَّة البيوريتانيَّة[١١] تحجبُ عُنصرَ المتعة الجنسيَّة

(١١) البيوريتانيُّون (Puritans) أو التطهُّريُّون هم طائفة بروتستانتيَّة ظهرت في إنكلترا في القرنَين السادس عشر والسابع عشر. طالبَتْ أعضاء هذه الطائفة بتبسيط طقوس العبادة، والتمسُّك بأهداب الفضيلة. وعُرفوا بآرائهم التي تُعدُّ متشدِّدةً على الصُّعد السياسيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة، إضافةً إلى التشدُّد في العلاقات الأُسريَّة بين الزوجَين من جهة، وبين الوالدَين والأولاد من جهةٍ أُخرى (الناشر).

المُبهِج. غير أنَّ الله صمَّمَ الثلاثة جميعًا بحيثُ تكونُ واحِدًا: علاقةً حميمةً، اتِّحاديَّةً وتناسُليَّة وجنسيَّة، فيها "يصير الاثنان جسدًا واحدًا"، تناسُلَ الفريق الثالث ونشوةَ الفريق الأوَّل اللَّاأنانيَّة. فذلك كُلُّه هُنا.

هذه هي الخُطوة التالية بعدَ أيُّوب، الخُطوة المُفضيَة من المَطهر إلى السَّماء. فإنَّ باطلَ الجامعة كان الجحيم على الأرض، وآلام أيُّوب كانتِ المَطهَر على الأرض، أمَّا حُبُّ سُلَيمان فهو السماء على الأرض. إنَّ الأرضَ تذوُّق سَبْقيٌّ، أو مداعَبة. فإذا فتحَ الموتُ أبوابَ الخُروج من الأرض، وتدفَّقَ نورُ محبَّة الله إلى عينَي التائبِ المُطهَّرِ المذهولتَين التوَّاقتَين في دفقاتٍ من ذَهَب، يكونُ تلكَ اللحظةَ في السَّماء، حتَّى لو كان في المَطهَر أيضًا. ذلك أنَّ مَغاسِلَ قَصرِ السَّماءِ ذاتَها هي مِن ذَهَب؛ فالدَّفقات المَطهريَّةُ التي تغسلُ آخِرَ لطخات الخطيَّة ما هي إلَّا دفقاتُ محبَّة الله. لذلك يقول القدِّيسون إنَّ في المَطهَر ألَمًا وفرحًا على السَّواء. فمع أنَّ الجِراحِ تنسلخُ، والقَذارةَ تُحاوِلُ أن تبقى مُلتصِقةً بالجسم في مُواجَهة التدفُّق الذهبيّ، فإنَّنا لن ننكمشَ بذُلٍّ في حمَّام المَطهَر، بل سنطلبُ المزيدَ بوُجوهٍ مَرفوعة إلى أعلى. وذلك تمامًا هو وَضعُ أيُّوبَ حين يُوافيهِ الله. فمع أنَّ قدمَيه كانتا ما تزالان على كومة الرَّماد، فإنَّ رأسَه هو في المجد.

هذا مَثَلٌ عن وَضْع كلِّ مؤمن بالسيِّد المسيح. فإنَّ السيِّدَ المسيح لم يؤسِّس سماءً مُباشَرةً على الأرض. إنَّه لم يُقوِّم جميعَ مساوئ العالَم بمجيئه الأوَّل، بل زرعَ فقط بِذارَ ذلك الفداءِ الكَونيّ. فحَقلُ الأرضِ وطبيعتِنا البشريَّة لم يَعُدِ الآن قاحِلًا، بل هو ملآنٌ ببذار الحياة الإلهيَّة. ولكنَّ نُموَّ البذار يستغرقُ وقتًا، شأنُه شأنُ مجيء الملكوت، ونحن مُوصَون بأن نُصلِّيَ

ونعملَ لأجل ذلك المجيء، ذلك النُّموِّ، حتَّى لو كُنَّا الآن لا نرى الثِّمار، أو حتَّى الأزهار، أو حتَّى الأوراق، أو حتَّى النامِيةَ الخضراء المرئيَّة فوقَ تُربة النَّبتة الخارقةُ للطَّبيعة التي غرسَها الله في العالَم بالتجسُّد، وفي نفوسنا بالإيمان والمعموديَّة والولادة الجديدة.

إنَّ نشيدَ الأنشاد يُكمِل "**الكوميديا الإلهيَّة**" الخاصَّةَ بنا، ولكنْ يجب أن نشكرَ الجامعة وأيُّوب أيضًا، لأنَّ أيُّوبَ كان مَن أتى بنا إلى هنا، والجامعةَ كان مَن دفعَنا إلى طَلَبِ هذا "الهُنا"، هذه السماء، من خلال الصِّدق بشأن هَولِ البَديل.

لدى قراءةِ نشيد الأنشاد أوَّلَ مرَّة، يتحيَّرُ كثيرٌ من القُرَّاء العصريِّين من أنَّ أحَدًا- وأقلَّ بكثيرٍ مُعظمَ الجنس البشريِّ على مدى قرون- يزعمُ أنَّ هذه أعظمُ قصيدةٍ غزليَّة على الإطلاق. فمن الجليِّ أنَّ هَهُنا أكثرَ ممَّا تُلاقيه العينُ التي من دون إعانة. وإذا أُعينَتِ العينُ بالرؤية الثُّنائيَّة من عَدَسة مُحِبٍّ وعدسة شاعر، يُمكِنُ أن تُرى أبعادٌ وأعماقٌ جميلةٌ على نحوٍ مُذهِل. وإليكَ بعضًا منها: ستًّا وعشرين مزِيَّةً من مزايا المحبَّة، البشريَّةِ والإلهيَّة على السَّواء، تتضمَّنها هذه القصيدة. فإذا كنتَ تَطلُبُ المزيد، في الكمِّيَّة والنَّوعيَّة على السواء، توجَّهْ إلى القدِّيسين.

١. المحبَّة نشيد

إنَّ الأمرَ الأوَّل والأجلى الذي يقولُه نشيدُ الأنشاد بشأن المحبَّة يقوله في عنوانه بالذَّات: أنَّ المحبَّة نشيد. والآن، لا شكَّ أنَّ هذا التَّعبير هو صورةٌ أو

رمز. فالمحبَّة ليسَت نشيدًا حرفيًّا مادِّيًّا، وإنْ كان من الطبيعيِّ أن تُعبِّر عن نفسها بهذا الشَّكل. تُرى، بِمَ تُوحي هذه الصُّورة؟

الله محبَّة، والموسيقى لُغَةُ المحبَّة؛ فالموسيقى إذًا لُغَةُ الله. إنَّ الموسيقى لُغَةٌ أعمقُ من الكلام. فكم مرَّةً سمعتَ مَقطوعةً موسيقيَّة عظيمة وشعرتَ بذلك؟ إنَّ الموسيقى العظيمة تجعلُك تشعرُ ليس فقط بحُسْنِ الحال؛ بل إنَّها تُوحي بحقيقةٍ عميقةٍ ما أو بمعنًى خفيٍّ هو صحيحٌ موضوعيًّا ولكنْ لا يمكن أن يُترجَمَ إلى كلمات. فمُحاولاتُ ترجمةِ معنى الموسيقى إلى كلمات، تُخفِقُ دائمًا. إنَّها تُشبهُ مُحاوَلةَ التعبير عن رمزٍ بصورةٍ مجازيَّة، مُحاوَلةَ تقليصِ شيءٍ له عدَّةُ مَعانٍ غير حرفيَّة، أو غير لفظيَّة، إلى معنًى حرفيٍّ أو لفظيٍّ واحد. والمحبَّة تُلائم هذا النَّموذج: (١) ليست شعورًا ذاتيًّا فقط، بل حقيقةٌ موضوعيَّة أيضًا؛ (٢) هي غامِضة ومُفعمة بالمعنى على السواء؛ (٣) معناها لا يُقلَّص أبدًا إلى كلمات. فإنَّ شَرَكَ الكلماتِ الخشبيَّ لا يمكن أبدًا أن يمسك سلطعون المحبَّة، كما أنَّ "تأويلًا" خشبيًّا لمعنى مقطوعةٍ موسيقيَّة لا يمكن أبدًا أن يمسكَ الموسيقى نفسَها.

أعتقِدُ أنَّ الموسيقى كانتِ اللغَة التي بها خلقَ الله العالَم. فإنَّ سي. أس. لِويس في سلسلة عالم نارنيا (في **ابنُ أُختِ الساحر** [The Magician's Nephew])[١٢]، وجاي. آر. آر. تُولْكين (في **السِّلماريليون** [Silmarillion]) يحكيانِ كِلاهما هذه القصَّة، وهي تعود إلى تقليدٍ قديم جدًّا، ربَّما كان أقدمَ من فيثاغوراس [Pythagoras] و"موسيقى الكواكب" *(Music*

(١٢) سلسلة عالم نارنيا من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

of the Spheres) لَدَيه. ونحنُ المُحدَثين نُفكِّر في الموسيقى عادةً باعتبارها حِليةً مُتأخِّرة زيدَت على الكلام، غير أنِّي أظنُّ أنَّ العكسَ هو الصحيح؛ الكلامُ تطوُّرٌ مُتأخِّرٌ من الموسيقى. فليس الغِناء شِعرًا خياليًّا، وليس الشِّعرُ نثرًا خياليًّا؛ بلِ النَّثر شِعرٌ مُتصلِّب، والشِّعرُ غِناءٌ مُتصلِّب. وسببُ اعتقادي هذا هو لأنَّه (١) "في البدء... الله"؛ (٢) "الله محبَّة"؛ (٣) المحبَّة ليست كلامًا. فنحن لا نتكلَّم أبدًا بشأن "خُطَبِ الحُبّ"، بل بشأن "أغاني الحُبّ" فقط.

إذًا، في البدء كان نشيدُ الأنشاد. فهذا السِّفر يعودُ بعيدًا حتَّى إلى ما قبلَ التكوين، إلى قَلبِ "الثالوث" الأزليّ.

٢. المحبَّة أعظمُ نشيد

كذلك تكمنُ في العنوان أيضًا فِكرةُ أنَّ المحبَّةَ ليست فقط نشيدًا بل هي أيضًا "نشيدُ الأنشاد"، أعظَمُ الأناشيد. فليس في اللُّغة العِبريَّة صيغةُ تفضيل عُليا للمُقارنة، بل تستخدمُ بالأحرى هذه الصيغة: "المَلِك الأعظم" هو "مَلِك المُلوك"، و"النشيد الأعظم" هو "نشيد الأنشاد" (يجدرُ بالذِّكر أنَّ العناوين الأصليَّة، في الأسفار المُقدَّسة العِبريَّة، هي دائمًا أوَّلُ آيةٍ في السِّفر، لأنَّ هذه المكتوبات كانت دُروجًا، لا كُتُبًا، ولم يكن لها غِلافٌ مُنفصِل أو صفحةُ عُنوان).

فماذا يعني أن تُدعى المحبَّة "أعظمَ الأناشيد"؟ يعني أمرَين، على الأقلّ. أمَّا الأوَّل، على النَّحو الأوضح، فهو أنَّ المحبَّة هي العُظمى في

القيمة. والقصيدة نفسُها تقولُ هذا قُبَيلَ الخِتام: "إنْ أعطى الإنسان كلَّ ثروة بيته بَدَلَ المحبَّة، تُحتقَر [الثَّروةُ] احتقارًا" (نشيد ٨: ٧). فلا شيءَ يُمكن أن يشتريَ المحبَّة لأنْ لا شيءَ ثمينٌ كالمحبَّة؛ لا شيءَ يُمكن أن يُستبدَل بها (هذا أيضًا سببٌ من أجله يجب أن تكونَ المحبَّة مجَّانيَّة، كما سنَرى في ما بعد). ونشيدُ الأنشاد هنا يستَبِقُ ١كورنثوس ١٣: "ولكنَّ أعظمَهُنَّ المحبَّة".

غير أنِّي أعتقدُ أنَّ هُنالك أيضًا معنًى ثانيًا مُضمَّنًا: المحبَّة هي العُظمى في **الحجم**. فإنَّ نشيدَ الله الذي تُنشِدُه محبَّتُه الخلَّاقة، أي حياتَنا، يتضمَّن جميعَ الأناشيد الأُخرى. إنَّ المحبَّةَ هي معنى الكُلّ. فنحن جميعًا نُوتاتٌ في سِمفونيَّة الله. وعندما نصغي فقط إلى نُوتَتِنا الخاصَّة، أو إلى النُّوتات القليلة حَوالَينا، لا يبدو لنا أنَّ هنالك موسيقى أو محبَّة؛ ولكنْ عندما ننكفئ وننظرُ إلى الكُلِّ كاملًا، يحلُّ كلُّ شيءٍ في محلِّه فتبرز موسيقى عظيمة. لا شكَّ أنَّنا لسنا في وَضعٍ يُمكِّننا من القيام بهذا "الانكِفاء" بقُدرتنا الذاتيَّة. فكيف يُتاحُ لنا أن نحوزَ وجهةَ النَّظر بعَين الله؟ فقط إذا أعلنها الله لنا، كما فعلَ هنا. والإيمانُ يعني تصديقَ هذا الإعلان. فإنَّ مُشارَكة عَين الإنسان في وجهة نظر عين الله هي تحديدًا عينُ الإيمان.

والفَرقُ العمليُّ الذي تُحدِثُه هذه الصُّورة فَرقٌ هائل. فإنِ اعتقدتَ أنَّك تُصدِرُ فقط ضجيجًا لا معنى له، فأنتَ في "باطِل" الجامعة. وإنِ اعتقدتَ أنَّك تُصدِرُ موسيقى، فأنتَ في المحبَّة. لذلك السَّبب سِفرُ أيُّوب دراماتيكيٌّ جدًّا: أنَّ سؤالَ أيُّوب هو جوهريًّا: هل أنا أصدرُ ضجَّةً فحسْب، أم أنِّي أصدِرُ موسيقى؟ أفي الباطل أنا، أم في المحبَّة؟

إنَّ الصُّورة الأُسطوريَّة تَستخدمُ جُزءًا كي ترمز إلى الكُلّ. مثلًا، الأرضُ بيضة عظيمة؛ العَوالِم التِّسعة تطلعُ من الإغدراسيلة، شجرةِ الدَّردار الكونيَّة[١٣]؛ العالَم يستقرُّ على ظهر سُلَحفاة هائلة؛ الحياة طبقُ كَرَز. هذه الصُّوَر كلُّها تلتمسُ أن تُدرِكَ شيئًا من الكُلِّ بالاستخدام الرمزيِّ للجُزء. فإنَّنا لا نملك أيَّ مفهوم عن الكُلّ، عن معنى كلِّ شيء؛ لأنَّ المفاهيمَ يجب دائمًا أن تكون مُحدودةً ومَحدَّدة ومُبيَّنة مُقارَنةً بشيءٍ آخر. فالعقلُ البشريُّ المحدود يمكن أن يُدرِكَ فقط المفاهيم المحدودة. ولكنَّ هنالك طريقةً بها يُمكِنُ للمفهوم المحدود الجُزئيِّ أن يعنيَ الكُلَّ أو يُوحيَ به، ألا وهي الرَّمزيَّة. فالكُلُّ شيءٌ يُشبهُ بيضةً، أو شجرة، أو سُلَحفاة، أو طبقَ كَرَز. وهكذا، فإنَّ السيِّدَ المسيح استخدمَ دائمًا صُوَرًا رمزيَّة دراماتيكيَّة، تُدعى **أمثالًا**، للإيحاء بماهيَّة "ملكوت السَّماوات" الغامِضِ والمُتعذِّر التعريف، لكنِ الحقيقيِّ والمُحدَّد جدًّا: أنَّه يُشبهُ بزرةَ خردَل، أو شَبَكةً لصَيد السَّمك، أو لؤلؤة ثمينة، أو كَرْمًا. فالصُّورة تُساوي ألف كَلِمة، ولا سيَّما إذا كانت صُورةً مؤثِّرة، أو حكاية. وبطريقةٍ ما، يمكن أن توحيَ هذه الرُّموزُ التصويريَّة بأكثرَ ممَّا يمكن أن تقول.

والآن، فإنَّ السؤال الجوهريَّ لدى الحكمة، لدى جميع أسفار الحكمة الثلاثة التي نَستكشِفُها، هو: ما الحياةُ البشريَّة، وما الوجودُ البشريّ؟ وقد كان جوابَ الجامعة تلك الكلمةُ الرهيبة "باطل" أو عَدَم أو خَواء. وعرف

---

(١٣) الإغدراسيلة (Yggdrasila) هي شجرةٌ هائلة في الميثولوجيا الجرمانيَّة (ألمانيا والدول الاسكندنافيَّة)، وتُسمَّى أيضًا شجرة الدردار الكونيَّة (Cosmic Ash Tree)، وهذه الميثولوجيا كانت منتشرةً هناك في عصور ما قبل المسيحيَّة (الناشر).

أيُّوب معنى الحياة باعتبارها مُعاناة، إنَّما لأيَّة غاية، فهو أمرٌ لم يعرفه قبل النهاية. أمَّا جواب نشيد الأنشاد فهو أنَّ الحياة كلَّها نَشيد محبَّة، أو أُغنيَّةُ حُبّ. فكلُّ جُزَيئ تحت ذرِّيّ، من **الانفجار الكبير** إلى شيخوخة الشَّمس، هُوَ نُوتَةٌ في هذه السِّمفونية، المُعقَّدة على نحوٍ لا يُصدَّق. وكلُّ حادثة، كلُّ ما حدث على الإطلاق، سقوطُ كُلِّ شعرة وكُلِّ عُصفور، هو موضوعٌ في نَغَمِ هذا النشيد، الكاملِ كمالًا مُذهِلًا. ولكنَّنا نحنُ الذين في النَّشيد لا نسمعه ولا نعرفه حتَّى يقولَ لنا **المُنشِدُ** الذي هو خارِجَ النشيد والذي وحدَه يستطيع أن يعرفَ بيتَ القصيد في الكُلّ. فكما قال فيثاغورس إنَّنا لا نسمع "موسيقى الكواكب" للسَّبب عينه الذي من أجله لا يسمعُ الحدَّاد ضربَ المِطرَقة على السَّندان؛ لأنَّه قريبٌ إليه جدًّا وقد اعتادَ سماعَه جدًّا. كذلك لا نسمعُ نحنُ الكُلَّ حتَّى نصيرَ خارِجَ الكُلّ، أي بعدَ الموت؛ حتَّى نكونَ **نحن** قد بلغنا **الكُلَّ** بعدَ الموت. ففي السَّماء سنَسمعُ أنفُسَنا مُنشِدين، أي سنَسمعُ ما كُنَّا قد أنشدناه.

٣. المحبَّة حوار

القصيدةُ مَصبوبةٌ في قالَبٍ حِواريٍّ، حيثُ يُنشِد العريس والعروس أحدُهما للآخر تَجاوُبيًّا، لأنَّ المحبَّة في الجوهَر حِوار، وشكلُ القصيدة الكاملة يُظهِر المضمون؛ الواسِطة تُظهرُ الرِّسالة.

هنالك فقط ثلاثُ رسائلَ جوهريَّة، ثلاثُ فلسفاتِ حياةٍ مُمكِنة. فحَسَبَ الإلحاد، هنالك فقط المُناجاة الذاتيَّةُ البَشَريَّة، دونَ إلهٍ يُجرى الحوارُ معه. وحَسَبَ وَحدةِ الوجود (أو الحُلوليَّة)، هُنالك فقط مُناجاةٌ

ذاتيَّة إلهيَّة، دونَ عالَمٍ مخلوقٍ من النُّفوس الحُرَّة يُجرى الحوارُ معه. فالكُلُّ واحِد. إنَّما فقط حَسَبَ الإيمان بوجود إلهٍ، هُنالِك حِوارٌ بين **خالِقٍ** ومخلوق. ففي الإيمان بوجود إلهٍ فقط تُواجِهُ البَشَريَّة كائنًا آخَر.

وهكذا، فإنَّ الحوارَ بين الحبيبَين ينمُّ عن فلسفةِ حياةٍ كاملة. وليس من قبيل الصِّدفة أن يزدهرَ شِعرُ الغَزَل في الحضارات التي تؤمن بوجود الله أكثرَ منه في الحضارات المُلحِدة أو تلك المؤمنة بوحدة الوجود.

إنَّ الحوارَ ما بين مَخلوقَين ذكَرٍ وأُنثى يعكس الحِوارَ **داخِلَ الخالِق**، الحِوارَ ما بينَ الآبِ والابنِ ذاكَ المُتَمثِّلَ أزليًّا في الروح القُدس. فالحياةُ حوارٌ في الجوهر لأنَّ الحياةَ انعِكاسٌ لله؛ وحياةُ الله بذاتها، حياةُ **الثالوثِ** الأزليَّةُ الداخليَّة، هي حوارُ المحبَّة. ومَقصودٌ لنا أن نكونَ بعضُنا مع بعضٍ لأنَّ الله أزليًّا بعضُه مع بعض؛ فحقيقة وجوده "بعضِه مع بعض" تتوغَّل إلى داخل قلبِ الله تمامًا. إنَّ الغَيريَّةَ والتَّعدُّديَّةَ والشخصيَّةَ الفرديَّة والعِشرةَ هي جوهريَّةٌ مثلَ الوحدانيَّة. ذلك هو الأمر الذي تُخفِقُ الحُلوليَّة في إدراكه: أنَّ "الكينونة معَ..." هي طبيعةُ "الكينونة" ذاتُها؛ أنَّ العَلاقة ليست مَقولةً عَرَضيَّة وزيادةً خارجيَّة، كالزَّمان والمكان؛ أنَّ علينا أن نُدرِجَ ضمنَ لائحتنا التي تضمُّ "المُتَساميات" - أو الخصائصَ الكونيَّة لكلِّ كينونة- ليس الوحدة فقط بلِ الكثرةَ أيضًا، وليس التماثل فقط بلِ الآخَريَّة أيضًا، وليس فقطِ الحقَّ والخير والجمال بل أيضًا المحبَّة، على الأقلِّ في شكلها الأكثر بَدائيَّةً، الكامنِ في الميل المُتأصِّل إلى "أن نكونَ مُقابِلَ آخَر". حقًّا إنَّ أبسطَ مُحادَثة تنمُّ عن أسمى سِرّ!

٤. المحبَّة مُتعاونة

لا تُوجَد أيَّةُ آلَةٍ ماديَّة دائمةِ الحَرَكة، بل تُوجَد آلةٌ روحيَّة دائمةُ الحركة، ألا وهي المحبَّة. فإنَّ المحبَّة تتقوَّى باستمرار: كُلَّما أحبَبنا أكثرَ، نُحَبُّ أكثر؛ وكُلَّما استقبلنا المحبَّة أكثر، نُحِبُّ أكثر. وليس من حدٍّ ضروريٍّ لهذه العمليَّة. حتَّى المحبَّةُ البشريَّة لامُتناهية بالإمكان، والمحبَّة الإلهيَّة لامُتناهيةٌ بالفعل. فلا حدَّ أعلى، لا جِدارَ، للمحبَّة. ولا شَدَّ أدنى، لا جاذبيَّةَ أرضيَّةً، في صُلبِ المحبَّة. وعندما تَبلى المحبَّة، يكون ذلك من جرَّاء الاحتِكاك الخارجيّ، لا الاحتكاك الداخليّ: فليس للمحبَّة مَيلٌ لأنْ تَبلى، بل لها مَيلٌ لأنْ تَقوى فحسْب.

نرى هذا، في القصيدة، في توالي العِبارات الشِّعريَّة. فكُلَّما تلقَّى أحَدُ العروسين مزيدًا من المحبَّة من قِبَل الآخر، يتجاوَب المُتلقِّي بالمزيد من المحبَّة، والعكسُ بالعكس. فبعدَ أن يقولَ هو إنَّها "كالسَّوسنة بين الشَّوك" (نشيد ٢: ٢)، تُجيبُ هي بأنَّه "كالتُّفاح بين شجر الوعر" (نشيد ٢: ٣)؛ وبعدَ أن يُصرِّح هو قائلًا: "ها أنتِ جميلة، يا حبيبتي" (نشيد ١: ١٥)، تردُّ هيَ الصَّدى قائلةً: "ها أنت جميلٌ، يا حبيبي" (نشيد ١: ١٦). ويظلَّان يُكرِّران أحدُهما قولَ الآخر، لأنَّهما يظلَّان يعكسان أحدُهما محبَّةَ الآخر.

فالمحبَّة، لكَونها القوَّةَ الروحيَّة الأساسيَّة في الكون، تسمو على جميع القوى الأُخرى ونَواميسها. وهي تسمو بالذَّات على مبدإ الأنتروپيا الفيزيائيّ؛ إذ إنَّ طاقتها لا تتناقصُ أبدًا، بل بالأحرى تتزايد. لذلك السبب لن تصيرَ السماءُ مُملَّةً أبدًا. وتلك أيضًا هي الطريقة الوحيدة التي بها تتمكَّن الأرض من قَهرِ المَلَل.

٥. المحبَّة حيَّة

إنَّنا نُفكِّر في المحبَّة باعتبارها نِتاجَ مخلوقاتٍ حيَّة. فالحيوانات الحيَّة تُنتج محبَّاتٍ حيوانيَّةً، والكائنات البشريَّة الحيَّة تُنتج محبَّاتٍ بشريَّة، والله الحيُّ يُنتج محبَّةً إلهيَّة. حتَّى على الصعيد الحيوانيّ، تميلُ المحبَّةُ إلى إنتاج بُطونٍ لحياةٍ جديدة، غير أنَّ المحبَّة ليست مجرَّدَ شيءٍ حيّ. إنَّها الروح القدس. فالمحبَّة بين الآب والابن حيَّةٌ تمامًا بحيث تحيا باعتبارها حياةً قائمةً بذاتها، **شخصًا** بحُكمِ حقِّها الذاتيّ، أُقنومًا من أقانيم اللَّاهوت الثلاثة.

والآن، فإنَّ المحبَّاتِ البشريَّة تُشابِه المحبَّة الحيوانيَّة والمحبَّة الإلهيَّة كِلَتيهما. فلإنتاج أشخاص أحياء جُدُد، تحتاجُ محبَّتُنا إلى معونة التَّناسُل الحيوانيّ، مثلَ الحيوانات. غير أنَّ المحبَّة تُشابِه المحبَّة الإلهيَّة أيضًا، من حيثُ كونُها حيَّة. إنَّها ليست شخصًا آخرَ بالمعنى الحرفيّ، مثلَ الروح القُدُس، ولكنَّها أكثرُ من مُجرَّد شعورٍ لدى الشَّخص. فنحن نقول إنَّنا نحنُ "في الحُبّ" ولا نقول إنَّ الحُبَّ فينا. لماذا؟ إنَّ جميع الأساطير نظرت إلى المحبَّة باعتِبارها إلهًا أو إلاهة، كِيانًا حقيقيًّا حيًّا يمكنُ أن يَدخلَك ويستولي على حياتك. لماذا؟ إذا كان لنا من العمر ما يكفي لأن نتذكَّر الكلاشيه الهوليوودي القديم، نقول بشأن الحُبّ: "إنَّه أكبر منَّا كِلَينا". فإنَّ هذه التعبيرات التِّلقائيَّة في لُغَةِ الغَرب وحضارته لا تُفسَّر. ولكنْ إذا كانت المحبَّة قوَّةً حيَّةً حقيقيَّة، ليس فقط في داخلنا، بل بيننا أيضًا، إذا كنَّا نحنُ في الحُبِّ بَدَلَ أن يكون الحبُّ فِينا، فهي تُفسَّر. إنَّ المحبَّة تحيا.

من ثَمَّ، فإنَّ جميعَ صُوَر المحبَّة في هذه القصيدة، كما في مُعظَم القصائد الغَزَليَّة، هي صُوَرُ أشياءَ حيَّة ونامية: جَنَّة أو بُستان (نشيد ٤: ١٢، ١٦)، كَرْم

(نشيد ٧: ١٢؛ ٨: ١١ و١٢)، بئر مياهٍ حيَّة (نشيد ٤: ١٥). إنَّ المحبَّة تنمو مثل نَبتة. وهي لا تنمو فقط فينا، ومعَنا، كدَلالةٍ لَنا؛ بل نحن ننمو فيها، ومعَها، كدَلالةٍ لها. إنَّ لها حياةً خاصَّةً بها، جوهريًّا لأنَّها بذرةٌ من عند الله مَزروعةٌ في حياتنا. "مَن يثبتْ في المحبَّة، يثبتْ في الله، والله فيه" (١يوحنَّا ٤: ١٦).

٦. المحبَّة إنجيل

المحبَّة خَبرٌ، بِشارة، إنجيل. المحبَّة وعدٌ بالسَّعادة المُستقبليَّة، مُفعَمٌ برجاء المكافأة المُستقبليَّة، يتطلَّعُ قُدُمًا إلى التَّحقُّق المُستقبليّ. إنَّ كلماتِها تدعونا دائمًا إلى الأمام. حتَّى فرُويد نفسُه أدركَ هذا؛ إذ يَقسِمُ قوى النفسِ الأساسيَّة قسمَين فقط: إروس (Eros)، قوَّة الحياة، تدفعُنا إلى الأمام؛ فيما ثَناتوس (Thanatos)، قوَّة الموت، تشدُّنا إلى الوراء، إلى داخِل الرَّحِم. وفي نظر فرويد، الحياةُ هي المعركة ما بين هاتَين القوَّتين. فهذه هي الفَضلة أو الأثَرُ الباقي في فكر الملحد واللَّاأخلاقيِّ للرؤية الموسويَّة العظيمة إلى الحياة باعتبارها المعركةَ بين قُوَّتي الحياة والموت، بين الطاعة والعصيان:

> "أُشهِدُ عليكم اليوم السماء والأرض: قد جعلتُ قُدَّامك الحياة والموت، البركة واللعنة. فاختَرِ الحياة لكي تحيا أنت ونسلُك، إذ تحبُّ الربَّ إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به، لأنَّه هو حياتك" (تثنية ٣٠: ١٩ و٢٠).

إنَّ دراما نشيد الأنشاد، شأنُها شأنُ دراما الحياة، هي دراما الاختيار ما بين "إروس" و"ثناتُوس"، ما بين الحياة والموت، ما بين "نعم" و"لا"،

باعتبارهما الاستجابتَين المُمكِنتَين حِيالَ إنجيل الحبيب؛ إذ إنَّ ذلك الإنجيل ينطقُ بوُعودٍ رائعة وعجيبة. فهل تُصدِّقها العروسُ البشريَّة؟ هل يكونُ لها إيمانٌ في عريسها الإلهيّ؟ هل تختار الحياة؟

"أجاب حبيبي وقال لي:
"قومي، يا حبيبتي، يا جميلتي، وتعالَي؛
لأنَّ الشتاء قد مضى، والمطر مرَّ وزال.
الزُّهور ظهرَت في الأرض؛ بلغ أوانُ القَضْب،
وصوتُ اليمامة سُمع في أرضنا.
التينة أخرجَت فِجَّها، وقُعال الكُروم تُفيح رائحتها.
قومي، يا حبيتي، يا جميلتي، وتعالَي!"" (نشيد ٢: ١٠-١٣).

يجب أن تكونَ الاستجابةُ "خروجًا" من الماضي، من الموت والظلام والرَّحِم والنَّوم. وفي الأصحاح الثالث، العروسُ ناعسَةٌ جدًّا بحيث لا تستجيبُ لحبيبها في الوقت المناسب، فيتركُها كي تُقاسِيَ وتأسى وتبحثَ عنه. ومِثلَما ليس في السَّماء نَوم (لكون النَّوم صورةً للموت)، كذلك ليس في المحبَّة نَوم. والتصويرُ البيانيُّ كلُّه في نشيد الأنشاد صُوَرُ نهار، لا ليل: "إلى أن يَفيحَ النهار وينهزم الليل" (نشيد ٢: ١٧).

إنَّ المحبَّة إنجيلٌ لأنَّ المحبَّة حيَّة. فليست المحبَّة مثالًا مُجرَّدًا، بَلِ المحبَّة دَعوةُ عُرس. وليست المحبَّة شيئًا نُقارِبُه نحن؛ بل هي شيءٌ يُقارِبُنا هو. فلَسنا نحن مَن يُشعِلُها؛ بل إنَّها هي تُشعِلُنا، كما يُشعِلُ مُشعِلُ المصابيح مصباحًا.

٧. المحبَّة قوَّة

على ارتباطٍ وثيق بِكَون المحبَّة حيَّةً وكونِها إنجيلًا، تبرز قوَّةُ المحبَّة. والتصويرُ البيانيُّ في نشيد الأنشاد مُذهِل. إنَّه ليس البتَّةَ ضعيفًا وواهيًا، ولا رقيقًا ومُهَلهَلًا؛ بل هو قويٌّ ومُفعَمٌ بالنِّشاط جدًّا بحيثُ تطغى عليه الصِّبغةُ الحربيَّة. فأيَّةُ امرأةٍ أطراها يومًا تشبيهُ حبيبها لها بجيشٍ وبحصن؟ إنَّ هذه الحبيبة أطراها ذلك: "أنت جميلة، يا حبيبتي، كتِرصة، حسنة كأُورشليم، مُرهِبة كجيشٍ بألوية" (نشيد ٦: ٤). "مَن هي المُشرِفَةُ مثلَ الصباح، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مُرهِبة كجيشٍ بألوية؟" (نشيد ٦: ١٠). هي المرأة مَن يُوصَف هُنا، لا الرجُل. أمَّا "الرَّهبة" في المُسنَد "مُرهِبة" فليست بالتَّأكيد رهبةَ الاشمئزاز (كما في القول: "يا له من قَبوٍ رهيب يغصُّ بالجِرذان!") ولا رهبةَ الخوف الخانِع (كما في القول: "كم هو رهيبٌ مُعَسكَر الاعتِقال!")، بل رهبةُ الهيبة والاحترام (كما في "الملك أُوز العظيم الرهيب").

ليس منِ استِسلام شوفينيٍّ[١٤] هنا. فالعروس ليست بنفسجةً مُنكمِشة، والعريس لا يُريد لها أن تكون كذلك. إنَّها ناشِطةٌ مِثلَه، ولكنْ بطريقةٍ أُنثَويَّة تمامًا. فهي النَّهار، والنهار "ينفجر كالرَّعد" هُنا. وعندما يُوافينا الربُّ عريسُنا بمحبَّته، لا نُصرَع بل نُرفَع، ولا نُطفأ بل نُشعَل، ولا نُجعَل خاملين بل نُجعَل عاملين. فإنَّ غناءَ الجُزء الثاني في لحنٍ ثُنائيٍّ فعَّالٌ كَغناء الجزء الأوَّل. ونحن نعزفُ تجاوُبيًّا بعدَ الله، غير أنَّ ذلك ليس عزفَ

(١٤) الشوفينيُّ هو الشخص المتحمِّس على نحوٍ عنيف وأعمى من أجل تحقيق مجدٍ عسكريّ (الناشر).

عَبَثٍ، بل صدى عاصفةٍ تصاعُديّ. وكما سنَرى في ما بعد، فإنَّ قوَّة المحبَّة عظيمةٌ جدًّا حتَّى إنَّها "قويَّةٌ كالموت" بعَينه (نشيد ٨: ٦).

٨. المحبَّة عَمَل

ليست المحبَّة خاملة. إنَّها إنشادُ لَحنٍ ثُنائيٍّ، وذاك عَمَل- عَمَلٌ مُبهِج، إلَّا أنَّه عَمَلٌ رُغمَ ذلك. إنَّ الحبيبَين الشابَّين يَقَعان في الحُبِّ أوَّلَ الأمر على نحوٍ خامِل، ولكنْ إذا أرادا أن يَبقَيا في الحُبِّ يجب عليهما أن يعملا بنَشاطٍ للحفاظ عليه ولإنمائه، كبذرةٍ تتلقَّاها التُّربة أوَّلَ الأمر ولكنْ بعدئذٍ يجب أن يتعهَّدَها المرءُ ويُسمِّدَها، وإلَّا تَمُت. وهكذا، فإنَّ العروس تُنشِدُ قائلةً: "طلبْتُ مَن تُحِبُّه نفسي... إنِّي أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق وفي الشوارع، أطلب من تحبُّه نفسي" (نشيد ٣: ١ و٢). إنَّ الحياة طَلَبٌ للمحبَّة وطَلَبٌ لله، وليس لرحلة البحث هذه سيَّارةٌ أو طيَّارة. فهي سَفرةٌ قديمةُ الطِّراز نقوم بها سائرِينَ على قدمَينا.

إنَّ أجملَ قِصص الحُبِّ في الحياة الواقعيَّة وأكثرَها تأثيرًا ومَحسوديَّةً بينَ ما عرفتُه في الأزمنة الحديثة هي ما كتبه شَلدُن فانَوكِن (Sheldon Vanauken) تحت العنوان "**رَحمةٌ قاسية**" (Severe Mercy). والسؤال الذي يطرحُه عليه قُرَّاؤه أغلبَ الأحيان هو كيف أحرزَ هو وزوجتُه مِثلَ هذا الحُبِّ الشامل، الرائع والحميم. فقد بدا ذلك أروعَ من أن يكون حقيقيًّا. ونحن لم نَعُد نرى حُبًّا كهذا حوالَينا. ذلك أنَّ العالَمَ الحديث، رُغمَ كَونه يتحدَّث بلا انقطاع بشأن الحُبّ، كادَ يقتُلُ الحُبَّ كُلِّيًّا. حتَّى إنَّ زواجًا مُستقرًّا، وبالأقلِّ كثيرًا: زواجًا سعيدًا، بل أقلَّ بَعدُ: زواجًا بهيجًا، هو

الشيءُ النادر، الاستِثناءُ لا القاعِدة. فماذا كان سرُّ ڤانَوكِن؟

إنَّ جوابَه دُنيويٌّ على نحوٍ مُدهِش: العَمَل! "لقد حافظنا على حُبِّنا، فقط لأنَّنا عملنا في سبيله". فالحُبُّ لن ينموَ أبدًا في الحقول الحديثة بلا عَمَلٍ دائمٍ دائب. ذلك أنَّ التُّربة لم تَعُد خصبة. لَرُبَّما لم تكُن التُّربة مُخصِبةً قطُّ، غير أنَّ الناسَ اعتادوا أن يكونوا مُستعدِّين للعمل فيها. فعلى كلِّ حال، لا يمكنُ أبدًا أن تدومَ المحبَّة اليومَ إلَّا إذا كان الحبيبان مُستعِدَّين للعَمَل طوالَ الحياة. وذلك يشملُ بالضَّرورةِ التَّضحيةَ... على الأقلِّ التضحيةَ بجميع الأُمور الأُخرى التي كان يمكنُ أن تقومَ بها بدلًا من ذلك.

ثُمَّ إنَّ العمل يتطلَّبُ الصَّبر، هذه السِّلعة النادرة بصورةٍ مُتزايدة في عصرنا هذا، عَصرِ الوجبات السريعة، وإعادة اللقطة المشاهَدة فَورًا، وعصر "عِشْ لِيَومك". ولكن ليس في وُسعك أن تُنميَ أيَّ ثمرٍ بلا صبر. فليس من تُفَّاحٍ فوريّ!

يقول فرُويد إنَّ الحاجتَين الأكثر أساسيَّةً لدى كلِّ إنسان هما "الحُبُّ والعَمَل". وذلك قَولٌ حكيم (مع أنِّي أعتقد أنَّه لو طُلبَ إلى فرويد أن يُوسِّع هذا القولَ ويُفسِّره، لَمَا فعل ذلك بأقوالٍ حكيمةٍ على السواء). ثُمَّ إنَّ هذين الأمرَين واحدٌ؛ لأنَّه إذا كان للعمل أن يكون مُرضِيًا تمامًا، يجب أن يكون عَمَلَ محبَّة، وإذا كان للمحبَّة أن تعيش، فيجب أن تكون عملًا. وكما بيَّن كيركغارد، فإنَّ المحبَّةَ في المسيحيَّة ليست شعورًا، كما هي بالنِّسبة إلى الرومانسيَّة؛ بل بالأحرى "المحبَّة هي أعمال المحبَّة". لذلك يستطيع السيِّدُ المسيح أن يُطالِب بالمحبَّة. فالأحمقُ وحدَه يُحاوِلُ أن يُطالِبَ بشعور.

وربَّما كان أعجبَ كُلِّ شيءٍ بشأنِ عمل محبَّتنا أنَّه عملٌ وراحةٌ في آنٍ معًا، يَومُ أُسبوعٍ وسبتٌ على السَّواء. وقد أوضَحَ السيِّدُ المسيح هذا الأمر جليًّا لمَّا غضبَ الفرِّيسيُّون عليه بسبب عمله الشِّفائيِّ في السَّبت. ففي الواقع أنَّ جوابَه قال لهم: إنَّكم لا تستطيعون وَقْفَ هذا العمل كما لا تستطيعون وَقْفَ الشمس عن الشُّروق، لأنَّه حياةُ الآبِ بالذَّات، تلكَ التي تمتدُّ من سَبتِ الأزَل إلى أُسبوع العَمل في الزَّمن، كما فعلَ عند الخَلْق. وقد كان جوابُ السيِّد المسيح لهم: "أبي يعمل حتَّى الآن، وأنا أعمل" (يوحنَّا ٥: ١٧). فما علاقةُ هذا بنا نحنُ الأحبَّةَ البشريِّين؟ علاقةٌ كلِّيَّة؛ لأنَّ محبَّة المؤمن بالسيِّد المسيح هي مُشارَكةٌ في محبَّة الله من خلال السيِّد المسيح، الوسيطِ والشَّفيع. وكما الآب، فكذلك الابن؛ وكما السيِّد المسيح، فكذلك المسيحيُّ الحقيقيّ. فإنَّ عَمَلَ محبَّتنا يَشترِك في طبيعة السيِّد المسيح الثُّنائيَّة: الإلهيَّة والإنسانيَّة، الأبديَّة والوقتيَّة، راحةِ السَّبت وعمل أيَّام الأُسبوع الباقية، أحَدِ القيامة وجُمعةِ الصَّلب.

٩. المحبَّة رغبةٌ وإشباع

مُفارقةٌ أُخرى بشأن المحبَّة هي أنَّها حُلوةٌ مُرَّة. إذ إنَّ حلاوَتَها مُرَّة، ومرارتُها حُلوة. وكِلتا الصِّفتَين موجودتان في الرَّغبة. فرغبةُ المحبَّة، ككُلِّ رغبة، مُرَّةٌ ومؤلِمة، لأنَّها تفتقر إلى ما تُريده. ولو كانت لا تفتقرُ إلى ما تُريده، لَمَا كانت ترغب فيه، بل لكانت تتمتَّع به. غير أنَّ الرَّغبة نفسَها حُلوة أيضًا، فهي فرحٌ وإشباع. فمُجرَّدُ التَّوق إلى الله أفضلُ من امتلاك العالَم كلِّه. وهذا الغِياب هو أفضل من أيِّ حُضورٍ آخر؛ كما أنَّ الرغبة أفضلُ من أيِّ إشباعٍ آخر.

ومن ثَمَّ، فإنَّ أشواقَ العروسِ (النَّفسِ) مُعبَّرٌ عنها في حالةٍ نفسيَّة ذاتيَّة، حالةِ التَّمنِّي المُعاكِس للواقع: "لِيُقبِّلني بقُبلات فمه، لأنَّ حُبَّك أطيب من الخمر" (نشيد ١: ٢)؛ "[لو تكونُ] شِمالُه تحت رأسي، ويمينه تُعانِقني" (نشيد ٢: ٦). إنَّ الرَّغبةَ لا تُحقَّق إلَّا في آخِر القصيدة (نشيد ٨: ٥)، ولكنَّ الرغبة بعَينها نوعٌ من الإشباع. فالتَّوق إلى السماء، بحدِّ ذاته، هو سماء.

وهكذا، فإنَّ دمِتري كارامازوف (Dmitri Karamazov)، في رواية دوستويفسكي، يقول لله إنَّه لو وضعَه في جهنَّم لأنشَدَ له ترنيمةَ الفَرَح حتَّى من جهنَّم "الترنيمةَ الطالعة من تحت الأرض". فمن شأن تلك الترنيمة أن تُحوِّل الجحيم (أو مناجم الملح السيبيريَّة) إلى سماء. إنَّ نشيدَ المحبَّة يُوجِدُ سماءً. فالسَّماءُ لا تجعل محبَّة الله مُحبَّبة؛ بل محبَّة الله تجعل السماءَ سماويَّة.

لم يكتبْ أحَدٌ عن هذا التَّوق أفضلَ مما كتبه سي. أس. لِويس، لا سيَّما في "**مدهوشٌ من الفرح**" *(Surprised by Joy)* و"**تَقَهقُرُ المسيحيّ**" *(Pilgrim's Regress)*. فهذان هما الكِتابان اللذان ينبغي لك أن ترجع إليهما إذا أردتَ أن تسبرَ أكثرَ أغوارَ هذه اللُّجَّة المجيدة اللَّامُتناهية.

١٠. المعاناة تُماشي المحبَّة

إنَّ المحبَّة تُعاني بالتَّأكيد من أجل ذلك السَّبب البديهيِّ جدًّا الذي يجعلُها تكشفُ دخيلتَك وتُظهِرُ جُزأك الأرقَّ والأكثر تأثُّرًا، لحمَ القلب المرتعِشَ،

تحت رحمة المحبوب والزَّمن والمصير. فإذا كان المحبوب بَشَريًّا، لا إلهيًّا، فإنَّك تلقى الخيانةَ دائمًا. ونحن جميعًا نخونُ حُبَّ أحَدِنا للآخر، بطريقةٍ من الطُّرق. ذلك هو ما تعنيه الخطيَّةُ الأصليَّة. فلا أحَدَ يُمكِن الوثوقُ به كلِّيًّا. ضَعْ توقُّعاتٍ إلهيَّةً على عاتق أيِّ بَشَريّ، حتَّى لو كان قدِّيسًا، فيُخيَّبَ أمَلُكَ خَيبةً مُرَّة. وليس فقطِ المحبوب، بل أيضًا الزَّمَن والمصير والحياة، يبدو أنَّها تُسهِم في الخطيَّة الأصليَّة والسُّقوط، حتَّى إذا كان ثمَّة شيءٌ واحد نستطيع أن نتنبَّأ به على وجه الدِّقَّة والضَّبط فهو أنَّ "سبيل المحبَّة الحقيقيَّة لم يكُن سَهلًا قطُّ". فإنْ كنتَ تحبُّ، فلا بدَّ أن تُعاني. والطريقةُ الوحيدةُ لحماية نفسك من المعاناة هي حمايةُ نفسك من المحبَّة... وتلك هي المعاناةُ العُظمى: الوحدة والوحشة.

ولكنْ في فِعل المعاناة بالذَّات، يُمكِن للمحبَّة أن تُحوِّل المعاناة، أن تفدِيَها، وأن تدحَرَها. فمثل طُوفانٍ جبَّارٍ جدًّا بحيثُ لا يقوى أيُّ سَدٍّ على وَقفِه، كطُوفانٍ يُحوِّل السَّدَّ المُنشأ لوقفِ تدفُّقِه إلى جُزءٍ من ذاته، إذ يجرف السَّدَّ في مَجراه، هكذا تُحوِّل المحبَّة المعاناةَ التي تبدو أوَّلَ الأمر منصوبةً ضدَّها إلى جُزءٍ من ذاتها. ومن ثَمَّ، فإنَّ العروس في نشيد الأنشاد تُشير إلى مُعاناتها في سبيل الحُبِّ، وإلى آثار السَّفع التي أحدثَتْها هذه المُعاناة في جسمها، باعتبارها علاماتِ جمالٍ، لا قُبْح:

"أنا سوداء، وجميلة، يا بناتِ أُورشليم؛
كخِيامِ قِيدار، كشُقَق سُلَيمان.
لا تنظرن إليَّ لكوني سوداء،
لأنَّ الشمس قد لوَّحتني" (نشيد ١: ٥ و٦).

إنَّ جِراحَ السيِّد المسيح المُقام لم تكُن قبيحة، بل كانت جميلة، كشاراتِ مَجد، كما هي في القدِّيسين المَوسومين بها. كذلك أيضًا عروسُ السيِّد المسيح- النَّفسُ أوِ الكنيسة أوِ الشهيد (وكلُّ مسيحيٍّ شهيدٌ)- هي جميلةٌ في آلامها بعينها، مِثلَما كان السيِّد المسيح. فالتجاعيدُ حولَ عينَي الأُمِّ تيريزا أجملُ بما لا يُقاس من الماكياج حول عينَي نجمةٍ سينمائيَّة. والأُمُّ أنجيليكا[١٥] أجملُ من الفَتَيات المحقَّقات في المسلسل التلفزيونيِّ "ملائكة تشارلي" (Charlie's Angels).

يُضاعِف الحبُّ مُعاناةَ العروس. فهي تقول: "إنِّي مريضةٌ حبًّا" (نشيد ٢: ٥). ولكنَّ مُعاناتَها تُضاعِفُ حُبَّها فحسْب. لأنَّها فقط بعد أن تخرجَ من البرِّيَّة (التي ترمزُ إلى المعاناة)، في الأصحاح الأخير، تحوزُ ثلاثةَ أُمورٍ تاقت إليها من قبلُ مُجرَّدَ تَوق: الثِّقة، التَّماسَّ الفعليَّ، إتمامَ زواجِها:

"مَن هذه الطالعةُ من البرِّيَّة، مُستندةً على حبيبها؟
تحتَ شجرة التُّفَّاح شوَّقتُكَ" (نشيد ٨: ٥).

(الأفضلُ "شوَّقتُكِ"، أو "أيقظتُكِ"، بلِسان سُلَيمان؛ وهذه كِنايةٌ عِبريَّة لطيفة عن أوَّل مُعاشَرة لعروسٍ عذراء).

كما في هوشَع ٢: بعدَ البرِّيَّة، بعدَ المعاناة، بعدئذٍ فقط تُكمَّل المحبَّة. فليسَت المحبَّة وحدَها تُحوِّل المعاناة وتُكمِّلها؛ بَلِ المعاناةُ أيضًا تُحوِّل المحبَّة وتُكمِّلها. إنَّ الأمرين اللَّذَين يبدوان عدوَّين يتبيَّن أنَّهما حليفان يُعزِّز

---

(١٥) الأمُّ أنجيليكا (Mother Angelica) هي راهبةٌ أميركيَّةٌ فرنسيسكانيَّة. عُرفتْ بتأسيسها "شبكة تلفزيون الكلمة الأبديَّة" (Eternal Word Television Network)، وهي من مواليد عام ١٩٢٣م (الناشر).

أحدُهما الآخر تبادُليًّا. فإنَّما في سكون البرِّيَّة فقط نَسمعُ صوتَ الله الهادئَ الخفيف هامسًا في قلبِ قلبِنا. ويقول سي. أس. لِويس، في "**مشكلةُ الألم**" *(The Problem of Pain)*: "إنَّ الله يهَمِسُ في مسرَّاتنا ويصيحُ في آلامنا". فذلك صحيح، ولكنَّ العكسَ أيضًا صحيحٌ بعض الأحيان. (راجِع هوشع ٢).

١١. المحبَّة اختيارٌ حرٌّ

نحن جميعًا نعلم هذا: أنَّ المحبَّة يجب أن تُعطى طَوعًا وأن تُقبَلَ طَوعًا. فإنَّ "يدًا واحدةً لا تصفِّق"، ولا يُمكِن أنَّ أحدَهُما يُدفَعُ أو يُسحَب أو يُجَرُّ أو يُحمَل. وليس في الواقع إلَّا ثلاثةُ أساليبَ فقط للتَّأثير في الآخرين، ثلاثُ تِقنيَّاتٍ لإحداث "تعديلٍ في السُّلوك": الدَّفع، أو الحَمْل، أو الجرّ. ففي وُسعِك أن تستخدمَ القوَّة أو الخوف لدَفع الناس إلى حيثُ تُريد لهم أن يذهبوا، رُغمَ إرادتِهم. أو في وُسعِك أن تحملَهم حمْلًا. وعندئذٍ يكونون هُم خامِلين، وأنتَ تقومُ بالعمل عنهم، كما يفعلُ أحَدُ الأَبوَين بالطِّفل. أخيرًا، في وُسعِك أن تستَميلَهم، أو تجتذبَهم، أو تحفزهم، كي يتحرَّكوا نحوك بمغناطيس الرَّغبة. وذلك هو ما تطلُبُ العروسُ إلى العريس أن يفعلَه: "اجذبْني وراءك، فنَجري" (نشيد ١: ٤). لن تكونَ عَبْدتَه فتُدفَع، أو طِفلتَه فتُحمَل، بل ستكون عروسَه فتُجذَب. إنَّه يملكُ المبادَرة، ولكنَّها هي تستجيبُ بحُرِّيَّةٍ مُساوِية وقيمةٍ مُساوِية. فأن تُجذَبَ هو اختِيارٌ حُرٌّ، شأنُه شأنُ أن تَجذِب. وأن تأتيَ هو عَمَلٌ حُرٌّ كالقول: "تعال".

حتَّى الله لا يُمكِنُ أن يُغيِّر هذا؛ لأنَّه القانونُ الداخليُّ لطبيعة المحبَّة، تلك التي هي طبيعة الله بالذَّات، ولا يُمكِن أن يُغيِّرَ الله طبيعته ذاته. فلا يُمكِن أن يُجبِرَنا الله على أن نُحِبَّه. والأمرُ الوحيد الذي لا يُمكِنُ أن يُعطِيَه حتَّى الله لنفسه هو محبَّتُنا. ففي وُسع الله أن يخلقَ كَونًا، ولكنْ لا يمكنُ أن يخلقَ المحبَّة فينا، بل هو يَستَدِرُّها منَّا. لأنَّ المحبَّة ليست مخلوقًا من المخلوقات، مثلَ الكَون. فالشيءُ المخلوق خامِل. والكونُ لم يفعَلْ أيَّ شيء لمساعَدة ذاته حتَّى يُخلَق. غير أنَّ المحبَّةَ عاملة، لا خاملة؛ طوعيَّة، لا كُرهيَّة؛ من الداخل، لا من الخارج. إنَّها تنمو كالثَّمَر، بسِرِّها الداخليِّ الخاصّ. ومن ثَمَّ تقولُ العروس تَكرارًا في القصيدة:

"أُحلِّفُكنَّ، يا بناتِ أُورشليم،
بالظِّباء وبأيائل الحقل،
ألاَّ تُيقِّظنَ ولا تُنبِّهنَ الحبيب
حتَّى يشاء" (نشيد ٣: ٥).

إنَّه أصعَبُ أمرٍ في العالَم نكونُ صابِرينَ بشأنه، لأنَّه الأمرُ الذي نحتاج إليه أكثرَ الكُلِّ ونرغبُ فيه أكثرَ الكُلّ. ولكنَّه أيضًا الأمرُ الأكثرُ ضرورةً في العالَم ذاك الذي ينبغي أن نكونَ صابِرين بشأنه، لأنَّه إن لم يكُن طَوعيًّا فليس هو محبَّة.

يتكلَّمُ الناسُ كثيرًا بشأن الحرِّيَّة اليوم، أكثرَ جدًّا ممَّا في الأزمنة القديمة. ولعلَّ سببَ ذلك أنَّهم لا يعرفون المحبَّة. ذلك أنَّ الحبيبَين لا يتكلَّمان بشأن الحرِّيَّة: فهُما حُرَّانِ أصلًا. إنَّهما لا يرغَبان في أن يكونا حُرَّين؛ بل

يرغبان في أن يكونا مُقيَّدَين كلٌّ منهما بحبيبه، إلى الأبد. وأن يكونَ المرءُ حُرًّا من المحبَّة، حُرًّا من الله، لَهُوَ الجحيمُ تمامًا.

١٢. المحبَّة مُوافِقة للحقيقة

"بالحقِّ يُحِبُّونك" (نشيد ١: ٤)، هكذا تقول العروس. فالمحبَّة ليست فقطِ القِيمةَ العُليا، بل هي أيضًا الحقيقة العُليا. إنَّها ليست فقط مُشبِعةً بالنِّسبة إليَّ، بل هي أيضًا حقيقةٌ مُشبِعة. فالمحبَّة صحيحةٌ من حيثُ عِلمُ الوجود. إنَّها واقعيَّة؛ إنَّها مُحاكاةٌ للحقيقة؛ إنَّها عائشةٌ في العالَم الواقعيّ. لدينا هذه العادة البغيضة في التَّكلُّم كما لو كانتِ المحبَّةُ مُجرَّدَ مِثال، وكما لو كانت "الحقيقة" أو "العالَم الواقعيُّ" شيئًا شديدَ العَطَب، قبيحًا، خاليًا من المحبَّة... وبعِبارة أُخرى، كما لو أنَّ الناسَ حدَّدوا الحقيقة، وقد فعلَ ذلك أردأُ الناس. كلَّا، إنَّ الناس لا يُحدِّدون الحقيقة؛ بَلِ الحقيقةُ تُحدِّد الناس. فليستِ الحقيقة ما يصنعُه الناس أو يفعلونه؛ إنَّ الحقيقة هي ما الله عليه ويفعلُه. والله محبَّة، فالمحبَّة إذًا هي قانون الحقيقة المركزيُّ، وحين نُحِبُّ نُحاكي الحقيقة.

وهذا صحيحٌ لا سيَّما حين نحبُّ الله. فهذه النُّقطة تتعلَّق بمحبَّة العروس (النَّفس) للعريس (الرَّبّ)؛ وتلك هي الواقعيَّةُ العُليا. أمَّا النُّقطة التالية فستَكونُ أكثر إدهاشًا بكثير: أنَّ محبَّة الله لنا هي أيضًا واقعيَّة، بل هي بالحقيقةِ دقيقةٌ دِقَّةً كاملة.

١٣. المحبَّة دقيقة

إنَّ المحبَّةَ أكثرُ دِقَّةً من الرِّياضيَّات. فنحن نَحسَبُ ونقول، في سطحيَّتنا، إنَّ "الحُبَّ أعمى". إنَّما العكسُ تمامًا هو الصَّحيح: إنَّها الرؤيةُ العُليا، الحِكمةُ العُليا، التَّنوير الأسمى. فالله محبَّة، والله ليس أعمى؛ ولذلك، فالحُبُّ ليس أعمى. وإنْ كان الحبُّ أعمى، فإمَّا لا يكون الله محبَّة، وإمَّا يكونُ الله أعمى.

حين نقول "الحبُّ أعمى"، فقد نكونُ مُفكِّرين في الحُبِّ الأنانيّ، أو الحبِّ الحيوانيّ، أو الحُبِّ المُتهوِّر. إنَّ ذلك قد يكون أعمى. أمَّا أغاپي فليست عمياء. ولا بُدَّ أن نكون مُتَيقِّنين بهذه الحقيقة، لأنَّها ستُمتحَن امتِحانًا قاسيًا ببعض الآيات المذهِلة في نشيد الأنشاد. فعندما نقرأ هذه الآيات، نُغرى بأن ننبذَ التَّفسير الرمزيَّ بكامله، لأنَّه يبدو أنَّ الأُمور التي يقولُها العريس للعروس لا يُعقَل، على وجه الاحتمال، أن يقولَها الله للنَّفس البشريَّة الخاطئة. مثلًا، يقول في نشيد الأنشاد ٤: ٧ "كلُّكِ جميلٌ، يا حبيبتي، ليس فيكِ عيبة". ولكنَّ فينا كَثرةً من العيوب، ونحنُ نعلم ذلك، والله يقول ذلك في نُصوصٍ أُخرى كثيرة من الأسفار المقدَّسة. فهذا يبدو أشبهَ بإنكارٍ للخطيَّة. إنَّه يبدو كما لو كان الحبُّ أعمى حقًّا.

وفي نصٍّ آخر، يُخاطِب العريس عروسَه المتَورِّدةَ الخدَّين، المختبئةَ في شقِّ صخرة، رُبَّما لأنَّها خَجلى بقُبحِها مُقارَنةً بجماله. يقول العريس:

"يا حَمامتي، في محاجئ الصَّخر،
في سِتر المعاقِل،

أريني وجهَكِ،
أسمِعيني صوتَكِ؛
لأنَّ صوتكِ لطيف،
ووجهَكِ جميل" (نشيد ٢: ١٤).

لعلَّها تحسب أنَّ وجهَها جميلٌ كبابٍ حظيرة، وأنَّ صوتَها عذبٌ كصَوتِ غُراب. فالسؤال هو: مَن على حقّ؟ هيَ تعتقد أنَّها قبيحة؛ وهو يرى أنَّها جميلة. فإنْ كان هو الله، فلا بُدَّ أن يكونَ على حقّ. "ليكُنِ الله صادقًا وكلُّ إنسان كاذِبًا" (رومية ٣: ٤). ولكنْ كيف يمكنُ أن يكونَ هذا؟

إنَّ ثانيَ أجمل قصيدةٍ غَزَليَّة في العالَم تطرحُ المشكلةَ ذاتَها. فما منِ امرأةٍ عُظِّمَت يومًا في الشِّعر مِثلَ بياتريسَ (Beatrice) التي أشادَ بها دانتِه، ولا سيَّما في "ڤيتا نيوڤا" (Vita Nuova) [وتعني "الحياة الجديدة"]. وليس ڤرجيل، مِثالُ دانتِه، أعظمُ شاعِرٍ في العالَم، هو مَن أخرجَ دانتِه من المطهَر في "**الكوميديا الإلهيَّة**"، بل بياتريس أخرجَته. فإنَّ دانتِه، على غِرارِ الله، يقولُ لمحبوبته إنَّها جميلةٌ كلُّها، وإنَّها إلاهة، وإنَّها مَجدُ الله مُشرِقًا على وجهٍ بَشَريّ، وإنَّها ليست شيئًا في العالَم بل هي كُوَّةٌ مُطِلَّةٌ على عالَمٍ آخر من خلالها يتسنَّى لدانتِه أن يرى النُّور الإلهيّ. إنَّ الله هو الشَّمس، وبياتريس هي القمر. تُرى، ماذا يجري هُنا؟

يُغرى المؤرِّخ بأن يُجيبَ عن هذا السؤال بإجراء قليلٍ من البحث التاريخيِّ حول بياتريس "الحقيقيَّة". ومن شأنه أن يتبيَّن أنَّ بياتريس كانت فتاةً مُراهِقة من فلورنسا عرفَها دانتِه منذ نُعومة أظفارها، وأنَّها كانت ابنةَ تاجِر

في المدينة، وأنَّ أحَدًا لم يُفكِّر فيها قطُّ باعتبارها باهرةَ الجمال، وأنَّ دانتِه رآها عَرَضًا تمرُّ تحت نافذته ذات يوم، وانخطفَ فجأةً في الرؤيا، كما لو أنَّ حياته قد انعطفَت في زاوية إذِ انعطفَت بياتريس حول زاويةِ شارعِه. وقد كتبَ دانتِه: "هنا تبدأ الحياةُ الجديدة". غير أنَّ كلَّ ما حدثَ كان أنَّه رأى وجهها. فكما في أُغنيَّة الجوَّالين القديمة "غريبٌ في الفِردَوس" (*Stranger in Paradise*)، قال دانتِه في الواقع:

"رأيتُ وجهَها
فصَعِدتُ خارِجًا
من المعتاد
إلى داخِلَ النادِر.
وفي مكانٍ ما من الفضاء
تدلَّيتُ مُعلَّقًا".

أهذه رؤيةٌ أم مَرَض؟ إنَّ عالِمَ النَّفس، مُندفِعًا إلى نجدة المؤرِّخ، يُقاطِعُ الكلام الآن مؤيِّدًا. "نحن نفهم ما يحدث هنا. إنَّه إسقاطٌ نفسيّ. لقد كان دانتِه واقِعًا في حُبِّ الحُبّ، ومرَّت بياتريس صِدفةً في الوقت الملائم. فأسقطَ دانتِه عُمقَ قلبِه وجمالَهُ على بياترس. "الجمال هو في عينِ الناظر"، وعَينا دانتِه الشِّعريَّتان مملوءتان جمالًا. وكما يبدو لك العالَم أصفَر حينَ يكون اليَرَقانُ الأصفر في عَينك، كذلك تمامًا حين يكونُ لك جَمالُ دانتِه يبدو لك أوَّلُ شخصٍ تقعَ عيناك عليه جميلًا. فليسَتْ بياتريس هي الجميلة؛ بل دانتِه هو الجميل".

لو سمع دانته ذلك، لتحدَّى على ما أعتقد كِلا المؤرِّخ وعالِم النفس داعيًا إيَّاهما إلى مُبارَزةٍ حتَّى الموت دِفاعًا عن كرامة حبيبته بياتريس. ولكنَّ الأهمَّ، على افتراضِ أنَّ الجميعَ سَلِموا من المبارَزة، أنَّه كان سيَدعوهما إلى مُناقشة. ومن شأنه أن يُصِرَّ على أنَّ حُبَّه كان كامِلَ الدِّقَّةِ والموضوعيَّة والواقعيَّة؛ وأنَّه كان على حقٍّ وأنَّهما كانا مُخطئَين؛ وأنَّه لم يكُن مُسقِطًا قطُّ؛ وأنَّ بياتريس كانت فائقةَ الجمال، لا دانته؛ وأنَّه هو لم يُسهِم إلَّا بتَوفير المتَقبِّلات لهذا الجمال. إنَّه شاعِرٌ عظيم، والشاعرُ العظيم راءٍ عظيم. فهو يرى ما هو مَوجود. إنَّه يملكُ بَصَرَ الأشعَّة السينيَّة. ولئن اتَّفق العالَمُ كلُّه مع المؤرِّخ وعالم النَّفس ورأى في بياتريس أُمورًا عاديَّة لا غير، فإنَّ دانتِه ينظرُ ما وراء اليرقة إلى الفراشة- الفراشةِ الموجودة حقًّا في بياتريس، الفراشةِ التي هي بياتريس.

هل يُعقَل أن يكونَ دانتِه على حقّ؟ بالتَّأكيد، هو على حقّ، وأنت تعلَم ذلك. فمَن يعرفك أفضل: أعظمُ عالِم نفس في العالَم يُريد فقط أن يستخدمك كحالةٍ تُدرَس، أم صديقُك الأفضلُ الذي ليس ذكيًّا جدًّا ولكنَّه يُعنى بأمرك عنايةً عميقة؟ لا مُباراةَ هُنا. فالمحبَّة وحدَها لها عينان. ولكي تفهمَ عالَم الأشياء، تحتاجُ إلى العِلم والارتياب وأُسلوب الشكّ: لا تقبَلْ أيَّ شيءٍ قبلَ أن يتبرهن. فكلُّ فكرةٍ مُتَّهَمةٌ إلى أن تُثبَتَ براءتُها. ولكنْ لكي تعرفَ الناس، تحتاجُ إلى الأُسلوب المعاكِس: الثِّقة والمحبَّة والانفتاح. فالأشخاص أبرياءُ إلى أن يُثبَتَ ذَنْبهُم. ولا يُمكِنُك أن تستمعَ إليهم إلَّا إذا كان ذلك موقِفَك. فإنَّ الشكَّ لا يبلغُ أبدًا قلبَ الآخر.

إذًا، دانتِه على حقّ. إنَّ بياتريس إلاهةٌ حقًّا. وكذلك هُنَّ هيلانة ومريم ولزلي وجوان، غير أنَّهُنَّ لا يملكنَ شُعَراءَ مثل دانتِه لهُم بَصَرُ الأشعَّة السينيَّة يقولُ لهم ذلك. ولكنَّ لَدَيهنَّ ذلك حقًّا. فإنَّ شاعرَهُنَّ يتكلَّم في نشيد الأنشاد. فشاعِرُهنَّ هو الله!

إنَّ ما يقولُه الله هو صحيح، وأحرى بكَ أن تُصدِّق ذلك. وماذا يحصلُ إذا صدَّقتَه؟ افترضي أنَّ النجمَ السينمائيَّ روبرت ردفورد (Robert Redford) أقبلَ إليكِ، أنتِ التي تحسبين نفسَكِ مثلَ "جاين البسيطة"، وقال: "أنتِ المرأةُ التي ما أزالُ أبحثُ عنها طُولَ عُمري. إنَّكِ تؤثِّرين فيَّ حتَّى تجعَليني أبكي، فأنت جميلةٌ جدًّا. أُريدُ أن أتزوَّجَكِ وأُسعِدَكِ إلى الأبَد". فهل تتغيَّر نظرتُكِ إلى ذاتكِ قليلًا؟ حسنًا، إذا استَطاعَ حتَّى روبرت ردفورد أن يُغيِّر صُورتَكِ الذاتيَّةَ القاتمة، أفلا يستطيعُ الله أن يُغيِّرَها أيضًا؟ وهل تجسُرين على أن تُسَمِّي نفسَكِ جاين بسيطةً إذا كان هذا يعني تسمية الله كاذبًا؟ إنَّ واحدًا منكُما مُخطئ. فأنتِ تقولين إنَّكِ قبيحة؛ والله يقولُ إنَّكِ جميلة. وإذا كُنتِ مُصيبةً، فالله مُخطئ. وهذا غير مُمكِنٍ أبدًا. أمَّا البديلُ فهو أنَّ الله مُصيبٌ وأنتِ مُخطئة. فإنَّك لستِ قبيحة؛ بل أنت جميلة. وما يقولُه الله هو حقيقة، حقٌّ موضوعيّ، واقعٌ كُلِّيّ.

ولكنْ ماذا بشأن الخطيَّة؟ أيُغطِّي الله عينَيه فحَسْب؟ كيف يُعقَلُ أن تكونَ هذه واقعيَّة؟ إنَّ الله لا يُغطِّي عينَيه. بل إنَّ عينَيكَ مخبَّأتان في الزَّمَن، مخبَّأتان عن رؤية مصيرك وهُوِيَّتك الأبديَّين. فأنت ترى فقط صُورةَ ذاتِكَ الحاضرةَ غيرَ المصقولة. أمَّا هو فيرى التُّحفة الكاملة، لأنَّه ينظرُ من الأزَل. إنَّ حياتَك تُشبهُ سِلكًا ممدودًا مشدودًا. ومثلَ نَملة، أنت تدبُّ على

طُولِ سِلكِ حياتك، من طَرَفٍ (الولادة) إلى الآخَر (الموت). غيرَ أنَّ الله يرى كامِلَ السِّلك، من بدايته إلى نهايته. فعَيناه لا تَطرِفان على شيء؛ إذ يرى كلَّ شيءٍ في منظوره الحقيقيّ. إنَّه يرى حياتَك بكاملها، ولكنْ ليس كما تراها أنت، أي بالتَّدريج. فهو يراك بالكامل، كما ترى أنت لوحةً مَرسومة. والحُكم الذي ينطقُ به عليك هو "كامِل".

ذلك هو نصيبُنا وفقًا لقَول السيِّد المسيح: "كونوا أنتم كاملين كما أنَّ أباكم السماويَّ هو كامِل". والسيِّد المسيح الذي يقولُ هذا الأمرَ الذي لا يُصدَّق، هو أيضًا السيِّدُ المسيح الذي وحدَه يجعلُه يحدُث، **المُخلِّص، الطريق**. فإنَّ **الطريقَ** لا بُدَّ أن يشقَّ طريقَه فاعلًا ما يُريد. وينبغي لنا أن نكونَ "كلُّنا جميلٌ" كما أنَّه هو "كلُّه جميل". فالاكتفاء بأيِّ شيءٍ أقلَّ من الكمال هو طريقُنا نحن، ولكنَّه ليس طريقَه هو. لأنَّه هو محبَّة، والمحبَّة (كما يقول جورج مكدونالد [George Macdonald]) "يسهلُ إرضاؤها، لكن يصعبُ إشباعُها". شُكرًا لله على هذه الحقائق.

١٤. المحبَّة بسيطة

إنَّ أُسلوبَ الشِّعر في نشيد الأنشاد بسيطٌ على نحوٍ مُذهِل، ولو كان المضمونُ الملمَّحُ إليه مُعقَّدًا على نحوٍ مُذهِل. فمع أنَّ في وُسعِ أعظم عُقول اللَّاهوتيِّين والقدِّيسين والمتصوِّفين أن تسبرَ أغوارَ هذا السِّفر على مدى مئاتٍ من الصَّفحات دونَ الاقتراب كثيرًا إلى استِنفاد غِناه، فإنَّ بيتَ القصيد فيه بسيطٌ جدًّا بحيثُ يَفي بالغَرَض أبسَطُ الشِّعرِ وأكثرُه اختِصارًا وتركيزًا:

"ها أنتِ جميلة، يا حبيبتي،
ها أنتِ جميلة؛
عيناكِ حمامتان،
ها أنتَ جميل، يا حبيبي، وحلوٌ؛
وسريرُنا أخضر" (نشيد ١: ١٥ و١٦).

بالنِّسبة إلى اللَّاحبيب، هذا مُبتذَلٌ ومُمِلٌّ إلى أبعد حدّ. أمَّا بالنِّسبة إلى الحبيب، فهو كامِلٌ مثل ألماسة. وبالنِّسبة إلى اللَّاحبيب، هو تَكرارٌ لا ينتهي. أمَّا بالنِّسبة إلى الحبيب، فيُمكنُ أن يستمرَّ إلى الأبد، مثل الله نفسه، واحدًا كاملًا ذاتيَّ الاكتفاء، الأمرَ "الواحد" الذي تدعو إليه "الحاجة".

إذا كُنتَ قد وقعتَ في الحُبِّ مرَّةً، أو لك صديقٌ وقعَ فيه، فأنت تعرفُ الفرقَ بين هذين المنظورَين. فالحبيبُ يَستَحوِذُ حبُّه عليه كُلِّيًّا، أو بالأحرى محبوبُه. إنَّه لا يسأم أبدًا. وفي وُسعه أن يستمرَّ ويستمرَّ إلى الأبد. إلَّا أنَّ المشاهِدَ الخارجيَّ- الصديقَ أو رفيقَ السَّكَن أو فَردَ الأُسرة- يَجِدُ الحبيبَ مُمِلًّا وضيِّقَ الأُفق وأسيرَ الهواجس: تمامًا عكسَ ما هو عليه في عينِ نفسِه.

تصوَّرِ اللَّاحبيبَ ناقدًا أدبيًّا يُقيِّم القصيدة أعلاه. "ها أنت جميلة، يا حبيبتي": لا يمكن أن تكونَ أكثر ابتذالًا من هذا، أو أكثر من مجرَّد كَونها كلاشيهًا. أمرٌ غير أصيل على الإطلاق. لا يسعُكَ أن تتصوَّر جُملةً أقلَّ براعة في التصوير المجازيّ. "ها أنتِ جميلة": السَّطرُ الثاني أقلُّ أصالةً بعدُ من الأوَّل. لا شيء سوى التَّكرار. إنَّنا نعلَم أصلًا أنَّها جميلة؛ كُفَّ عن عزفِ هذا الوَتَر. "عيناك حمامتان": صورةٌ سخيفةٌ مُفرِطةُ التبسيط.

حتَّى إنَّها غيرُ ملائمة تمامًا. أُوه، لا بأس؛ الحبُّ أعمى. فلنرَ الآن ما تقوله هي؛ لعلَّها شاعرةٌ أفضلُ منه على الأقلّ. "ها أنت جميل، يا حبيبي": آه، لا! لا مزيدَ من البضاعة ذاتها! إنَّ كلَّ ما تفعلُه هو تَكرارُ كلماتِه. "حلوٌ": أيضًا وأيضًا. ثلاثةُ أسطُر من أصل أربعة يمكن الاستِغناء عنها كلِّيًّا. "سريرُنا أخضر": مَن يهمُّه ذلك؟ إنَّه لا يهمُّني بالتأكيد. إنَّ هذه هي القصيدةُ الأكثرُ سخافةً وبساطةً وابتذالًا وصبيانيَّةً بين كُلِّ ما قرأتُه على الإطلاق (إذا تجرَّأتَ أن تُشرِّفها بتسمِيَتها قصيدة).

ولكنِ الآن أصغِ إلى الناقدَين الحقيقيَّين، أي الحبيبَين نَفسَيهما. "ها": كم هي مُذهِلةٌ رؤيةُ الحُبّ! يا لها من مُفاجأة... مِثلَ "المشاهَدة المبهِجة"، مِثلَ نور الله إذْ يَظهرُ فجأةً للأعيُن البَشَريَّة! "أنت جميلة، يا حبيبتي": صحيحٌ تمامًا، حقٌّ، جوهريّ. لا داعيَ لقولِ المزيد. هذه هي مُنيةُ القلب؛ هذا هو كلُّ ما يجوع القلبُ البشريُّ إليه. إنَّ البساطةَ بحدِّ ذاتِها فصاحةٌ كاملة. "ها أنتِ جميلة": كما يعكس **كلمةُ الله** الآبَ تمامًا، يعكسُ السَّطرُ الثاني الأوَّل، وللسَّبب نفسه: لا يُمكِنك إدخالُ أيِّ تحسين على ذلك. "عيناكِ حمامتان": إنَّ مُلاءمةً بسيطة لكنْ عجيبة لهذه الصُّورة تُشبعُ القلبَ حتَّى فيما العقلُ حائر. لأنَّ القلب وحدَه يستطيع أن يفهمَ الأُمور البسيطة؛ أمَّا العقل فيلعبُ لعبةً أُخرى، إذ يُركِّبُ الحقيقةَ باجتهادٍ من المفاهيم. "ها أنتَ جميلٌ، يا حبيبي": ليس في وُسعها أن تأتيَ بأفضلَ من الكمال، وهكذا فإنَّ جوابَها مُماثِل، عاكِسٌ لكمال حُبِّه وبساطته. "حلوٌ": ما أروعَ ألَّا تملَّ هذه الحقيقةَ الجوهريَّة! "سريرُنا أخضر": إنَّ كلَّ جُزءٍ تفصيليٍّ من الفنِّ والطبيعة على السَّواء مُضاءٌ من

جديدٍ الآن بنور الحُبِّ وجماله. فكُلُّ ورقة خضراء، وكُلُّ سرير، وكلُّ طائر، كُلُّها تُغنِّي الأُغنيَّةَ نفسها، أُغنيَّة الله بعينها، أُغنيَّة **الحبيب** الواحد الموحَّد الولاء لَدَى كامل الكَون، بكُلِّ أجزائه المتنوِّعة تنوُّعًا عجيبًا. حقًّا إنَّ رؤيةً كامِلةً إلى الكون مُتضمَّنةٌ في هذه الأسطُر القليلة!

فأنت ترى أنَّه، وإنْ كانت المحبَّة غيرَ مُكتَفيةٍ بأيِّ شيءٍ أقلَّ من الكمال (كما رأينا في نُقطتنا الأخيرة) وبكمالها الذاتيّ، فهي بذلك مُكتفيةٌ تمامًا ولا تحتاجُ إلى أيِّ شيءٍ أكثرَ من ذلك. ثُمَّ إنَّ المحبَّة تختبرُ شيئًا من ذلك الكمال السماويِّ حتَّى في الزَّمن الحاليِّ هُنا على الأرض، بشكلٍ نُبوئيّ. ولذلك فهي قانعةٌ حتَّى في الحاضر. ومع أنَّ بذرةَ المحبَّة لم تَنمُ بَعد، فهي مزروعةٌ أصلًا، وهي البذرة الفُضلى، البذرة الكلِّيَّةُ الكفاية، البذرةُ الكاملة الواحِدة والوحيدة، "اللؤلؤة الكثيرة الثَّمن" تلك التي تستحقُّ أن تُباعَ العوالِمُ لأجلها. ونحن نفعل الصَّواب إذ نكتفي بها بَدَلَ أن نطمحَ إلى أيِّ شيءٍ سواها.

١٥. المحبَّة فرديَّة

غَرَضُ المحبَّة شخص، وكلُّ شخصٍ هو فَرد. وما من شخصٍ يكون فئةً أو نوعًا أو تشكيلة. فليس ثمَّة شيءٌ يُدعى حُبَّ الإنسانيَّة، لأنَّه لا يوجد شيءٌ يُسمَّى الإنسانيَّة. وإذا كان واعِظوك ومُعلِّموك قد قالوا لك إنَّ الكتابَ المقدَّس يُعلِّمك أن تُحِبَّ الإنسانية، فقد كذبوا عليك. فالكِتاب المقدَّس لم يقُل ذلك ولا مرَّة؛ حتَّى إنَّه لا يذكر كلمة **الإنسانيَّة** ولا مرَّة. إنَّما يُوصينا السيِّدُ المسيحُ دائمًا أن نحبَّ الله وقريبَنا بالأحرى.

كم هي "الإنسانيَّة" مُريحة! إنَّ "الإنسانيَّة" لا تَظهَرُ أبدًا عند بابك في الوقت الأكثر إزعاجًا. "الإنسانيَّة" ليسَت مُخاصِمة ولا مُدمِنةً على الكُحول ولا مُتطرِّفة. "الإنسانيَّة" ليس لها أبدًا الآراءُ الخاطئة على صُعُدِ السياسة والدِّين والجنس. "الإنسانيَّة" ليست أبدًا قَذِرةً، أو مُكتظَّة، أو مُنحطَّة، أو كريهةَ الرائحة، أو بذيئة. "الإنسانيَّة" مثاليَّةٌ جدًّا بحيث يَسَع المرءَ أن يموتَ بسهولةٍ لأجلها. أمَّا أن تموتَ لأجلِ قريبك، أن تموتَ لأجل أشخاصٍ مثل "متعب الثَّرثار" أو "سندس الملَّان"، فذلك أمرٌ غيرُ وارد... إلَّا لَدَى المحبَّة.

قال أَحَدُ القدِّيسين إنَّه لو كُنتَ الشخصَ الوحيدَ الذي خلقَه الله أصلًا، لكان احتمل كلَّ ما احتمله من العَناء لكي يُخلِّصك أنت وحدَك. ولمَّا ماتَ على الصليب، لم يمُت لأجل الإنسانيَّة، بل مات لأجلك. فهو يقول: "ها قد دعوتُك باسمِك... على كفَّيَّ نقشتُك". وحينَ يُرحِّبُ بكَ في مُقامِك السماويّ، لن يُخاطِبَك بالتَّعبير "يا رفيق". فالحبيبان يحلو لهما أن يهمسا أحدُهما بِاسْم الآخر، لأنَّ الاسم يُمثِّلُ الشَّخص، الكائنَ الفَرد.

وهكذا، ففي نشيد الأنشاد تتساءل جوقة اللَّاأحِبَّاء:

"ما حبيبُكِ من حبيب، أيَّتُها الجميلة بين النِّساء؟" (نشيد ٥: ٩).

فتُجيب العروس:

"حبيبي أبيض وأحمر؛ مُعلَمٌ بين رِبوة" (نشيد ٥: ١٠).

والأمرُ نفسُه صحيحٌ بالنِّسبة إليها من جهة نظره:

"هُنَّ ستُّون مَلِكة وثمانون سُرِّيَّة،
وعذارى بِلا عدد.
واحدةٌ هي حمامتي، كامِلَتي" (نشيد ٦: ٨ و٩).

إنَّ اسمَ الله يتمثَّلُ في اللَّفظ الفَرد الفريد "أهيَه" ["أنا الكائن"] (خروج ٣: ١٤). وصورةُ الله فينا هي "أنا" الخاصَّة بنا. أمَّا أنَّ هذا الشيءُ الخصوصيَّ الفريدُ الفردُ يمكنُ أن يُشارَكَ رُغمَ ذلك فهو المفارَقة الظاهريَّة في الحُبّ.

يرى الحبيبُ الحبيبةَ لا باعتبارها واحدةً بين كثيرات، بل بوَصفها مركَزَ الكَون؛ لا باعتِبارها مُقوِّمًا، بل بوصفها كُلًّا؛ لا على مُحيط دائرةِ فكرِه، بل في المركَز، واقفةً في المكان عينه حيثُ يقِفُ هو، في مركَزه الخاصِّ به، "أنا" الفرديَّة الخاصَّة به على نحوٍ فريد. فالحُبُّ له أنَيان (أنا×٢)؛ ولذلك يُبصِرُ بكُلِّ جلاء.[١٦]

لماذا خلقك الله؟ لقد خلقَ مليارات من الناس الآخرين؛ ألَم يكونوا يَكفونه؟ لا، لم يكونوا يَكفونه. فكانَ لا بُدَّ أن يأتيَ بك. وهو لن يستَريحَ حتَّى يأتيَ بك إلى بيته. حتَّى لو كُنتَ أنت الخروفَ الواحد الذي ضاع، فإنَّه يترك التِّسعةَ والتِّسعين (أو التسعةَ والتسعين مليارًا) الأُخرى لكي يطلبَكَ أينما كُنتَ. وهو سيَدخُلُ أدغالك وبَرِّيَّتك، بل أيضًا- على الصليب-

(١٦) استخدمَ الكاتبُ في الإنكليزيَّة الضمير "I" بمعنى "أنا"، والذي يُلفَظُ كما تُلفَظُ الكلمة الإنكليزيَّة "Eye" وتعني عَين. وفي هذا إبداعٌ في الأصل اقتضى التنويهُ؛ لأنَّه غير واضحٍ في العربيَّة (الناشر).

خطيَّتك. "لأنَّه جعل الذي لم يعرفْ خطيَّةً خطيَّةً- لأجلنا- لنَصير نحنُ برَّ الله فيه" (٢كورنثوس ٥: ٢١). فإحدى الشظايا التي اخترقَتْ جسدَه على الصَّليب كانت شَظيَّتَك وحدَها. وإحدى الجواهر في تاجه ستَكونُ جوهرتكَ وحدَها. فإليكَ كيف يَراكَ حبيبُك الإلهيُّ:

"كالسَّوسنة بين الشوك،
كذلك حبيبتي بين البنات" (نشيد ٢: ٢).

وينبغي أن تكونَ استَجابتُك له فرديَّةً بالمِثل:

"كالتُّفاح بين شجر الوعر،
كذلك حبيبي بين البنين" (نشيد ٢: ٣).

ذلك هو ما تَعنيه إطاعةُ "الوصيَّة الأُولى والعُظمى": أن تحبَّ الربَّ إلهك بكلِّ قلبك، "لأنَّ الربَّ إلهَك إلهٌ غيور". فالمحبَّة غَيرى لأنَّ المحبَّة فرديَّة. إنَّ المحبَّة لن تُشرِكَ مع المحبوب أحَدًا، كما لو أنَّ القلبَ يُمكِنُ أن يُقسَّمَ أجزاءً. ولذلك وجَبَ أن يكونَ الله لامُتناهيًا، حتَّى يُمكِنَه أن يُعطيَ كلَّ واحدٍ منَّا كامِلَ قلبه دون أن يُقسَّم. فاللَّامُتناهي وحدَه يستطيعُ أن يفعلَ ذلك. ونحن نستطيعُ أن نُعطيَ واحدًا فقط كامِلَ قلبنا في وقتٍ واحد: إلهًا واحدًا، لأنَّ هنالك واحدًا فقط، وشريكَ حياةٍ واحدًا. فإنَّ الزَّواجَ هو أقربُ صورةٍ على الأرض للسَّماء، لأنَّه إمَّا الكلُّ وإمَّا لاشيء، إلى الأبد... قفزةُ إيمان.

١٦. المحبَّة تقهرُ كلَّ شيء

يقولُ الشاعر: "الحبُّ يهزم كلَّ شيء". فما من قوَّةٍ على الأرض تَقوى على الوُقوف في وجه قُدرته، لأنَّ قُدرتَه إلهيَّة. حتَّى الجبالُ، وهي في الكتاب المقدَّس ترمزُ إلى العوائق (راجِع إشعياء ٤٠: ٤)، ليست عائقًا للحُبِّ في نشيد الأنشاد؛ حيثُ الحبيبُ "آتٍ طافرًا على الجبال، قافزًا على التِّلال" (نشيد ٢: ٨). فعلى غِرار الإيمان، تنقلُ المحبَّةُ الجبال (راجع متَّى ١٧: ٢٠).

وفي الواقع أنَّ العوائق في طريق الحُبِّ، بحدِّ ذاتها، يجعلها الحُبُّ جُزءًا من ذاته. فالمَهَمَّات الشاقَّة تصيرُ فُرَصًا للبُطولة. وكما يقولُ الكاهن في مَراسِم الزَّواج الكاثوليكيَّة، فإنَّ الزَّواجَ رفيعٌ ومُقدَّس جدًّا، ومُستلزِمٌ التضحيةَ بالذَّات جدًّا، بحيثُ إنَّ "المحبَّة وحدَها تجعلُه مُمكِنًا، والمحبَّة الكاملة وحدَها تجعلُه فَرَحًا".

إنَّ مُعادِياتِ المحبَّة تنشُرُ الظَّلام في أُفُق عالَمِنا السَّاقط، وعلى غِرارِ نبيِّ العهد القديم نصرخُ طبيعيًّا رافعين الشَّكوى إلى الله. غير أنَّ الله يُرينا هنا- كما أرى النبيَّ- مشهدَ جُيوشٍ أعظمَ بَعدُ، جُيوشِ الرَّبّ، مُتألِّقةً بصَفاءٍ وصلاحٍ ملائكيَّين، مُطوِّقةً جيشَ أعداءِ الأُمَّة الشِّرِّيرَ الذي يُطوِّق بِدَورِه الأُمَّةَ الصغيرة المحاصَرة. إنَّنا لسنا وحدَنا أبدًا. "ها أنا معكم كلَّ الأيَّام، إلى انقضاء الدَّهر"، هكذا قال ذلك الشخصُ الوحيدُ الذي قال بحقٍّ ما تاق كلُّ هِتلَرٍ وناپوليونٍ وإسكندرٍ وقيصرٍ أن يقولوه: "أنا قد غلبتُ العالَم" (يوحنَّا ١٦: ٣٣). فهُم أخفَقوا لأنَّ أسلحتَهم كانت البَغضاء. أمَّا هو فنجحَ لأنَّ سلاحَه كان المحبَّة. وهُم ذَبَحوا أعداءهم؛ أمَّا

هو فقد سمحَ بأن يُذبَح. إنَّ الحَمَل دحرَ حتَّى التِّنِّين (في سِفر الرؤيا) بدَم محبَّته. فجِراحُ قلبِ السيِّد المسيح الأقدس هي أقوى قُوَّةٍ في الكَون. وإذا كانت محبَّتُنا مُتَّحِدةً بمحبَّته، إذا كُنَّا نحنُ مُتَّحِدين به، فإنَّنا نحن ومحبَّتنا **لا يمكنُ** أن نُخفِق.

١٧. المحبَّة مُفاجأة

ليست المحبَّة خاضعةً للحسبان أو السيطرة أو التكهُّن أو التوقُّع. إنَّ المحبَّة "كارثةٌ خيِّرة" (Good Catastrophe) باستعمال تعبير تولْكين الجديد. إنَّها علامةُ حضور الله، وهكذا فهي تأخذنا على حينِ غِرَّة، كما يأخذُنا هو. فإنَّ إله الكتاب المقدَّس، مُتميِّزًا عن أيٍّ واحد من الآلِهة الكثيرين الذين نسجَهُم الخَيال البشريّ، ليس نُقطةَ أيٍّ مُثلَّثٍ بشريّ؛ بل نحنُ نُقطةُ مُثلَّثه. إنَّه ليس مَرمى سِهام روحِنا؛ بل نحنُ مَرمى سِهامِه. فإله الفلاسِفة هو "كائنٌ" فحسْب؛ أمَّا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فيَطلعُ وراءَنا ويقول: "هُوو!".

لذلك يستخدمُ ناظِمُ النشيد صورةَ الغزال المستغربة. فهَل الرَّبُّ كالغزال؟ نعم! أرأيتَ مرَّةً غزالًا؟ إنَّه يَقفِز هُنا وهُناك بخفَّةٍ وعدم توقُّع لا يُصدَّقان، مِثلَ بُرغوثٍ مُكبَّر. حتَّى وقوفُه في مكانه يبدو فعَّالًا بل مُنذِرًا بالخَطَر تقريبًا... كأنَّه في كلِّ لحظةٍ مُهَدِّدٌ بالوُثوبِ عليك. وهكذا، فإنَّ العروسَ يُجفِلُها فجأةً سماعُ صوتِه:

"صوتُ حبيبي!

هُوَذا آتٍ طافِرًا على الجِبال،
قافِزًا على التِّلال.
حبيبي هو شبيهٌ بالظَّبي،
أو بغُفر الأيائل.
هُوَذا واقفٌ وراء حائطنا،
يتطلَّع من الكُوى،
يُوَصوِصُ من الشبابيك.
أجاب حبيبي وقال لي:
"قومي يا حبيبتي، يا جميلتي،
وتعالَي!"" (نشيد ٢: ٨-١٠).

إنَّ الحُبَّ يحملُ على الفِرار برفقة الحبيب. فالله يدعونا، مثلَما دعا إبراهيم، للخروج بعيدًا عن الأمان الذي عرفناه، إلى خارجِ غُرفتنا الصغيرة القديمة المألوفة، هُبوطًا على سُلَّم الإيمان للارتماء بين ذراعَيه تعالى. وقد دعا السيِّدُ المسيح تلاميذَه بتلك الطريقة، كما يفرُّ الحبيبُ بمحبوبته. فكُلَّما خُيِّلَ إلينا أنَّنا أخضَعْناه لِخُطَطِنا، بدَّدَ خُطَطَنا بصِفتَها ما هي عليه في الواقع: غُيومًا من دُخان، ووقفَ أمامَنا بدلًا من أحلامنا، من توقُّعاتنا القاتمة، واضطَرَّنا إلى الاختيار بينه وبين ذواتنا، بين إلهِ المفاجآت وصَنَمِ الذاتِ القديمة بعَينها، بين **الإلهِ** الغزالِ **والذَّاتِ** الحلزونة العُريانة. وذلك هو جَوهريًّا الاختيارُ ما بين السَّماء والجحيم.

١٨. المحبَّة عديمةُ الخوف

"لا خوف في المحبَّة، بل المحبَّة الكاملة تطرحُ الخوفَ إلى خارج"، هكذا يقول يوحنَّا البشير (١يوحنَّا ٤: ١٨). وسُلَيمانُ "البشير" يقولُ القَول عينَه. فالمحبَّةُ والخوفُ هما كالزَّيت والماء: لا يمكن أن يشغلا المكانَ عينَه، النَّفسَ عينَها، في الزمان عينه. إنَّ أحَدَهما يطردُ الآخر.

في نشيد الأنشاد، تختبئُ العروس في مخابئ الصَّخر (نشيد ٢: ١٤)، خائفةً من لقاء حبيبها. وليس هذا سخيفًا؛ بل بالحقيقة أنَّ غيابَ الخوف، العصريَّ على نحوٍ نموذجيّ، هو سخيف. فغيرُ صحيحٍ حقًّا أنْ "لا شيءَ ينبغي أن نخافَه ما عدا الخوفَ بعَينه". إنَّ هناك أُمورًا كثيرةً ينبغي أن نخافَها. فهناك الشَّرُّ أوَّلًا، ثُمَّ جَهنَّم والشَّيطان. وهناك غضبُ الله، ذاك الذي **ليس** بأُسطورةٍ خُرافيَّةٍ خَرقاء، إلَّا إذا كان الكتابُ المقدَّس أُسطورةً خُرافيَّةً خَرقاء. وعلى المستوى البشريّ، هناك الإمكانُ الرهيب، لكنِ الواقعيُّ جدًّا، ألَّا يُبادِلَنا المحبوبُ حُبَّنا طَوعًا واختيارًا. فإنَّ المحبَّة مُعرَّضةٌ للخَطَر على نحوٍ مُروِّع، كما يسهلُ أن يُساءَ فَهمُها أو تُرفَض. بلى، إنَّ هناك أُمورًا كثيرةً ينبغي أن نخافَ منها.

وأكثرَ الكُلِّ، هناكَ الصَّلاحُ ينبغي أن نخافَه. إنَّ الله هو صلاحٌ كامل، وقداسَةٌ مُطلَقة، وبرٌّ تامّ. فهل ذلك **مُخيف**؟ هو كذلك يقينًا... لنَفسٍ غيرِ مُحِبَّةٍ كلِّيًّا للصَّلاح، وغيرِ مُرسَّخةٍ كلِّيًّا في البرّ، وليست في صفِّ القداسة ١٠٠٪. ألكَ أن تشعر **بالرَّاحة** التامَّة إذا قابلتَ الله الآنَ الآن، في هذه الدقيقة تمامًا، وجهًا لوجه، وليس لك مخبأ، ولا أعذار، ولا شيءَ مِمَّا يخصُّك مَستور؟ إذا استطعتَ أن تقولَ "نعم" إزاءَ هذا التَّحدِّي الرهيب، فأنت

إمَّا أعظَمُ قِدِّيسٍ في العالَم وإمَّا أعظَمُ مُغفَّلٍ في العالَم.

من الخير أن يوجَدَ خَوفٌ حتَّى تتمكَّنَ المحبَّةُ من أن تطردَه خارجًا. وإن لم يكُن من خَوفٍ تتولَّى المحبَّةُ طردَه، تقع المحبَّةُ على تُربة غير مُهيَّأة. فإذا كان مفهومُك لله يفتقرُ إلى التَّهيُّب والاحتِراس والخوف والارتعاد، فإنَّ مفهومَك للمحبَّة سيَفتقرُ أيضًا إلى الرَّهبة. وإذا كانت نفسُك بالغةَ الصِّغَر والغُرور بحيث تشعرُ بالرَّاحة والأُلفة المفرِطة في حضرة الله، فإنَّ المحبَّة الوحيدةَ القياسِ التي ستتقبَّلُها داخِلَ نفسِك هي محبَّةٌ مُريحة ومُفرِطةُ الأُلفة.

ولكنْ ما إن يوجَدُ الخوفُ العظيمُ والسَّليم، حتَّى تحلَّ محلَّه المحبَّةُ العظيمةُ والسليمة. فإنَّ الخوفَ رِباطٌ- مَهما كان صبيانيًّا- بين النَّفسِ والله. إنَّما المحبَّةُ رِباطٌ أكمَلُ وأوثق. ولا شيءَ أقلَّ من الرِّباط الأعظم ينبغي أن يطردَ الرِّباطَ الأصغر. فإنَّ "الخُبَراء" في عِلمِ النَّفسِ الرَّعويَّ و"التَّربية الدينيَّة" ينبغي ألَّا يُسمَحَ لهم بأن يخطفوا تلك البذرةَ الثمينة؛ لأنَّه متى وقعَت بذرةُ الخوف في أرض المحبَّة وماتَت، تأتي بثمرٍ كثير.

إنَّ المحبَّةَ تطردُ الخوفَ خارجًا، لأنَّ نَوعَ المحبَّة التي نتكلَّم بشأنها هنا هو "أغاپي"، لا "إروس". فالشَّهوةُ لا تطرد الخوف، أمَّا أغاپي فتطردُه، لأنَّ أغاپي تتضمَّن الثِّقة. والثِّقة وحدَها- أي الإيمانُ وحدَه- تتغلَّب على الخوف. فإذا اعتقَدْنا أنَّ محبَّتنا ستُرفَض، نخاف. ولكنْ إذا وَثِقنا بأنَّ محبوبَنا سيكون أيضًا حبيبَنا، إذا عَلِمنا أنَّ حُبَّنا سيُرَدُّ بمثله، أو حتَّى بأفضلَ منه، فلا يكونُ لدينا أيُّ خوف. "لا خوف **في** المحبَّة"، بل **خارجَها** فقط.

ثُمَّ إنَّ محبَّةَ الله هي المحبَّة الوحيدة الجديرة بالثِّقة كلِّيًّا (ومن ثَمَّ هي المحبَّةُ الوحيدة المضمونُ أن تطردَ الخوفَ خارجًا) لأنَّ الله وحدَه، إلى التَّمام، يعرفُنا ويقبلنا ويُطَمئنُنا "إنَّ أبي وأُمِّي قد تركاني، والربُّ يضمُّني" (المزمور ٢٧: ١٠).

١٩. المحبَّة مُبادَلةُ نفسٍ

يُقال في نشيد الأنشاد شيءٌ بسيطٌ إلى أقصى حدٍّ لكنْ عجيبٌ على نحوٍ لا يُصدَّق (وذلك في ٢: ١٦ ثُمَّ ٧: ١٠ أيضًا): "حبيبي لي وأنا له". إنَّ الحُبَّ مُبادَلةُ نفس. فعندما أُحِبُّك، لا أبقى مُتلكًا لنفسي بَعد؛ بل أنت تمتَلِكُني. إنِّي قد تخلَّيتُ عنها. ولكنِّي أمتَلِكُ نفسَك. فكيفَ يمكن أن يكونَ هذا؟ كيف يمكنُ أن تكونَ عطيَّةُ المعطي هي العطيَّةُ بذاتها؟ كيف يمكن أنَّ اليدَ التي تُعطي تُمسِكُ نفسَها بنفسِها بوصفها عطيَّةَ ذاتِها؟ إنَّ العلاقة المعتادة بين المعطي والعطيَّة، بين الذات والموضوع، بين السَّبب والنتيجة، تُدحَرُ هنا. فالحقيقةُ البَدَهيَّة أنَّك في الحُبِّ تُعطي محبوبَك نفسَك بالذَّات هي سِرٌّ سامٍ ومُقدَّس.

على أنَّ التفسيرَ الأقصى لهذه الحقيقة هو بَعدُ سرٌّ أسمى وأقدس، إذ هو الثالوثُ الإلهيُّ بعَينه. فالحبيبان ينتميان أحَدُهما إلى الآخر لأنَّ الأقانيمَ الثلاثة في الثالوث الأقدس يُعطون أنفُسَهم بعضُهم لبعض. ذلك أنَّ الابن **هو** تمامًا كَلمةُ الآب، أو فِكرُه، أو عقلُه، مُعطًى على نحوٍ كلِّيٍّ بحَيثُ هو أُقنومٌ (شخصٌ) آخَر؛ والرُّوح القُدس **هو** روحُ المحبَّة بين الآب والابن مُعطًى على نحوٍ كُلِّيٍّ بحيثُ يكونُ هو أيضًا، أزَليًّا، أُقنومًا ثالِثًا.

وصورةُ هذه الحقيقة المطلَقة، في الحُبِّ البشريِّ، هي أنَّ في وُسع الحبيبَين حقًّا أن يُعطيا أحَدُهما الآخرَ نفسَه، بحيثُ "يصير الاثنان واحدًا" من دون أن يكفَّا عن أن يكونا اثنَين. ففي الحُبِّ البَشَريِّ أصلًا يتَجاوَزُ البشرُ قوانين الرِّياضيات: وفي هذا مِفتاحٌ فعَّالٌ لوُجوب عدم توقُّعنا انسحابها على الحُبِّ الإلهيّ، بُرهانٌ جيِّدٌ على أنَّه يكون من الحماقةِ المكابِرةِ أن ننكرَ عقيدةَ الثالوث لأنَّها لا تبدو معقولة رياضيًّا.

ففي الثالُوث، يكون الله، أزليًّا، واحِدًا بمعرفته ومحبَّته لنفسه. إنَّه الاتِّحادُ بين الأقانيم الثلاثة ذاك الذي هو وحدةُ الله العُليا، لا الواحِديَّةُ الرِّياضيَّة، أو هُوِيَّةُ جوهِره. ولذلك أيضًا بينَنا نحنُ البَشَر، بوصفنا صورةَ الله، تكون العلاقة بين الحبيب والمحبوبة أوثقَ من الاتِّحاد بين الحبيب ونفسِه. فإنَّه واحِدٌ أكثرَ مع محبوبته؛ إنَّهْ يجدُ واحِديَّتَه، أو شخصيَّته الفَردة، أو هُوِيَّتَه، فيها أكثرَ ممَّا في نفسِه؛ إنَّه "يَتماهى" معها (يتوحَّدُ بها) أكثرَ منه مع نفسه.

وكما أنَّ أقانيمَ الثالوثِ هم واحِد، والزَّوجَ والزَّوجة يصيران واحِدًا، فكذلك أيضًا يغدو الله والإنسان واحِدًا في السيِّد المسيح. فمحبَّة الله تستبدل ذاتَه بذاتِنا [أي نتركُ ذاتنا]. إنَّه يَضعُنا في صُلبِ **جسده** السرِّيّ. إنَّه يضعُ روحَه ذاتَه في داخِلنا. إنَّه فينا، ونحن فيه. وقد قال أحَدُهم إنَّه لو فَهِمَ اللَّاهوتيُّون تمامًا معنى الكلمة "في" فقط، لكانوا حَلُّوا جميعَ الأسرار.

ولئن كان هذا سرًّا، فإنَّه ليس نائيًا. وأيُّ حبيبٍ يعرفُه. فالعبيدُ ينتمون إلى سادتهم بدافع القُوَّة والعُرف، وناشِدو المتعة ينتمون إلى أنفُسهم فقط،

أمَّا الحبيبان فينتميان أحَدُهما إلى الآخر. وهكذا، فإذا كنتُ أُحِبُّك، فحيثُ تكونُ أنت أكونُ أنا، لأنِّي معك أكثرَ ممَّا أنا مع نفسي. ومهما حدث لك، يحدث لي؛ ومن ثَمَّ فهو يحدُثُ لك مرَّتَين: لكَ في ذاتك ولكَ فيَّ. لذلك السَّبب، حين يَعمِدُ أبٌ إلى صَفْع ولدِه المستحِقِّ يقولُ الحقَّ إذ يقول له: "إنَّ هذا يؤلِمُني أكثرَ مما يؤلِمُك". ولَربَّما كان هذا هو واقعَ الحال أيضًا عندما يؤدِّبُنا الله.

٢٠. المحبَّة انتِصاريَّة

كثيرٌ من التَّصوير البيانيِّ في نشيد الأنشاد لا يروقُ الأحاسيسَ العصريَّة؛ لأنَّه- على نحوٍ عتيقِ الطِّراز- انتِصاريٌّ، احتِفاليّ، رسميّ، بل عسكريٌّ أيضًا. مثلًا:

"مَن هذه الطالعةُ من البرِّيَّة كأعمدةٍ من دُخان،
مُعطَّرةً بالمرِّ واللُّبان، وبكلِّ أذِرَّة التاجر؟
هوذا تختُ سُلَيمان، حوله ستُّون جبَّارًا من جبابرة إسرائيل،
كلُّهم قابضون سيوفًا ومُتعلِّمون الحرب،
كلُّ رجُل سيفُه على فخذه، من هولِ اللَّيل.
المَلِك سُلَيمان عمل لنفسهِ تختًا من خشب لبنان؛
عَمِلَ أعمدتَهُ فضَّة، وروافِدَه ذهبًا،
ومقعدَه أُرجوانًا،
ووسطه مرصوفًا محبَّةً من بنات أُورشليم.

اخرُجن، يا بنات صهيون،
وانظُرن الملك سُلَيمان بالتاج الذي توَّجته به أُمُّه
في يوم عُرسِه،
وفي يومِ فَرَحِ قلبه" (نشيد ٣: ٦-١١).

إنَّ هذا يؤثِّر فينا أقلَّ بكثيرٍ ممَّا أثَّر في الأقدمين، لأنَّنا نعيش في عالَمٍ مُسَطَّح، عالَمٍ من المساواة، بينما عاش الأقدمون في عالَمٍ مُفعَم بالأبعاد والمراتب الروحيَّات، عالَمٍ من الأبراج المرتفعة. غيرَ أنَّ قُلوبنا تحتجُّ على أرضِنا المنبسطة وتحنُّ إلى بلدِهم الحقيقيِّ، إلى بُعدِ العموديَّة الحقيقيِّ عندَهم. فالمحبَّة حقًّا مُتفوِّقة. ومن حقِّها الجلوسُ على عرش. وهي بحقٍّ تتباهى وتمدَح وتبتهج وتحتفل، وتُنشِدُ نشيدَ أنشادِها، نشيدَها الفائقَ لما هو عاديّ، نشيدَها الأعظم. إنَّها تستحقُّ الفِضَّة والذَّهب والحُلَل والتِّيجان! ولسوف تكون السماء مُفعَمةً بها (إذا عَنَت رمزيَّةُ سِفر الرؤيا شيئًا ما في الأصل)؛ أفليسَ أحرَى بنا أن نُمارِسَ مُعايَشَتها؟

٢١. المحبَّة طبيعيَّة

المحبَّة هي أمرٌ خارقٌ للطَّبيعة، ولكنَّها أيضًا طبيعيَّة، مثلَ السيِّد المسيح، إذ هو الله إلى التمام وإنسانٌ إلى التَّمام. فليست المحبَّة فقط طبيعيَّةً، بوصفها الإشباعَ للطبيعة البشريَّة، ونُقطةَ التصميم الإلهيِّ للإنسان؛ بل هي أيضًا القوَّة الأساسيَّة في الطبيعة. وما الجاذبيَّة إلَّا المحبَّة مُتَّجهةً نحو الداخل من الخارج، المحبَّةُ على صعيدٍ فيزيائيّ. فإنَّ "المحبَّة تُحرِّك

الشمس وجميعَ النجوم"، كما عرف دانتِه والأقدمون. إنَّ المحبَّة هي الفِكرةُ المهَيمِنة المتكرِّرة في مقطوعة الطبيعة السِّمفونيَّة، بيتُ القصيدِ في نشيد الطبيعة.

ذلك هو السبب الذي من أجله يتقصَّدُ شاعِرُ نشيد الأنشاد- على غِرار جميع شُعراء الغَزَل الكلاسيكيِّين- أن يطلب ويستخدم تشبيهاتٍ من الطبيعة كُلِّها للحُبِّ البَشَريّ. ولو لم تكُن المحبَّة في الأصل هي وَتَرَ الطبيعةِ الرائدَ، لكان أمرًا مُصطنَعًا وفِعلَ عُنفٍ روحيٍّ أن تُستخدَم صُورٌ من الطبيعة للتَّعبير عنها.

غير أنَّ الحسَّاسيَّة العصريَّة أكثرُ مادِّيَّةً من حسَّاسيَّة الأقدمين؛ ولذلك يُعوِزنا أن نُعلِّم من جديدٍ لمحةً جوهريَّة واحدة، على الأقلِّ، من ملامح التَّصوير البيانيِّ الكلاسيكيّ. فهذه الصُّور غالبًا ما تكونُ مؤسَّسةً لا على شَبَهٍ تجريبيٍّ مَرئيٍّ، بل على شَبَهٍ عاطفيّ. تأمَّلِ النَّصَّ التاليَ مثلًا. فلا واحدةَ من الصُّوَر الطبيعيَّة السَّبع تنطوي على تشابُه منظور، إلَّا بشَكلٍ بعيدٍ جدًّا. وإذا حَسِبَ القارئُ أنَّ الكاتِبَ يسعى إلى ذلك، فإنَّ سِحرَ الشِّعر لن يفعلَ فِعلَه فحسْب، بل أيضًا سيُثير سِحرًا مُضادًّا من السُّخرية والضَّحِك. ولكنْ إذا فَهِمَ القارئ أنَّ طَبَقاتٍ خفيَّةً ومُتعدِّدة من المعادَلة العاطفيَّة مَبنيَّةٌ على مُجرَّد أساسٍ صغير من المماثلة المنظورة، فإنَّه سيتمكَّن من وُلوجِ عالَمِ الملاءمة السرِّيِّ عندَ الشاعر:

"عيناكِ حمامتان من تحتِ نِقابِك.
شعرُكِ كقطيعِ مَعزٍ رابض على جبل جلعاد.

أسنانُكِ كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل،
اللواتي كلُّ واحدةٍ مُتئم، وليس فيهنَّ عقيم.
شفتاكِ كسِلكةٍ من القرمز،
وفمُكِ حُلو.
خدُّكِ كفِلقة رُمَّانة تحتَ نقابِك،
عُنقُكِ كبُرج داودَ المَبنيِّ للأسلحة،
ألف مِجَنٍّ عُلِّقَ عليه، كلُّها أتراس الجبابرة.
ثدياكِ كخِشفتَي ظبية،
توأمَين يرعيان بين السَّوسن" (نشيد ٤: ١-٥).

فكيفَ يكون مُلائمًا تمامًا أن يُشبَّه الثَّديان بصغيرَي غزالةٍ يرعيان بين السَّوسن، هو أمرٌ تحليلُه وتفسيرُه أصعبُ بكثيرٍ من إدراكه بالحَدْس. أمَّا **كَونُه** ملائمًا، حيثُ تُوجَد مُلاءمة طبيعيَّة بين ما يراه الحبُّ في المحبوبة وفي الطبيعة، فهوَ الأمرُ الأهمّ. فإنَّ التصوير المأخوذ من الطبيعة مَوجودٌ في كلِّ مكانٍ من شِعر الحُبِّ لأنَّ الحُبَّ مَوجودٌ في كلِّ مكانٍ من الطبيعة. إنَّ كلَّ ما في الطبيعة يمكنُ أن يرمزَ إلى الحُبّ، لأنَّ كلَّ ما في الطبيعة صُمِّمَ وخُلقَ لكي يُبيِّنَ محبَّة الله. "السماوات تُحدِّث بمجد الله، والفَلَك يُخبِر بعمل يديَه" (المزمور ١٩: ١). فكُلُّ وَرَقة عُشب هي وَرَقةُ نعمة، نَغمةُ نعمَةٍ في نشيد الله الفَرد. إنَّ الطبيعةَ ليست عمياء ولا خرساء؛ بل إنَّ الطبيعةَ فصيحةٌ بليغة. إنَّما العلمُ البشريُّ أعمى وأخرس، إنْ كان لا يسمع آياتِ هذه الفصاحة أو البلاغة.

٢٢. المحبَّة مُخلِصة

كلٌّ واحدة من الوصايا العشر مُواصَفةٌ من مُواصَفات المحبَّة: فالمحبَّة لا تسرق، والمحبَّة تحفظ يوم الرَّبّ، والمحبَّة لا تشهد بالزُّور، وهكذا دَوالَيك. إنَّما يبدو أنَّ الاستثناءَ الوحيدَ هو الزِّنى. ولكنْ ليست المحبَّة هي التي ترتكب الزِّنى ضدَّ نفسها. إنَّ المحبَة لا تغشُّ نفسَها. إنَّها لا تحتاج إلى قانونٍ خارجيٍّ ليُرغِمَها على أن تكون مُخلِصة؛ فالمحبَّة الحقيقيَّة وفيَّةٌ على نحوٍ طبيعيّ. المحبَّةُ تُريد أن تكون مُخلِصة. إنَّها تُريد أن تُعطيَ كلَّ ذاتِها لشخصٍ واحد، لا أن تُوزِّعَ ذاتها وتُقسِّمَها على كثيرين.

وهكذا، فإنَّ "أُختي العروس جَنَّة مُغلقة؛ عين مُقفلةَ؛ ينبوع مختوم" (نشيد ٤: ١٢). فالمحبَّة مختومةٌ أمامَ الدُّخلاء. "اجعلني كخاتمٍ على قلبك" (نشيد ٨: ٦).

من المستحيل أن تُعطيَ كامِلَ ذاتِك لأكثرَ من شخصٍ واحد، لأنَّك تستطيع أن تُعطيَ الكُلَّ فقط الكُلَّ، والشخصُ الفَردُ وحدَه هو كُلٌّ كامِل. فالمجموعةُ ليست كُلًّا صحيحًا. وليس في وُسعك أن تُعطيَ مجموعةً من اثنَين أو أكثر كامِلَ نفسك. فإذا "ضَرَبتَ" المتَلقِّيَ، "تَقسِمُ" العطيَّة، والمعطيَ أيضًا. والمعطي المقسوم، الذاتُ المقسومة، أمرٌ رهيب، مثلَ الشخصيَّة المنفَصمة. إنَّما الله وحدَه يستطيعُ أن يُعطِيَ كامِلَ نفسه لأكثرَ من واحد، لكُلِّ واحدٍ منَّا، لكُلٍّ على حِدَة، لأنَّ الله هو في الأزليَّة- الأبديَّة ولَدَيه الزَّمن كلُّه تحتَ تصرُّفه. فلا أحَدَ يستطيعُ أن يُعطيَ الكُلَّ لأكثرَ منْ شخصٍ واحد في وقتٍ واحد، ونحنُ في إطار الوقت، أمَّا الله فليس فيه.

ومع أنَّ الله يحبُّ كلَّ واحدٍ منَّا، فإنَّ محبَّته لكُلِّ واحدٍ هي غَيرى ومختومةٌ ومُخلِصة كمحبَّتنا تمامًا. ذلك أنَّ العريس الإلهيَّ لن يقبلَ أن يُشرِكَ عروسَه، أي نفسَك، مع الآخرين، مثلُه مثلُ أيِّ عريسٍ بَشَريٍّ سَويّ. فهو بالأحرى يُريد أن "يدَّخِرَ" ينبوعَه المختوم، مُقتَناه، لنفسه فقط. "لأنِّي، أنا الربَّ إلهَك، إلهٌ غيور" (خروج ٢٠: ٥). ولا شكَّ أنَّ ثمَّة تَرابُطًا بين سُخريَةِ النزعة العصريَّة من هذه "الغَيرة" في الله وسُخريَتها من الأمانة في الزواج. فقدِ استبدَلْنا "بطريقِ" السيِّد المسيح "الضَّيِّقِ" حفلةً صاخبةً شامِلة، "تلمُّسَ طريقٍ جَماعيًّا" بين الآلِهة؛ وقدِ استبدلْنا بالمبدإ الخالِص الثابت "ما جمعه الله لا يُفرِّقْه إنسانٌ" الانهيارَ الأكثرَ كارثيَّةً في التاريخ للمؤسَّسة البشريَّة الأكثرِ أساسيَّةً. هاتان المبادلَتان هما وجهانِ للعملةِ الواحِدة غير المربِحة، و"ماذا ينتفع الإنسان لو ربحَ العالَم كُلَّه وخسِرَ نفسه؟"

٢٣. المحبَّة مُستعِدَّة

لَمَّا ظهرَ الملاكُ للمطوَّبة مريَمَ العذراء، كانت مُستعِدَّةً بجوابها: نعم، ليكُن كذلك! "ليكُن لي كقولك". لذلكَ السَّببِ مريمُ هي القدِّيسةُ الكاملة. فالقدِّيس الكامِل لديه محبَّةٌ كاملة، والمحبَّة الكاملة مُستعِدَّة على نحوٍ كامل بقولها البسيط "نَعَم".

غير أنَّ العروسَ في نشيد الأنشاد، مثلَ نَفسِنا تمامًا، ليست مُستعِدَّةً استعدادًا كاملًا. فهي تُقدِّم أعذارًا؛ وبسبب هذا الخوف، أوِ التَّراجُع، أو تقلُّب الرأي، يؤجَّل إتمامُ حُبِّهما ذاك الذي طالَما تاقَتِ النَّفسُ إليه، وتُعاني هيَ مُعاناةً لا تُسبَرُ أغوارُها:

"أنا نائمة، وقلبي مُستيقِظ.
صوتُ حبيبي قارعًا:
"افتحي لي، يا أُختي، يا حبيبتي،
يا حمامتي، يا كاملتي؛
لأنَّ رأسي امتلأ من الطَّلِّ،
وقُصَصي من ندى اللَّيل".
قد خلعتُ ثَوبي، فكيف ألبسُه؟
قد غسلتُ رِجليَّ، فكيف أُوسِّخُهما؟
حبيبي مدَّ يده من الكوَّة،
فأنَّت عليه أحشائي.
قُمتُ لأفتحَ لحبيبي، ويداي تقطران مُرًّا،
وأصابعي مُرٌّ قاطر على مقبض القِفل.
فتحتُ لحبيبي، لكنَّ حبيبي تحوَّل وعبَر.
نفسي خرجَت عندما أدبر.
طلبتُه فما وجدتُه؛ دعوتُه فما أجابَني.
وجدَني الحَرَس الطائف في المدينة؛
ضربوني، جرحوني!
حَفَظةُ الأسوار رفعوا إزاري عنِّي.
أُحلِّفُكنَّ، يا بناتِ أورشليم،
إن وجدتُنَّ حبيبي،
أن تُخبِرنَه بأنِّي مريضةٌ حُبًّا" (نشيد ٥: ٢-٨).

إنَّنا نفعل ذلك دائمًا مع الله. فالدَّعوة المهموسة إلهيًّا كي نرجعَ إليه في الحال، كي نتبعَ أوَّلَ نَسَمة من روحه، نادرًا ما تُلبَّى. وعندما يتوافرُ لدينا مزيدٌ من الوقت، عندما نكون في مِزاجٍ أفضل، عندما نكون قدِ اهتَمَمنا بالأُمور الكثيرة على غِرارِ مَرثا، عندئذٍ يَسَعُنا أن نُعنى بأمر مريم، الأمرِ "الواحد" الذي إليه تدعو "الحاجة". غيرَ أنَّ الغَدَ لا يأتي أبدًا، وإذا كنَّا لا نرجعُ اليوم فلَن نرجعَ حقًّا، لأنَّ اليومَ هو الوقتُ الوحيد الموجود. "الآنَ وقتُ الخلاص". فإذ نؤجِّلُ تضحيةَ النَّفس الجوهريَّةَ البسيطةَ بكُلِّ شيءٍ آخر، والرُّجوعَ إلى الله بعَينَين مفتوحتَين، وقلبٍ مُنفتح، ويدَين مبسوطتَين، نؤجِّلُ مِلءَ الخلاص. لأنَّ تلك هي حقيقةُ الخلاص: أن نستقبلَ الله داخِلَ نفسنا، أو إرادتِنا، في الحاضِرِ الحيّ. والله الحيُّ لا يدخلُ أيَّ شيءٍ مَيْت. فالماضي مَيْت، والمستقبَلُ لم يُولَد بعد. إنَّ الله يحيا في الحاضر ويدخلُ الحاضرَ فقط.

هل أدركتَ مرَّةً كم هو صَعبٌ أن تفعلَ الأمرَ الذي تقول لك مذاهِبُ سيكولوجيَّةٌ كثيرةٌ بكُلِّ عدم تكلُّفٍ أن تفعله: أن تعيشَ في الحاضر؟ سأُريك كم أنَّ ذلك صعب. أتحدَّاك أن تكفَّ عن القراءة الآنَ الآن، وأن تكفَّ عن الأمَلِ بأن يوافِيَك شيءٌ ثمينٌ في الجملةِ التالية، وأن ترجعَ إلى الله في الحال وتقولَ له كم تحبُّه وتَدَعَه يقولُ لك كم يحبُّك... الآنَ الآن. كُن أحكمَ من العروس في نشيد الأنشاد.

هل رجعتَ؟ أمَا كان ذلك أفضلَ جُزءٍ في الكتاب؟

أم هل غَشَشتَ، وفكَّرت فقط في القيام بذلك؟ يحسُنُ بك ألَّا تُخطِّط للذَّهاب إلى السماء بتلك الطريقة: بالتَّفكير في الأمر.

٢٤. المحبَّة شاملةٌ تمامًا

إنَّ المحبَّة التي يتغنَّى بها هذا النشيد هي محبَّةٌ شاملةٌ لجميع المحبَّات. فأربعُ "المحبَّاتِ الأربع" كلُّها مَوجودة هنا (إذا كنتَ تطلبُ مقدِّمة مُمتازة إلى "**المحبَّات الأربع**"[١٧] *(The Four Loves)*، راجِع كتاب سي. أس. لِويس الذي يحمل العُنوان نفسَه). ففي تلك العلاقة الأكملِ والأكثر حميميَّةً بين جميع العلاقات البشريَّة، في الزواج كما صمَّمه الله، تُوجَدُ المحبَّاتُ الأربعُ كلُّها؛ وفي "الزواج" بين الله والنَّفس تُوجَدُ أيضًا المحبَّات الأربعُ كلُّها. فليس الزَّواج الأرضيُّ ولا الزَّواجُ السماويُّ بديلًا من المحبَّات الأُخرى، أو صادًّا للمحبَّات الأُخرى. إنَّهما كِلَيهما شامِلانِ تمامًا. وهكذا فإنَّ القدِّيس أُوغسطينوس يقول، في **الاعترافات**، إنَّ مَن له الله فله كلُّ شيء، ومَن له الله ولا شيء سواه لا يفتقرُ إلى أيِّ شيء، ومَن له الله وكلُّ شيءٍ سواه فليس له أيُّ شيء أكثر ممَّن له الله وحدَه.

نجد أوَّلَ كلِّ شيءٍ، في نشيد الأنشاد، المحبَّة الغَراميَّة، أو التَّوقَ الشَّديد. وبالحقيقة أنَّنا نجدُ الافتِتان، بلِ افتِتانَ القلبِ الأعمقَ والأشدَّ شَغَفًا، القادرَ على شَغَفٍ وحميميَّة وبهجة أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يقدر عليه الجَسَدُ فقط: "قد سَبَيتِ قلبي، يا أُختي العروس؛ قد سَبَيتِ قلبي بإحدى [أو: بلمحةٍ مِن] عينيكِ" (نشيد ٤: ٩). "تحتَ شجرة التُّفَّاح شوَّقتُكِ [أو: أيقظتُكِ]" (نشيد ٨: ٥): إنَّ التَّوقَ مُتمَّم. "الغَيرة... لهيبُها لهيبُ نارٍ لظى الرَّبّ" (نشيد ٨: ٦).

---

(١٧) كتاب "المحبَّات الأربع" للأديب البريطانيِّ سي. أس. لِويس من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

ثُمَّ نجدُ العاطفةَ هنا أيضًا. وفي الواقع أنَّنا نجدُ هذه المحبَّةَ الأكثرَ رقَّةً وتشجيعًا جنبًا إلى جنبٍ مع المحبَّة الأكثرِ شغفًا، في نشيد الأنشاد ٤: ٩، حيث يُخاطِبُ العريسُ العروسَ بالتَّعبير المزدَوج "أُختي العروس". وهذا الازدِواج يُتابَع في نشيد الأنشاد ٤: ١٠ و٤: ١٢ و٥: ١. إنَّ زواجًا قوامُه كُلِّيًّا نارُ الشَّهوة دونَ أيِّ واحدٍ من أسوار المَوَدَّة لن يكون قابلًا للحياة مُدَّةً طويلة.

ثالِثًا، نجد الصداقة أيضًا في الأصحاح ٥ والعدد ١٦: "هذا حبيبي، وهذا خليلي" (تختلف الصداقةُ عن المَوَدَّة في كَونها علاقةً يدخلُ إليها المرء بحُرِّيَّة ويتعمَّدها، في حين أنَّ المَوَدَّة شعورٌ تلقائيّ. ثُمَّ إنَّ المَوَدَّة لا تتطلَّب مُساواةً؛ أمَّا الصداقة فتتطلَّبُها).

أخيرًا، نجدُ المحبَّة وبَذْلَ النَّفس: "أنا لحبيبي" (نشيد ٧: ١٠)؛ "حبيبي لي، وأنا له" (نشيد ٢: ١٦). فإذا كان أيُّ واحِدٍ من مُقوِّمات الحُبِّ، هذه الأربعة، مفقودًا في الزواج، يكون الزواج ليس ناقصًا فقط بل مُعرَّضًا للخطر أيضًا. كذلك أيضًا تُوجَد هذه المقوِّمات الأربعة كلُّها في الزَّواج الإلهيّ، وهو يُكمِّلُها؛ لأنَّ الطبيعةَ تعكسُ صورةَ النِّعمة، والنِّعمة تُكمِّلُ الطبيعة وتَفتَديها، بَدَلَ أن تُلاشِيَها. فإنَّ الزَّواجَ الأُفقيَّ بين العريس والعروس يعكسُ صورةَ الزواج العموديِّ بين النِّعمة والطبيعة. ذلك هو سِرُّ الزواجِ العميقُ الذي يكشفه بولس في أفسُس ٥: ٢٢-٣٣.

٢٥. المحبَّة "جنسانيَّة"

الكلمة "**جنسانيٌّ**" (Sexist) بحدِّ ذاتها كلمةٌ سيِّئة، لأنَّها مُضَلِّلة (إذ

تُوقِعُ التِباسًا بين وَصفِ وَضع وحُكمِ قيمة)، ولأنَّها أيضًا تتضمَّن التِباسًا بين "مُختلِفٍ بطبيعته" و "مُتفوِّق بطبيعته". ويدَّعي صديقي شَلدُن ڤانوكِن أنَّه ابتكر هذه الكلمة في أثناء مرحلة "الستِّينيَّات السَّخيفة" لَدَيه، الأمرُ الذي يَشعرُ الآنَ بنَدَم عميق من جرَّائه. (راجع كتاب: "**تحت الرحمة**" [*Under the Mercy*]). إنَّ المحبَّة تتضمَّن استقطابًا ومفارَقةً فطريَّين بين الجِنسَين، ولكنْ ليس حماسةً فطريَّة. على ذلك النَّحوِ المحبَّةُ "جنسانيَّة"، وذلك ينعكس في كلِّ مَوضِع من نشيد الأنشاد.

يقول المتَصوِّفون إنَّ جميع النُّفوس، بالنِّسبة إلى الله، مؤنَّثة: لا أُنثويَّة، بل مؤنَّثة. فالذُّكورة والأُنوثة مقصورتان على البيولوجيِّ، أمَّا التَّذكير والتَّأنيث فيمتدَّانِ إلى ما هو أبعَد من ذلك، إلى داخِل النُّفوس كما إلى داخِل الأجساد. وإليكَ البُرهان. فقط الثُّنائيُّ الدِّيكارتيُّ يُنكِر وحدةَ النَّفس والجَسَد، ولا أحد يمكنُ أن يُنكِرَ أنَّ الأجساد هي إمَّا ذَكَرٌ وإمَّا أُنثى. فضَعْ هاتين المقدَّمتين المنطقيَّتَين معًا، تحصُلْ على هذه النتيجة: أنَّ شيئًا ما مُوازِيًا للذُّكورة والأُنوثة لا بُدَّ أن يُتوقَّع في النَّفس، ألا وهو التذكيرُ والتأنيث. فنَحن، بعضُنا بالنِّسبة إلى بعض، إمَّا مُذكَّر وإمَّا مؤنَّث. أمَّا بالنِّسبة إلى الله، فكُلُّنا مؤنَّث. حتَّى إنَّ كلمة "النفس" مؤنَّثةٌ في مُعظَم اللُّغات.

ففي نشيد الأنشاد، لا بُدَّ أن يكون العريس، لا العروس، هو مَن يرمز إلى الله؛ والعروس، لا العريس، هي مَن ترمز إلى النَّفس. أمَّا سبب هذه "الجنسانيَّة" فليس أنَّ الذَّكَر مُتفوِّقٌ على الأُنثى، بل أنَّ الله، عندما يلمسُنا، يؤدِّي وظيفةَ الذَّكَر، لا الأُنثى، تشابُهيًّا: فهو يُخصِبُ النَّفس، وليس العكس بالعكس. ذلك هو السَّببُ الأعمق الذي من أجله صورةُ

اللهِ البشريَّة، في الكتاب المُقدَّس كلِّه، هي مُذكَّرة، لا مؤنَّثةُ البتَّة. ولا شكَّ أنَّها صُورةٌ فحسْب، لا وصفٌ حرفيّ؛ فليس لله أبدًا جَسَد، وهكذا فلَيس له جِنسٌ بيولوجيّ. غيرَ أنَّ الصُّورة تصوِّرُ شيئًا ما، وذلك الشيءُ هو العلاقة التي اختبرها مُصوِّرو مثلِ هذه الصُّوَر: فهُم جميعًا اختَبَروا الله بوصفهِ عريسَ النَّفس. فإنَّ حقيقةَ كَونِ الله يُخصِبُنا روحيًّا، وليس العكس بالعكس، حقيقةَ كَونِ الله يخلقُ فينا حياةً جديدة، وليس العكس بالعكس، حقيقةَ كَون الله يدخلُ فينا، وليس العكس بالعكس، هي حقيقةٌ لا يمكن تغييرُها، كما لا يمكن أبدًا تغييرُ حقيقةِ كونِ الرَّجُل يُخصِبُ المرأة، وليس العكس بالعكس. ومهما عَصَفنا وقَصَفنا في الكلام، فلَسنا بقادِرين على أن نُغيِّرَ القوانينَ الأزليَّة الجوهريَّة التي تخصُّ بنيةَ الحقيقةِ في ذاتها، لكي تُحاكيَ آخِرَ صرعاتِنا وأوهامنا الأيديولوجيَّة.

٢٦. المحبَّة قويَّةٌ كالموت

أخيرًا، لا يمكنُ أن يقهرَ المحبَّةَ حتَّى الموتُ. فالمحبَّة هي الأمرُ الوحيد الذي يمكنُ أن يُواجهَ الموتَ بجُرأة. إنَّ الموت يُزيل حتَّى النُّجومَ. ولكنْ بعدَ الآن بمليارات السِّنين، حين تكون جميع النُّجوم في الكون قد ماتت، ستكون المحبَّة ما تزال حيَّة؛ وإنْ نحنُ عِشنا في المحبَّة، إنْ وحَّدْنا أنفُسَنا بالمحبَّة، إنْ علَّقنا آمالَنا بالخُلود الأبديِّ على المحبَّة، إنْ ألصَقنا أرواحَنا بالمحبَّة، فنحنُ أيضًا سنكونُ ما نزال أحياءً وذوي شبابٍ أبديٍّ، مثلَ المحبَّة بعَينها. وذلك لأنَّ المحبَّة هي من جوهَر الله ذاته. ولذلكَ هي ستَدومُ إلى الأبد (١كورنثوس ١٣: ٨). فعندما يُبيد الموتُ كلَّ ما يفنى، يبقى ما لا

يفنى. وذلك هو بيتُ القصيد في عبرانيِّين ١٢: ٢٦-٢٩. ففي هذا النصّ، الإشارةُ في "الاشياءِ المتزَعزِعة" هي إلى كامِلِ الكَون المخلوق، كما أنَّ العبارة "مَلَكوتًا لا يتزعزع" تُشير إلى محبَّة الله:

> "الذي صوتُه زعزعَ الأرضَ حينَئذٍ؛ وأمَّا الآن فقد وعدَ قائلًا: "إنِّي مرَّةً أيضًا أُزلزِل لا الأرضَ فقط، بلِ السماءَ أيضًا". فقولُه "مرَّةً أيضًا" يدلُّ على تغيير الأشياء المتَزعزِعة، كمصنوعة، لكي تبقى التي لا تتزعزع. لذلك، ونحن قابلون ملكوتًا لا يتزعزع، لِيَكُن عندنا شُكرٌ به نخدم الله خدمةً مَرضيَّة، بخُشوع وتقوى؛ لأنَّ إلهنا نارٌ آكِلة".

إنَّ النارَ هي المحبَّة. فالمحبَّة، شأنُها شأنُ النار، تُبيدُ جميع أعدائها، ومن جُملَتِهم "آخِرُ عدوٍّ"، أي الموت (انظر ١كورنثوس ١٥: ٢٦).

عند عَتَبة الموت، تُخاضُ مَعركةٌ كُبرى لأجل بُطولةِ الكَون في الوزن الثقيل: في هذه الزاويةِ **الموتُ**، وفي تلك الزاويةِ **المحبَّة**. غير أنَّ الموتَ لا يمكن أن يُغيِّرَ المحبَّة؛ بل إنَّ المحبَّة تُغيِّرُ الموت. كذلكَ تُغيِّرُ المحبَّة معنى الموت؛ أمَّا الموت فلا يُغيِّر معنى المحبَّة. وعندما تتلاقى النَّارُ والماء، يجبُ أن يموتَ أحَدُهما. غير أنَّ "المحبَّة قويَّةٌ كالموت" (نشيد ٨: ٦) ما دامت "مياهٌ كثيرةٌ لا تستطيع أن تُطفئ المحبَّة، والسُّيول الكثيرة لا تغمرها" (نشيد ٨: ٧). إنَّ الموتَ يُهدِّد المحبَّة بالإخماد: "أيَّتُها المحبَّة، ستَموتين!" غير أنَّ المحبَّة تُجيب، بانتِصار، بالكلمات التي اختتمَ بها جون دُن (John Donne) قصيدتَهُ الرائعة "يا موتُ، لا تتكبَّرْ": "أيُّها الموت، ستَموت!".

إنَّ نهايةَ قصَّةِ كُلِّ خليقة، الزَّمانِ والتاريخ كُلِّهما، مُتنبَّأٌ بها هنا، كما في أواخِرِ سِفر الرؤيا. فإليكَ كيف تنتهي قصَّةُ حُبِّ الله: بحياةٍ ومحبَّة وعُرسٍ سماويٍّ لانهائيَّةٍ، كما يلي:

"ثُمَّ رأيتُ سماءً جديدة وأرضًا جديدة، لأنَّ السماء الأُولى والأرض الأُولى مَضَتا، والبحر [أي الموت رمزيًّا] لا يُوجَد في ما بعد. وأنا، يوحنَّا، رأيتُ المدينة المُقدَّسة، أُورشليمَ الجديدة. نازلةً من السماء من عند الله، مُهيَّأة كعروس مُزَيَّنة لرجُلِها. وسمعتُ صوتًا عظيمًا من السماء قائلًا: "هُوَذا مَسكِنُ الله مع الناس؛ وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعبًا؛ والله نفسُه يكون معهم إلهًا لهم؛ وسيَمسحُ الله كلَّ دمعةٍ من عيونهم، والموتُ لا يكونُ في ما بعد، ولا يكون حُزنٌ ولا صُراخ ولا وَجَع في ما بعد: لأنَّ الأمور الأُولى قد مضت". وقال الجالس على العرش: "ها أنا أصنع كلَّ شيء جديدًا". وقال لي: "اكتُب! فإنَّ هذه الأقوال صادقة وأمينة". ثُمَّ قال لي: "قد تمَّ! أنا هو الألِف والياء، البداية والنِّهاية؛ أنا أُعطي العطشان من يبنوع ماء الحياة مجَّانًا"" (رؤيا ٢١: ١-٦).

هل سَمِعتَ هذا؟ "مجَّانًا"، بلا ثَمَنٍ ندفعُه! إنَّما مؤهِّلُنا الوحيد هو العطش. وهذا العَرضُ الذي لا يُصدَّق مُكرَّرٌ أيضًا في رؤيا الأصحاح ٢٢ والعدد ١٧:

"الرُّوح والعروس [الكنيسة] يقولان: "تعال!" ومَن يعطشْ

فليأتِ. ومَن يُرِد فليأخُذْ ماءَ حياةٍ مجَّانًا".

إنَّ الفَرَح الأبديَّ، الزَّواجَ من الله، هو بلا ثَمَنٍ لأنَّ المحبَّة قد دفعَتِ الثمن أصلًا، على صليب الجُلجُثة.

فأنت ترى أنَّ المحبَّة تستطيعُ أن تفعل **أيَّ شيء**. المحبَّة وحدَها تستطيع أن تملأ فراغَ **الجامعة**. المحبَّة وحدَها تستطيعُ أن تُقدِّم الجوابَ المشبِعَ عن مَطلبِ **أيُّوبَ** المنشود... ومطلَبِكَ أنت أيضًا.